رواية

عقاب الذات

عباس مدحت البياتي

عقاب الذات

عباس مدحت البياتي

رواية

إهداء

أهدي روايتي لكل من زاغت عيناه عن خط شروعه ولم يرتقي سلم الحياة. لكل من تغاضى عن تنقيط حروف أسمه بالوقت المناسب، فانضوى تحت أنقاض الزمن ليعاقب ذاته على ما اقترفت نفسه، لكل من لم يفقه معاني الجمل في سطور حياته. والى القارئ العزيز.

عقاب الذات

رواية الكاتب

عباس مدحت البياتي

الفصل الأول

1- عقدة إبراهيم

سعى إبراهيم طويلًا في قريته وراء رغبةٍ جامحةٍ، رغبةٍ كانت أشبه بنداءٍ دفينٍ يحاول أن يجد لها صدًى بين طرقات القلب. حاول مرارًا أن يبذر حبوب حلمه في حقول فاتنات القرية، لكن أرضها الغرين لم تحتضن عوده الغريب، ولم تورق شجرة ظنّه رغم صبره المرير أمتد إلى مشارف صبر أيوب. كانت القيود أقسى من أن تُفك، بعضها وُلِدَت معه، وبعضها نسجته القرية حول عنقه كخيوطٍ لا تُرى، لكنها تخنق.

سعى طويلًا لفك طلاسم وحدته، ليجد المفتاح الذي يفك أقفال سجنه الداخلي بين منغصات الحياة، لكن القبول ظل شحيحًا، كأن قلبه كان يدور في دائرةٍ مغلقةٍ لا نهاية لها. بمرور الوقت، يبست جذور شبابه، نفد زير صبره على أسوار تلك القرية المسمّاة "المراغة"، وكأنها تسرق منه زمنه كما سرقت منه أحلامه.

عاش نكدَ الظرف مغشًّى بتأملاتٍ لا تجد صدىً في واقعه المدلّس، حاول كثيرًا أن يداهم واقعه، أن يُخاتل القدر، لكنه لم يرتقِ إلى ما كان يحلم به، لم يصل إلى مصافّ فتيات قلبه، حتى جنّ عليه الليل. هناك، بين العتمة ورغبةٍ رعناءٍ اشتعلت فجأةً في داخله جدائل الحلم، عندها قرّر أن يسوّي أمره، أن يهرب من سراب الظن الذي صار يتعقبه، فبات يتخبط بين

الأحلام المهشّمة، مضطرب الفكر، تائه الخطى، خارج أسوار قريته، نحو مجهولٍ لا يعرف له ملامح.

كل محاولاته الحثيثة لبهرجة أجواء قلبه باءت بالفشل، تحولت لتأوهات مرة على ألسن من ود وأحب، حسرات أعتلَّت صدره المعنى، تحولت لعُقد لم يستطع تجاوز اسوارها، جعلته ينفر من ظل واقع مفروض عليه لواقع أجردٍ هزيلٍ مريضٍ، محاولا فَلِ تلك العُقدِ التي بقيت ملاصقة لشجونه وتقلبات مزاجه...

كأنه والقدر صنوانٌ لأصداء نفسٍ واحدة، يتلاعبان به، يقذفانه بين مدّ الأحلام وجزر الخيبة، حتى هوى من جنة الأمنيات إلى درك الواقع، يتخور في الدروب، معلولًا بين شجنه ويأسه، بين خيبته التي ترسّبت في عروقه كألمٍ متجذرٍ لا يبرأ.

كانت الأهواء تُسيره والفشل يتلقفه، تدفعه نحو مهاوٍ العقد والنكبات والعجز، لتكوّن تلك الصور الرمادية جزءًا من عماد شخصيته، لتكسو ملامحه بذلك الحزن الصامت. كأنّ الزمن نفسه قد صار خصمًا له، يراقبه دون أن يمنحه فرصةً للفكاك. لم تعينه التجارب على تجاوز أعقاب عجزه، ظل أسير قريته التي ضاقت به ذرعا، كأنها تأبى أن تُفسح له الطريق، دون أن تعينه التجارب على تجاوز أعقاب عجزه في حدود قريته.

وسعاد... كانت آخر الكؤوس المُرّة، وأثقلها، جرع سمَّها دون أن يدرك كم سيُسمِّم روحه. فاتنةٌ قدح زناد عصفها في فكره على حين غفلة، فاضت إشراقتها على لياليه، اكحلت عيناه بحضورها، لان لصفائها وطيب قلبها، فوجد فيها رجاءً كاد أن يوقظه من سباته الطويل.

لكنها كانت لحظةً مارقةً في جوف الزمن، نبضًا عابرًا أنعش حلمٌ لم يدم طويلًا. أُجهضت قبل أن تنمو لها ريش، سُرقت منه بفعل عُقد قواعد القرية وأعرافها المتجذرة، التي لا تسمح لحبهما أن يزدهر. وهكذا، رحلت كما جاءت، تاركةً خلفها أثرًا لا يُمحى، وخيبةً جديدةً تُضاف إلى سجل الهزائم التي حملها القدر إليه بلا هوادة.

سعاد التي كأن يتأملها تكون بلسم شفائه وطيب جراحاته؛ زادت تأملاته تلوثا وقرافة، لم تستطع أن تشفي غليله، كأنها وهمٌ يلمع ثم يخبو. سايرته، جابت مساحات انتظاره دون أن تسبر غوره، لم تصل إلى عمق روحه، لم تكتب النهاية التي أرادها، بل تركته في منتصف الحلم، حيث الأشياء تبقى معلقةً بين الرجاء والخسارة.

وفي مضمار سعيها القصير، تاهت الخطوة، ضاعت بين زحمة الحسابات والعُقد والتقديرات الخاطئة التي ألفها، كأنها لم تكن يومًا فرصةً حقيقية، بل خُدعةً أتقنتها الأقدار. وحين انقشع ليله، حين بان الخيط الأبيض من الأسود في سماء عجزه، أدرك أنها لم تكن سوى وهمٍ آخر يُضاف إلى سجل

الأوهام التي كبّلته، وأن رجاءه بها كان رقصةً أخيرة في مهبّ الريح.

لقد عاش حياته منفردا، وحيدا، بعيدا عن دائرة الضوء، كفراشة مبهوتة بفتنة الأضواء بعيدة عن الواقع، حيث ما أن تقترب من إنارة الحلم؛ حتى تحترق أم الجناحات في لظى الأهواء والأشواق ونار الوحدة وسقم الجوى.

لم يفلح بإدارة سعيه، عاندته ظروفه القسرية؛ حتى خَفَّتْ وطأة المودة بينه وبين من أحب، ثم انطفأت جمراتها في عينه الظامئة، لتصطلي مساعيه ككومة رماد أمام ناظريه..

تلك هي صورة من صور إخفاقاته اللاتي خمدت نيرانها وذابت شموعها في إيوان صبره مع ارتفاع دخان عجزه وقرف صيته في أرجاء القرية التي يسكنها، دون أن يستطيع تغيير واقعه الخشن لملمس أمَلَسٍ ودون أن ينبس بشفة.

سعاد هيَّ آخر عقدة تلبك بها قبل أن يقرر هجرة قريته، أخر محاولاته المنتحرة على دكة العرف والتقاليد والعادات والنظم التي تتعامل بها القرى والأرياف في صعيد مصر. هي بكر أبيها مالك الأرض التي يعتاش منها إبراهيم. ظبية الفلاة السامقة، أميرة قلبه وعقله، رفيقة سره وعمله في الحقل، لبيبة فكره وهواياته وصمته.

رغم الجلد لم تسقط كقرط من شحمة أذنه، بقيت ترن في صوان أذنه، توشوش له ذهنه، تزعق بفلك ظنه كفكرة،

كأمنية، كحالة تمنى أن يظفر بها دون غيرها من الفتيات لنبل صفاتها.

سعاد بقيت عالقة كنجمة في سماء وجده، تدور في دارة الهوس المحدودة، بقيت كصوت سلس تصر في أعماق نجواه، ترغمه على التحدي بصيغة من صيغ الشوق، كفتنة تحيره، حركة تأنسه، تعذبه، تجلده، تتحكم بقدراته وقراراته بسوط سحرها البدوي وبأنَف شخصيتها اللامعة... بقيت تلك النحلة تدور وتطن في فلك ظنه، تلسعه أحلامه بين الأحين، تجدد آلام وجده في منحنيات الذاكرة العابرة على لوحة الرسم البياني لمجمل الأحداث العاطفية التي مرت عليه ضمن مساحة قريته وفضاءات قلبه الواسعة.

كانت سعاد بالنسبة له كأثاف القدر، ما أن لامسته ريح الأعراف والتقاليد؛ حتى تهاوى عن موضعه، فهوتْ وهوتْ خلفها أحلامه وأمنياته ومشاريعه المستقبلية نحو سحيق قدره.

خلال جدولة حياته التمس بانه كان أسيرا في بقعة محدودة جزلت عنه أحلامه وخطط مشاريعه المستقبلية، خلال تلك الفترة الطويلة من إقامته التي شملت فترة طفولته ووعيه وبلوغه؛ هيَّ من ابتسمت له بصدق، هيَّ من آزرته وشدت وثاقه، هي من وقفت لجانبه وفتحت الآفاق أمامه.... في الحقيقة هيَّ من تأملته وأملته الحياة وثمنته خليلا لها، هي من وافقته في تطلعاته وقومته خلال فترة مكوثه الأخيرة في القرية.. ما عداها؛ كانت حياته عبارة عن نزوات مراهقة

وسذاجة عابرة لم تصل حدود الغاية والكمال، سواء من ناحيته أو من ناحيتهن وأن كان يسعى بذاته خلف الكمال لتكملة نصف دينه.

بعد تلك المعاناة وتلك الفترة الحرجة المظلمة من واقع حياته أضحى الأمر سيان بالنسبة له، لأنه بقي خلال تلك الفترة معلقا في وسط الطريق، قابعا في قوس العبودية التي فرضت عليه، بسبب شبكة الاعراف والتقاليد التي عُشِّقَ بها والتي سنتناول حيثياتها بالتفصيل.

لذا ما أن خسرها وأفتقدها؛ حتى هجس كأنه قد أفتقد بدر الدجى، أفتقد سلسلة عمره وحياته والقرية والتاريخ وفترة طفولته ومكوثه فيها برمتها، لقد أضاع ذكرياته ومستقبله وجريد أحلامه الهفهافة ومحبة تلك الفاتنة مجبرا، تلك الفترة أضحت لها أشواك تغز ذاكرته بذكريات حَرّة وضبت شخصيته، تركت نقط سوداء في وجهه، تركت الأحداث في لوحة ذاكرته، لم يتخلص من مشاحناتها ومفارقاتها قط.

منذ أن أفتقدها لم يعد يعول على حرث الذاكرة، تلك التي غدت أرض بور مع توالي سنوات الفشل، ألا من شواخص مرة بدت تطفح في خاصرة الذاكرة بين الأحين تذكره بعجزه. شواخص تذكره بفشله وعالمه المحيط به القاسي، تعيد له محاولة تجديد ثقته بنفسه بأسلوب آخر خارج نطاق القرية.

ذكريات جعلته أسير صمت وتحنان لماضيه، كشفت له جوانب من مسالك الهرب من القرية وتلك الأعراف المغلة بذاته الأسيرة، الهرب من قيد التقاليد التي ضيقت عليه الخناق لينفر منها لعالم آخر أكثر جنونا وحيرة وحيوية ومجهولية. لعالم أوسع حركة وحرية وانتشاء، وذلك حين صفت قرارته لمواجهة قرارات القرية بتحدٍ مقابل، تحدٍ فرضه عليه ظرفه.

هكذا صار يتأمل سعاد جديدة في عالمه الجديد، حيث انه في حبه لسعاد كان كالليقة التصق بفتنتها، لم يتخلى عنها إلا مجبرا، لذا بدأ يبحث في مجلدات الحياة عن سعاد أخرى غير مقيدة بنطاق العرف والتقاليد، عن سعاد تملك من الشخصية والعفوية شخصية وعفوية سعاد وجمال يوازي جمال سعاد وكبرياء يطابق كبرياء سعاد في عالم المنفى، عالم غائر بحيثيات جديدة لا يعرف عنه شيء، غائر في زوايا الصدف ومخابئ الفرص، عسى أن يتمكن من ترميم ذاته المنهارة بها.

ولكن كيف؟؟؟؟ من التي ستشهد له وتشد وثاقه؟

من تآزر سعيه وتقبل بصفاته؟..

من تحتمل فشله وعجره القديم ليتمكن من تجديد ذاته؟

من تخترق قلبه ليتمكن من أن يخترق المألوف، ليتسلق بها ادراج المستحيل، لينجد ذاته من خيوط شبك العرف والتقاليد التي تكبل بها دون ذنب، ليكون سيد ذاته أمام شيوخ القرية وفي عين سعاد التي فضت برحيلها خيش أحلامه؟.

مـن التـي سـتفك قيـده بعـد أن أحكمـت سـعاد بفتنتهـا السـليطة علـى قدراته؟

من؟.. ومتى؟.. وكيف؟

كيـف يمكنـه مـن أن ينفـذ مـن شـباك الوحـدة والتوحـد والجنـون؟ كيـف ينفـذ مـن تلـك القيـود ليغـوص بعيـدا فـي عـالم الأحيـاء المتجـددة، ليكـون فـي أجوائهـا عنصـرا خلاقـا أكثـر جـرأة وأوسـع فضاء وحرية وتأثيرا مما هو عليه في حدود القرية!..

تلـك هـي دورة الحيـاة التـي صـار يبحـث عنهـا فـي عيـون سـعاد جديـدة، أنـه زمـن أجـرد وتقلبـات ظـرف أهـوج وشـبق مـراق، وأعتـاب حلـم غـائر فـي أتـون فكـرة هلاميـة لا يمكـن أن يمسـك بهـا، وآهـات صـب وقلـب ملتـاع وصـدر لا يحتمـل نـار صـبره. عليـه أن يجمـع كـل تلـك الشـتات فـي صـرة واحـدة، لينطلـق بهـا من عالمه الداني لعالمه الجدير القابع فوق المستحيل.

بـذلك وضـب حياتـه نحـو الغـد بشـيء مـن جدولـة ثورتـه ضـد شـيطان اليـأس الكابـد علـى قلبـه، لينطلـق مـن فضـاء العجـز والفشـل كصـاروخ يحمـل فـي جعبـه قمـر أحلامـه لفضـاء الحـب والنجـاح والتجديـد بمـا يمكنـه مـن تجديـد ذاتـه وصـفاته وأفكـاره ونظرتـه للحيـاة المسـتقبلية، لـذا قـرر أن يحلـق فـي سـماء الحريـة كطيـر مهـاجر فـوق مسـاحة ظنـه وحظـه بحثـا عـن أحلامـه فـي عمق المجهول.

2- سعاد

على مدى أشهر طويلة تمكنت سعاد من إشغال ذهنه، رغم الحواجز المنيعة التي كانت تحيله عنها، سواء الطبيعية منها أو المختلقة. لقد ملئت قلبه شغافا وبهجة وحبورا، صدحت بسماء عشقه ككروان حر، غازلت بروده كشمس دافئة، جعلت من فتنتها إعصار تضرب شواطئه أو كرباب لا يحتمل فيضه.. فهام بها كالملهوف الظامئ وهامت به دون ذلك ودون أن يتجرأ من اقتحام حاجز القبلية الفاصل بينهما، من أن يجرأ ويتقدم لخطبتها! أو يتغنى علنا بمحبتها! بسبب العُقد المتجذرة في بطون المجتمع الصعيدي حسب قاعدة البنت لأبن عمها.

سعاد هيَّ أبنة سيده الذي عطف على والده يوما ما، حين آواه في قريته بعد أن هرب بجلده من مصائب الثارات التي لاحقته مظلوما. كان قد جاءهم لائذا، دخيلا، هاربا من أقصى الجنوب حين آواه أبو سعاد، ثم عطف عليه وأعطاه قطعة أرض بحدود أربعة دونمات، ليزرعها بمحاصيل موسمية مقابل خدمة سقي وجني محاصيل أرضه الواسعة. كان قد حصل ذلك سنة 1988..

كان لابد من أن يرضى بهذا العرض وهو خالي الوفاض لا يمسك بيده شيء يعول ذاته عليه، وافق والده بعرض وعطاء والد سعاد لتسليك أمر حياته والأسرة بهدوء وسكينة داخل قرية المراغة. كان مجبرا على الخدمة بعد أن قطعت به

السبل، لا حلول جذرية أمامه بعد أن وجد ذاته مشردا على حين غفلة من أمره، سعد كثيرا حين وجد باب رزق يفتح له أبوابه على مصراعيه وهو في تلك الزنقة التي جردته من كل شيء. لذا اقتنع بالنصيب والحماية.

إضافة للعقد المتجذرة المبرمة في رقبته، فللفتاة لفائف من تلك العقد التي لا تستطيع أن تنفك عنها، وخاصة **عقدة أبن عمها حسني** الذي تأملها طويلا بعد أن عقد قرانه عليها وهي لا زالت رضيعة حسب التقاليد الدارجة آنذاك حيث البنت لابن عمها. حينها خطبها عمها لولده حسني الذي يكبرها بخمسة سنوات، من يومها سجلت سعاد باسم حسني كقطعة أرض طابو. من صغرها ختمت بختمه وأضحت من أملاكه كأرضه وعقار بيته. مذ أن كانت برعما جنى عليها أبوها بعد أن كورها ودلفها بقوس حسني، وذلك حسب العادات والتقاليد البالية المتعامل بها والتي يؤمنون بها والسارية على معظم بنات القرية.

من جهة حسني أنه لن يتنازل عن حقه بها إطلاقا بعد أن أصبحت فتاة يافعة فاتنة ملظة تجلب الأنظار، ذلك الفتى البذيء والمعروف بوقاحته وشراسته في قرية المراغة، أضحى كابوسا مرعبا لها، يزيدها قلقٌ على قلق، كان مستعدا أن يفني القرية ولا يخسرها لأسباب عدة:...

أولا - لان عمه لم يكن له ولدا يرثه أو ليكون سيدا على بيته وأرضه من بعده.... ثانيا: عليه الحفظ على شرف العائلة من

دنس الغريب وعدم التفريط ببنت عمه لشخص غريب ما، وثالثا ليضيف أرض عمه إلى أرضه حسب ما سترثه سعاد من أبوها بعد وفاته...

تلك المكاسب يصعب التنازل عليها إذا ما أضفنا إليها ذكاء سعاد وجمالها وتعليمها الدراسي بعد أن اتممت الإعدادية بالمقارنة به الذي لم يكمل المرحلة التأسيسية الابتدائية.... ذلك ما جعله يكون كابوسا في فلك سعاد وظلا يتعقب نواياها واحلامها وأن كانت لا تهواه وتقنع به. كان يرغ في مياه حياتها وتفاصيل يومها رضيت أم لم ترضى اضحى وجوده كالعلة في الجسد، يطاردها كشيطان أخرس وأن لم يكن متواجدا في ذات المكان التي تتواجد به... ذلك ما جعلها تهابه، تكرهه، تلوم والدها الذي لن يستطيع التراجع عن قراره بعد أن وهن جسده وضعف سره، قد يَجْرمْ حسني بحقه وبحق العائلة إذا ما غير رأيه أو غير فقرة من العقد المتفق عليه معه.

ذلك ما أفصحت به سعاد لإبراهيم، حين أفصح لها عن مكنون قلبه، حين فتح لها سرائر قلبه. في ذلك اليوم كان قد باغتها بعواطفه جهرة وصراحة، صرح لها عن فيض شعوره وما يستشعر به من لوعة تجتاح صدره تجاهها، لمست حموضة معدته التي ألبكت أحشائه بسبب مرارة الخبر الذي اخطرته به سعاد.

أما بما يخص مشاعر أبن عمها حسني الدميم، فلم يكن يحلم بها قط، أنما عدها جزء من ممتلكاته الخاصة، ولن يسمح العبث بها مطلقا. لقد كان قد عَقد العزم على الزواج منها جهرة بعد أن صرح برغبته تلك أمامها وأمام والديها في كل مناسبة تجمعه بعمه.

فما كان منها إلا أن تحذر إبراهيم من الإفصاح بما يجيش في فؤاده من نار الجوى، وأن لا يركب سنم التهور قبل أوانه... نصحته بالتريث ومصاحبة حسني ومحاباته قدر الإمكان حتى تنجلي الغمة عن رؤوسهم.

قالت له:...

- عليك أن تلتق به وأن تقدم على صداقته قدر الإمكان قبل القيام بأي خطوة مسبقة رعناء، فهو الذي إذا ما تهور يجيش بالديار الخراب، لما له من سجل سمج ثقيل وصيت أعور في قريته، وبأس وسطوة وكبرياء، لن يتنازل عنها مهما كان، أنها عماد شخصيته.

ولن ينسى إبراهيم ذلك اليوم المشؤوم الذي تجرأ به حسني بوقاحة على قتل تامر أبن قريته، بعد أن تجاوز الأخير على ترعة سقي أراضيه، حين كسر مجرى الماء صوب أرضه، فما بالك بالذي يتجاوز على حقوقه وحبيبته التي تأملها سنين عمره!.. كان قد أجهش على تامر المسكين بدم بارد، ثم دفع ديته دون أن يتأفف على ذبحه وتهوره قيد شعرة، دون أن

يتغير سلوكه المشين فيما بعد، بل أنه ازداد خشونة وبياسا وسفالة، صار أجلف مما كان، مخيفا، أضحى يكنى في قريته بالكابوس المرعب.

حسني الذي لم يغادر حدود محافظة سوهاج في حياته إلا ما ندر، ذلك الإقطاعي الذي أرتقى مكانته بالوراثة دون أن يسند ذاته بالتعليم. اعتمد في حصيلته من البأس والغنى على سعة أرضه وكثرة عماله وفلاحيه، وعلى صرامته وصلابته وجسارته وحِدّةِ سطوته. أستمد قوته من جلد الأرض، وجلد إضافي حقنه به الزمن من جنون وعظمة، فيما بنيت خشونته على تعاليه ودلاله منذ الصغر. لذا كانت في داخلها تشعر باشمئزاز منه ومن سلوكه الجانح وتكره عقيرته حين تطرق أذنيها تلك البجَّة التي تعتلي نبرات صوته الأجش.

تستند هيبته على طوله الفارع وعرض منكبيه، ونظرات عينيه الدعجاء الجاحظة، الحادة، المليئة بالشك والقسوة. يسكن جبينه سيف الغضب نتيجة تقمصه دور الشدة الدائمة في قسمات وجهه، يتجلل من خلال تلك العلامة المخطوطة والقانطة بين حاجبيه وفي طيات جبينه. يكمن في حدقات عينيه المبرقة شر دائم، لن يتخاذل بأخذ حقه ولو كان وراء الشمس، لم يعرف بصفة الجبن والتهاون بتاتا، ولن يخشى في حقه لومة لائم.

تلك الصفات حسب لها إبراهيم ألف حساب، جعلها في نصاب عينيه، وخاصة بعدما نبهته سعاد بأنها مرهونة لأبن عمها

حسني منذ صغرها، وأنها لن تتجرأ على رفضه خوفا من سطوته وانتقامه من والديها، ولن يستطع أبوها العجوز من أن يكف شره ويحميها منه، بل هيبة أبي في القرية تكاد تكون من جنونه وسطوته.

حظ إبراهيم العاثر أوقعه في نزال دائم مع القدر، لذا جاءته الضربة القاضية من غير أن ينتبه، وفي غير أوانها، ومن قبل غريمه حسني الذي لو عرف بنواياه لأفناه من الوجود، ذلك الأشوس المقدام الذي تسيد شباب القرية بالبأس والعنجهية التي يتصف بها...

أبناء القرية يعرفون جيدا نواياه العاطفية، إلا إبراهيم، لم يكن يهتم لأمره ولأخباره فيما سبق، ربما لغصة في نفسه أو لكره رباني تجذر في خاطره. لذا كان لا يواكب ظنه ولا يحتك به ولا يجامله منذ الصغر، خاصة إبراهيم هو الغريب الوحيد عن القرية أبن النوبي الوحيد بين شباب القرية.

وَلّدَ ذلك النشيج غصة في داخله، وسوادا بعد حادثة القتل التي أفتعلها بحق تامر وبدم بارد. غصة ركبت مخه، منعته من تقبل أخباره وتداول أسمه في أي محفل أو مناسبة أو دون ذلك، كان قد وضع بينه وبين حسني حاجزا نفسيا منيعا خلق المسافة بينها والتي لن يتخطاها أبدا. تجنب ملاقاته ومجاملته، حفاظا على كرامته وعزة نفسه التي أن أفتقدها سيفتقد ذاته وكيانه في القرية والتي لا يملك غيرها. تجنب فقدان سمعته في القرية أملا أن يكون أحد أفرادها الحقيقيين بالزوج من

أحدى بناتها، لا أن يبقى نزيلا فيها دون استقرار. أحاط نفسه بظلال نفسية تبعده كل البعد عن كل ما يمس حسني من قريب أو بعيد، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه أبن أخ الرجل الذي أكرمهم والفاهم في القرية بعد التشرد.

المعادلة واضحة في ميزان القبلية، وذلك إذا ما أخطأ وفكر بخطبتها يعني أنه يتجاوز على شرف حسني وهذا بعرف القرية خطأ جسيما، كأنه يقدم بجدية على إقامة الحد عليه. خطوة إذا ما أخطاها قد لا يخطو بعدها خطوة ثانية، منع عليه محاولة التقرب أو الدخول في قوس سعاد المغلق بتاتا. والحقيقة، الحال لا يختلف مع فتيات القرية الأخريات، لان العرف يكاد ينطبق على بنات القرية اسوة بسعاد، فمعظمهن لهن أبناء عمومة وجذور في القرية إلا هو.

تجرئه تعني مغامرة محسومة النتائج، تعني بأنه أودى ببصمته على نهايته، تعني كسره حاجز التقاليد القبلية وعدم اعترافه بالقيم المعمولة بها منذ أمد الدهر، تعني تعديه على حقوق الغير جهرة..

معروف للجميع ضمن العرف السائد القبلي، أبن العم أولى بالنصيب من الغريب للحفاظ على النسل والملكية، ومن يتجاوز التقاليد يتحمل وزر أخطائه. وإذا ما أراد رجل خطبة بنت ما، فعليه أن يستأذن من أبن عمها قبل أن يفكر بخطوته الأولى. أن يخضع لكل شروطه ويلين لرغباته. ربما عليه

دفع دية الموافقة له إذا لم يرغب أبن العم ببنت العم كزوجة له....

الحقيقة عليه أن لا يستأذن بنفسه، إنما يسند تلك المهمة لوجهاء القرية، عليه أن لا يخترق الحواجز بالطرق العشوائية المباشرة، حيث تترتب على ذلك تهم وثلب وزراية أبدية تلتصق به وبالبنت مباشرة، وقد تؤول لنتائج عكسية غير حميدة.

لم تكن سعاد ذات مسحة جمال ساحر أخاذ، أنما كانت أفضل فتيات قرية المراغة وتفرعاتها قامة وذكاء. ما يميزها عن أقرانها؛ سماح أبوها لها بمواصلة الدراسة حتى تمكنت من أنهاء المرحلة التأسيسية(مرحلة التاسع الإعدادي) أي أنها تقرأ وتكتب وتتجمل وتراعي ذوقها في لبسها وشياكتها واختيار مقتنياتها وألوان ثيابها ونوع لبسها. تكاد تكون الوحيدة التي تلبس الفساتين التي فيها شيء من الخصر وإبراز مفاتن الصدر، فساتين مختارة ذات ألوان سائدة وخامدة تختلف عن تلك التي يرتدينها بنات القرية من فساتين فضفاضة مزركشة ومموردة والمطرزة بخيوط من الابريسم وشرائط الدانتيل اللماعة. نادرا ما تربط شعرها بربطة أو حجاب في ساعات العمل، دائما ما تبرم شعرها الأدهم بجديلة متينة تكاد تدك حدود عجيزها بما تسمى ضفيرة الحصان أو تجعله مكوم فوق رأسها كتاج أو وردة.

إضافة إلى ذلك تحب أن تتجمل مثل جميلات المدينة، غريزة طبيعية تكمن في نفس المرأة، خلقها الله لتؤنس الرجل وتقلل من همومه وشقائه. تجدها بين الحين والآخر تضع مسحة من مكياج شفيف على الوجنتين والشفتين، ولون يكاد يموه بلون بشرتها المستل من رواء الغروب، النافذ لمعانه للعيان كظلال العين. تعلمت الميك آب بذاتها، من خلال تتبعها لمجلة المرأة، وباتت تعتمد على نفسها في هذا المجال، بل أصبحن زميلاتها يستندنَّ عليها في هذا المجال. كما أنها تحسن عمل الحف ونتف الشعر وإبرام الحواجب باستخدام الخيط أو الملقط، حتى أنها اصبحت سيدة القرية في تجهيز العرائس.

أنها بطبيعتها ملساء يكاد الشعر ينعدم في وجهها، فيما يزغب مناطقها الحساسة بعض الشعر الدقيق كالطافح في ذوائب زلفها والذي يزيدها رقة وبهاء... وحين تكون برفقة زميلاتها، يطغي سحر بشرتها الشفيف ومفاتن أنوثتها على مفاتنهن، فهيَّ تمتلك في لونها بشرة سمراء شفيفة تختنق بالجاذبية، ملامحها ناعمة، ذائبة فيها كاللمعة المشعة في الجوهرة.

لبكرها في السلم العائلي امتلكت الريادة في كل شيء، فأنها لها الأولوية في القرار والرعاية، مدللة عند والدها الكريم، حيث ولدت بعد معاناة عقم وعسر ولادة دامت عشرة سنوات، بعد ما كانت والدتها تطرح جنينها قبل أن يثبت في الرحم. ولدت سعاد بعد أربعة محاولات باءت بالفشل، خلالها كانت

تسقط الأجنة قبل أن تكتمل بين عمر شهرين إلى خمسة أشهر. تلك الحالة أولدت عقدة لدى الوالدين، لذا حين ولدت سعاد عاشت منذ صغرها في رعاية ودلال ومحبة في كنفهما، وقد سميت سعاد لأنها أضفت البهجة والسعادة على والديها.

لتلك المواصفات التي اجتمعت في تكويرها وتكوينها أثر عميق على انشراح نفسها، لذا تجدها دائما ما تكون فكيهة، مبتسمة، نغامة، إضافة إلى ما لها من صفاة من صفاء ذهن ومقبولية التصرف، مما ساعدها على التحرر والتوسع في مجال الثقة والهواية، فكانت على قدر من الدراية والمفهومية قياسا إلى بنات القرية..

خلال وعيها وانبثاق فتنتها كانت تتحف أوقات فراغها بممارسة الهواية، تعمقت باستخدام الريشة وصبغة الألوان، أبدعت في رسم الطبيعة المحيطة بها، ذللت الفراغ القاتل في القرية بهوايتها، أخذت تزكي ذاتها بخطوات التحرر والانفتاح نحو الحرية الملتزمة. جملت وجودها بهواية الرسم، بل أنها تعمقت بها، تولعت في رسم محيطها القروي وثنايا العشب وورق الشجر وخاصة خلال فصل الخريف، كما برعت في رسم ظلال النخيل والجذوع الممتدة في الأرض وإيحاء مراعي الضأن والخواطر المنساقة مع مياه الترع والروح المرهفة مع الطيور العابرة والمهاجرة.

بذكائها دربت موهبتها على محيطها في رسم زاوية السفر في أرجاء القرية ضمن أنواع البستهم وجذور تقاليدهم المشاعة

ضمن الحقل وطرق الحصاد وترف الأعراس وما إلى ذلك من قِبَلْ وهلم جرا؛ حتى تمكنت من أن تتجاوز مرحلة الموهبة إلى مرحلة التنوع والأبداع، ذلك ما جعلها أن تفرض نفسها في البيت والقرية وأن تبدي رأيها في التفكير المنطقي بما يخص المسائل العامة والخاصة، وخاصة تلك التي تخصها وتخص قضايا عائلتها ورفيقاتها في القرية، بما فيها من أمور الزراعة وتربية المواشي والحقوق العامة...الخ.

تلك الموصفات التي حملتها جعلتها مرنة التعامل، سهلة الانصياع، جميلة المعاني، مراغة في النفوس والألسن، بسيطة منشرحة الوجه، تطرح رأيها بجرأة، تناقش الأمور مع المقربين وخاصة مع نسوة القرية ووالديها وأقرانها، حتى أنها صارت المحور الذي تتحد عليه الأخريات فيما يخص المسائل العاطفية والقدرية والمصيرية التي تخص أهلها.... إلا أنَّ حالها حال الجميع لا تتجرأ أن تتجاوز حدود العرف والتقاليد، حتى فيما يخص مستقبلها.

هواية الرسم قربتها من إبراهيم، حين عرفت بأنه يجيد فن الرسم بشكل من الأشكل التعبيرية البسيطة، وخاصة حين كشفت ذلك يوما ما خلال عمله في الحقل، حين كان منغمسا في خيال بعيد، ويده تعبث وتتغزل بوجه فتاة ريفية، وكان قد أبدع في تصوير ملامح الفتاة، عَبَرَ بها حواجز قلبه باستخدامه قلم الرصاص الجرافيك الذي يجزل المعوقات.

خلال فترة الدراسة كانت قد رسمت لواحات جميلة معبرة وأن كانت تنقصها الدقة والثقة، إلا أنها عبرت بشكل سلس ومضني عن المراعي وجلد الفلاح في حرث أرضه وزراعتها وكرب حصادها، كما أفلحت في رسم نواحي القرية والمواشي وبالتحديد مزرعة الأبقار ومراعي الخراف والحمير وهيَّ تميد الأرض بغبارها، تحيطها مجموعة من كلاب الحارسة....

وبعد أن شغفت بإبراهيم وتمادت في طربها معه وخاصة في مبارزة الرسم التي تحدته به من حين لحين، حينها وجدت فيه جدار يسند موهبتها وأفكارها ويشجعها على إبداعاتها.. وبعد أن أصبحت الريشة في يدها مرنة وذاع صيتها في القرية وبين رفيقاتها.

كانت قد عبرت بأناة ودقة في قمة أبدعها، في لوحة خاصة اهدته له، حين رسمته وهو يحصد الزرع وهي إلى جانبه ترفقه في جني المحصول. جعلت منه درّاسة الحصاد بمنجله المعقوف لباقات السنابل، فيما رسمت نفسها بيدر حصاد وهي تحمل طست إلى جانبه تلم ما حصد، شالحة ثيابها، كاشفة ساقيها المبرومتين لحد الركب. وكأنها بذلك رمت مياهه الراكدة بحجر، كأنه أغرته بالكشف عن سيقانها الباهرة..

قد تكون بحسن نية أو بعفوية، فالمرأة دائما ما تحتاج أن تُلعق ذاتها بكريمة الغزل، أن تُنَعّم بمساج تشعرها بحيويتها وتديم عاطفتها وتجدد أفكارها بين الأحين المراقة.

تلك كانت إشارة صريحة منها تعبر عن تأملها المستقبلي، حين وضعت نفسها في الصورة إلى جانبه تشاركه عمله وهمومه في صورة تعبيرية غاية في الجمال، كأنها عبرت عما يجيش في خاطرها من عاطفة تجاهه، ذلك ما عنت إليه في نفسها، وكأنها بذلك سيرت نسمة من هواها لتُحَرك بها ستائر نافذة عاطفته.. حينها أيقن بتلك النزوة التي تجانست مع عاطفته ولامست عطفه، حيث ألتمس حرارة وجدها ونور عاطفتها في جميل رسمها.

تلك اللوحة كأنها كانت رسالة أعجاب غير معلنه من قبلها بشخصه، شرعت زوابعها في تحريك سحبه الماطرة، فأمطارها بوابل من الصفوة والعشق والنظرات المبطنة اللماحة، حتى تمكن من فك أنشوطة الغزل بعد أن أقحم نفسه في عالمها بعبارات صادقة نابعة من القلب، شرخت صرة عاطفتها وافسحت نضارة الوجه وهدأت من اضطراب النفس لكليهما.

لكن....

... بقيت تلك الـ لكن موضع تساءل كخنجر وقب خصره وخصرها، دون أن يتمكنا من معالجة الأمر بما يناسب الظرف المحيط بهما، بقيَّ كل منهما واقفا في ضفته بعيدا عن تخطي حواجز الضعف بمركب المجازفة. هناك ألف سبب وسبب يحيل بينهما، يمنعهما من تجاوزا حدود الخط الأحمر الفاصل بين قلبيهما والمحيط بدارته الغفلة المغلقة.

أهـدت تلـك اللوحــة المعبـرة لإبـراهيم، والـذي أعتـز بهـا كثيـرا بحيـث جعـل لهـا بـروازا مـن خشـب الصـندل، يعكـس عمـق الصـورة وجمالهـا ومـدى اهتمامـه بهـا؛ حتـى أنـه علقهـا علـى جـدران غرفتـه كـي لا تفـارق روحـه همسـات روحهـا الراقصـة فـي مضـامينها، المغروسـة بتفصـيل فـي ثنايـا اللوحـة، المعجونـة بألوانهـا والعاجـة بغبرتهـا الذائبـة برقـة وخشـونة الفرشـاة وهـي تعبر عن رقة أناملها وعنفوان إحساسها المرهف تجاهه.

مـا فتـئ ظـل يـتمعن بهـا فـي لحظـات تواجـده فـي البيـت حتـى حفظ تفاصيلها عن بكرة أبيها، غدت أحب وأهم مقتنياته.

تلـك المناسـبة أولـدتْ فرصـة جيـدة لإبـراهيم مـن أن يسـترق قُبلـة مـن خـدها برضـاها وتحـت وشـاح الخجـل الـذي غطـى علـى وجنتيهـا، كانـت قبلـة صـفاء بلحظـة غفلـة عـابرة، ففـي الوقـت الـذي بـه أذاب رغبـة فـي نفسـه العطشـة، كانـت قـد جرحـت رغبـة مخفيـة فـي الخـواطر لا يمكـن شـفطها وإهمالهـا قـط، فـي الوقـت الـذي بـه استأنسـت لقبلتـه وراقـت، تألمـت لموتهـا علـى أسـيل خدها بخنجر أبن عمها حسني.

تلـك اللوحــة المعبـرة كانـت سـببا قويـا فـي إذابـة ثلـوج الشـتاء العالقـة بينهمـا، وسـببا فـي إدامـة خيـوط المـودة الواهيـة وثبـوت القمـر فـي سـماء الوجـد، لـتكن تلـك اللحظـة مسـرحا لانفعـالات الـذات التـي عقـرت فـم الجـوع والعطـش، جلـدت الـذات بالـذات في بيئة ظاهرها غض وباطنها جفاء.

تلك اللوحة شغلت ذاته كثيرا بعمق معانيها، وبمعني تواجدها على جدران بيته، سَلَتَ من رونقها خيوط فجره، شتت أفكاره وأوردت إرهاصات قلبه بالشغف المثار وبفتنة سعاد التي جعلته يتيم بها...

سعادة مرحلية أخذته لمصافي الحلم، جعلته يشرع من خلالها برسم خطوط عريضة أزفت تسره في مخيلته نحو صرة مستقبله، هفا بها بلحظة تأمل لحِجرِ سعاد الخاوي. سر لها بكل ما تعتريه من ذرائع عاطفية مشحونة بفوتوناتٍ جياشةٍ نحو صرحها العالي، أنها الذات الإلهية القابعة في جوفه والتي تدفعه إليها بعاطفة خنوع وإذلال واضح نحوه قامة أنوثتها.

رمى قدره بين قدميها، همس لها بما يهمس له قلبه، صرح لها بما شغل فكره وشغف قلبه، أنها العاصفة التي لا يستطيع ثني تجاهها أو مواجهتها دون أن يخاطر بمشاعره في دروبها لتعينه على صبره وصمته.

أضحى ذلك العالم الخفي من السكون الدائر حوله يخيفه، في الوقت الذي به تبهجه المناورات التي يقوم بها وإن كانت تعيق سعيه الملاحظات التي يدونها، لقد دخل النفق فلا يستطيع أن يعود أدراجه، أنه القدر الذي فاق طاقته قوة وبصيرة وأضاق سعيه فقرا وغواية....

سعاد لم تبدِ امتعاضا واعتراضا عما بدر منه، ابتسمت له برقة الفجر وحنو الثلج، بعد أن دغدغ قلبها بأنامل رغبته

وأسرج فكرها بنعومة هواجسه، قابلت ذلك العصف بلين الود، شدت على يده وثاقها وقالت له:...

- يا حبيبي يبدو حظك قد عك في طريقه، على الرغم من أني أفضلك على أبن عمي؛ ولكن لن أستطيع أن أعترض على سعيه أبدا، وأنت تعرف لماذا. لا أريد أن أقتلك بيدي.... ولا أريد أن أهدم جدار القرابة بعواطفي... عليك أن تعلم جيدا، أنه لن يسكت أبدا إذا ما علم بعجلة محبتك تدور حولي وتدوس على قلبه، ثم أنه زنَّ كثيرا في إذن والديَّ بخصوص إطار هذا الموضوع من قبل، ولانت له نوايا الوالدين حين أخبرهما برغبة الزواج مني.

هذه هيَّ الشائكة التي لا أستطيع أن أبرح حدودها، وإذا ما حلت لن أكون لغيرك، يجب أن تعلم بأني مرهونة لأبن عمي حسني منذ الصغر، وهذا الرهان وصاحب الرهن هم جاثم على قلبي مثل سخام القِدر الأسود، لن ينجلي إلا بموت أحدنا، وعسى ربك أن يحل المعضلة.

- كيف ستحل المعضلة وهي من صلب الحديد، هو سيد في القرية، لن استطع مواجهته وأنت تعلمين جيدا موقفنا من القرية، ثم لا يمكن أن يتنازل عن حقه وهو الذي يقل درجات عنك في تعليمه وفكره وموهبته ودرايته. لم يكمل الابتدائية، أنه يرى في زواجه منك عوامل مكملة لما تنقص ذاته وشخصيته من أمور ضرورية أضحت مع تطور الحياة مهمة وضرورية، أنه يريد بكِ يكمل

عجـزه ونقصـانه، يـود أن يتفـاخر بـكِ أمـام المـلأ، يـود أن يملـئ فراغاتـه الواضـحة للعيـان بكماليتـكِ، يريـدك مرجعـا وشـريعة لأفكـاره وقراراتـه، لا أظـن للثـور عاطفـة تجعلـه تيس يوما ما أمام غزالته.

- ألـم أقـل لـك أن حظـك قـد عـك فـي مسـراه، فمـا عليـك إلا أن تنتظـر، أنتظـر وأنـا سـأنتظر معـك، وعسـى أن تغيـر عليـه مهـرة عـابرة، عسـى أن تغيـر مجـراه فتـاة أخـرى، أن تكشط فكرة زواجه مني ويهيم بها وتهيم به؟

وكأنهـا بـذلك قـد ركنتـه جانبـا رغـم رغبتهـا بـه، فلـن يكـون لـه دور يشـرع بـه إلا بعـد أن تنتهـي أدوار حسـني الضـبابية المغيـرة عليهـا والمحيطـة بهـا، تلـك الغـارات التـي يثيرهـا فـي ميـدان فكـر إبـراهم تـنم عـن الجـزع الكـامن فـي قلبـه.... شـعر بقـرارة نفسـه بأنـه لابـد مـن مواجهـة تلـك الأدوار وتسـريح أهـدافها، تلـك الحالـة التـي شـعر بهـا إبـراهيم جعلتـه يضـع نفسـه علـى خـط المحـك، أن يكون سريع البديهية وينطق بالعجب.

- لـي فكرة لن يستطيع أحدا تنفيذها سواكِ.
- هـات يـا قـيس الملـوح.. مـا هـيَّ أفصـح؟ لا تقـول دعينـا نهرب! لن أطاوعك ولن أذل والديَّ.
- لالا أنـا لـن أرضـى لـك ولوالـديك المذلـة، مـا يجـول فـي ذهنـي فكـرة شـيطانية، لـن تخطـر علـى بـال أحـدا إطلاقـا..... مـا أريـده هـو أن يبعـد عـن طريقنـا وسـاحتنا

فقط، أود أن أنفرد بك خارج حدود السرب، ولن يحصل ذلك إلا إذا أغرم بفتاة غيرك مثلما تقولين.

أجابته بشي من السخرية والتصغير وعدم الرضا، وكأنها عبرت على ما لا ترغب سماعه منه من أن يصل بتفكيره الساذج لدرجة البله.

- وما الجديد الذي أضفته لما أقررتُ به يا عبقري يا قيس، لا تجعلنِ أحسبك في ذاتي حسني آخر.. "أي ثور آخر".
- إبراهيم: الجديد أن تختاري أنت له فتاة من أهل القرية على أن تكون من عمرك أو من عمره، وكثيرات لهنَّ رغبة الزواج منه، خذي مثلا ثريا، أو نوال أبنة الحاج نعمان أو نسرين أبنة قاسم. أو...الخ... ألسْنِّ اولئك صديقاتك؟ عليك أن تتفقي مع أحداهن وتوزيها عليه، حتى ينخرط في عجلة هواها وتنحرف بوصلة فكره عن وجهتك.
- ومن تكن تلك الفتاة النابغة التي تستطيع أن تدير مخ ثور لا يرى أنثى في القطيع كله غيري أنا؟ فهنَّ لا يتعدينَّ عدد الأصابع، ثم ثريا أو نوال لهن أبناء عمومة ولن يختلف وضعهن عن وضعي بشعرة....

لقد حاولت مرارا خلال مرحلة الدراسة وبعد الدراسة، حيث كان يتبعني كاللص، يراقبني عن كثب، حتى أني

كنـت اتجببـه، أخافـه إذا مـا لاقيتـه فـي دروبـي، تهجـس بالعنف ينفر كشرر من حدقات عينيه....
قلـت لـك دع الأمـور تسـتفحل فـي أماكنهـا، أتركهـا علـى غـابر الـزمن حتـى تهـدأ الأمـور وتشـف الأفكـار، الأيـام أولى بحلها....

3- زواج سعاد 2008

لعدم وجود مدارس ثانوية في القرية تخص تعليم البنات، منعها أبوها من تكملة مشوار دراستها في المدينة، لم تكن تلك رغبته، أنما قرار كان قد أتخذه مسبقا لصعوبة ترك بنت الريف تبتعد كثيرا عن حدود قريتها، حفاظا على سمعتها من لسعات الدبابير.

اعتبرت سعاد ذلك اليوم هو أسوء يوم في حياتها، يوم أسود في سجل تاريخها. كانت قد تفهمت قرار والدها مسبقا، لذا لم تحنق أو تعترض عليه، أو تضمر كراهية ما في ثنايا فكرها تجاهه، ذلك ما أفصحت به سعاد لإبراهيم، حيث قرار القطيعة أجهش على طموحاتها تماما، ذبح تأملاتها التي لم تـوَرَدْ بعد- في ظنها لو أستمرت لحققت بعض رغباتها في مجال الفن وطورته، ربما نقلت ذاتها لمراتب عليا ذات صدى في القرية أو في عموم الدولة بما يخص الهواية.

كانت أحلام سادرة، ودت بها تخطي حدود قريتها، أن تَرفع من نظرة المجتمع الريفي للمرأة التي قُيدتْ حريتها بالموروث والتقليد البالي، أن تبدل من شكل لُبَدْ الجِلد المكفولة بالعقد، تلك المعيقة لحركتها وخارجة عن حدود مساحتها الضيقة. شعرت ذاتها تقف على حدٍ فاصلٍ بين الانتماء للقرية وبين رجاء الرغبة وتطوير الموهبة.

الحقيقة يجب أن تقال، القرية بأبعادها المترامية تعتبر سجنا مفتوحا دون سجان، دون مشابك حديدية وأسيجة. تعتبر معتقل رسمي، تعسفي دون معنى حقيقي للاعتقال والتعسف. يُمارسْ فيها كل أنواع الظلم من خضوع وخنوع وأذلال وتعسف وقسوة، دون أن تفرض أوامر أو قيود مباشرة تتحكم بساكنيها، أنها جزء من عادات وتقاليد موروثة، ولا ننسى بأن فيها ما لا يناقض ذلك من التزام أخلاقي وحشمة وشرف وكرم وتعاون وانتماء وإيباء.

لكن تلك القيود مغروسة في ذهن ودم كل قروي، عملية الخنوع للقوانين التي تدار بشكل روتيني، يخضع لها الجميع بإرادته. أنها سقف انتماء وتميز؛ القاضي فيها شرائع وتقاليد سنتها أنانية الرجل والعصبية الدينية منذ أمد بعيد، كتبت بدم القبلية وأطرت بالانتماء للقرية. وهي أشبه بمعتقل واسع، حراسها وسجانيها شيوخ القرية والعمادة من قيدوم القوم لغاية أصغر خادم فيهم.

لم يكن إبراهم أفضل حالٍ في ظرفه من واقع سعاد، هو كذلك أنقطع عن الدراسة مع انتهاء مرحلة الثانوية بعد وفاة والده مباشرة، لم ينقطع لقيد ما فرض عليه كسعاد، فقيود الدراسة لا تشمل الذكور، لكنه أنقطع نظير حاجة وقلة رزق وضعف حال، ليتفرغ في مراعاة أخوته الصغار وأمهم وتدبير رغيف يومهم. ليعمل في حقل والد سعاد خلفا لوالده.

كان وفاة والده بمثابة صدمة قوية له، لم يكن يشكي ألما أو هما ما، ربما ما كان يشكي كي لا يُحَمّلْ تلك الأغصان الطرية ثقل هموم الغد القادم، والذي كان يرى عثاكيل مصيره تتدلى دون أن يستطع تغيير واقع حاله بعرقلة عجلة الزمن حتى يعدها وتعتمد على ذاتها تلك البراعم. ليتسنى له أن يرى سنابل البراعم شاخصة أمام عينيه تبتسم للحياة كما يتمنى، يسندونه في الحياة ويسندون أمهم التي آثرت على أن لا تترك زوجها طريد النعرات والثارات...

من جهة أخرى كان إبراهيم قد حرص على سمعة ومصير سعاد خاصة في معقل القرية، ففي العرف السائدة لا يسمح للبنت العبث بعواطفها مع غريب وأبن عمها لازال على قيد الحياة يتنفس الهواء، فتلك بحد ذاتها تعتبر جريمة أخلاقية تعاقب عليها بالقتل.

الغلطة قد تؤدي بحياة البنت، قد تجر خلفها أغلاط أخرى تقحم العشيرة بها دون أن يكون لها حل آني وشيك. الغلطة قد تتوسع لأغلاط تشمل كل أسطر الورقة، فتسقط الأحرف والنقط من معاني الكلمات والجمل، حيث تسقط القبيلة في خطأ الفرد، وتسقط أرواح في عبث اللسان.. ربما العبث يتحول لواقع مخيف، لمستنقع يغرق به الجميع.

بخطأ الفرد، بشبق العاطفة التي ترهق صاحبها، قد تعم الفوضى في بيت الأسرة الكبيرة؛ على الرغم من أن العلاقة لم تتجاوز حدود الخواطر، لم تتخطَى حدود مسكة اليد وتنعيم

القلوب بالكلم والطيب وخطف قُبلة عرضية، تلك التي بقيت تشيع في خواطر الأثنين دخانا فيه عطر الشوق، كنور شمعة التي تجهد في إزاحة الظلمة. إلا أنها في عرف القبيلة تعتبر تجاوزا مذموما للحد القائم، حالة بغيضة ممنوعة من الصرف، يحاسب عليها الأثنان معا.

وعلى ضوء تلك النتائج قد تتحول القرية برمتها لفوضى، لمجازر تدوم طويلا كحرب البسوس؛ التي دامت أربعين عاما، من أجل كرامة امرأة كانت قد سِيَحتْ دماء دون سبب معقول. عندما شَعَرَ جساس بن مرة قد أهينت كرامة خالته البسوس من قبل كليب بن ربيعه، بعد أن قتل الأخير (سراب) وهيَّ ناقة البسوس بعد أن جنحت لحدود مرعاه؛ تعقب جساس كليب؛ فقتله.. وعلى أثر تلك الواقعة اشتعلت فتيل الحرب بين القبيلتين فأكلت حصيف الأخضر واليابس مدة أربعين سنة.

في القرية تبدأ الحياة معقوفة على نفسها، بحيث فيها خيط الحظ معقود بخيوط التقاليد، فلا يساير خط التطور العام في الداخل القرية خط التطور خارج حدودها إلا بالنزر اليسير.. الحياة محفوفة بالمحاذير، وكأنها تقف على شفا جرف هار لا ينجو منه إلا من ولد وفي فمه ملعقة ذهب، إلا من له جذوه وجذور خشنة، إلا من يجد الحظ لعبة بين يديه أو رداء يلبسه.

هكذا هو حال أبن القرية لا يركن إلى قرار، ظرفه مقيد، تائهة بين مزاجية العرف والتقاليد والقبلية، محدد الاتجاه، قد يجابه عُقد عويصة أذا ما أغرم بفتاة لها أقارب أو أبن عم

عـازب!.... فمـن يُعنـى بـأبٍ وجـاهٍ وأبنـاء عمومـةٍ يسـندونهُ، يكـون سـيدا بـين قومـه بـلا منـازع، وإذا مـا صـان نفسـه بـدين وعلـم وحِكمة ترفع من شأنه وقدره بين أقرانه يكون سيد قومه.

تلـك القـيم قـد تصـنع منـه إنسـانا يـدير شـؤون نفسـه بالحـد الأدنـى مـن المثاليـة، تكـون سـببا فـي تشـبثه وتمسـكه بقريتـه، بحيـث لـن يجـد لذاتـه كرامـة وحيـاة خـارج حـدود قريتـه، إلا تحـت ظـرف أقـوى منـه. والحـال معكـوس لمـن فقـد أثـاف ارتكـازه ولـم يسـتطع الوقـوف علـى قدميـه قصـاد رغباتـه الجامحـة، والجانحـة.. هـذا الحال ينطبق على إبراهيم تماما.

أبـراهيم السـادر فـي أحلامـه يكـاد يكـون مقطـوع مـن شـجرة، لا يعـرف لـه عـم ولا خـال ولا عشـيرة تسـند ظهـر. أبـوه قطـن هـذه القريـة منـذ أن كـان شـابا بعـد أن وقـع فـي شـك مـن قضـية ثـأر أصـابت أهلـه وعشـيرته دون أن يكـون لـه شـأن فـي ذلـك. مشـكلة الثـأر قضـت علـى الكثيـر مـن أبنـاء عمومتـه فـي صـراع قبلـي دام طويلا، لذا ترك قريته وقطن في قرية المراغة ليتجنب العبث.

لقـد نجـى مـن فـخ الثـأر، اسـتعان بـالهرب برفقـة زوجتـه، خسـر الوجاهـة والأهـل والجـذور، نجـى مـن معمعـة لا حـلِ لعُقـدِها، أرتمـى بـين أحضـان قريـة المراغـة فـي سـوهاج مصـر كـدخيل فيهـا منـذ أكثـر مـن ثلاثـين سـنة، فلـم يشـرح لأولاده حقيقـة قصـته، سـوى أنـه ذكـر لهـم بـأن أصـله مـن شُـعب أسـوان الجنوبيـة فـي جنوب مصر، ويكاد يكون هو أيضا قد تناسى جذوره.

وحين قطن في هذه القرية لم يستطع أن يحوي سوى على أرض **مساحتها أربعة دونمات ما يعادل فدان واحد،** تبرع بها له مالكها عواد والد سعاد ليزرعها بمحاصيل موسمية، ليعش على منتوجها مقابل خدمة سقي وجني أرضه التي تتجاوز مساحتها عشرون فدان... بقيَّ في عمله هذا حتى أدركه الموت وبقيت تلك الأرض ليرثها أبراهيم وامه وأخوته الأصغر سنا منه كامل وبهية.

حين كان إبراهيم يشق سواقي الترع وجوات الحقل ليزرعها، كانت سعاد لازالت صبية، تذهب لمدرستها في سنتها الأخيرة، أي أن الفارق الزمني بين عمريهما ثلاثة أو أربعة سنوات لا أكثر...

وفي أحد أيام صيف سنة 2008 وخلال عمله وهو منهمك في سقي الزرع، طرقت أذنيه زغرودة خرجت من باطن القرية، من جهة ما، هزت أساريره. شعر بها كنداء خفي تقصده، أشبه ما تكون إيحاء أوحت به ريح داعبت سنابل حظه، هزت كيانه. كأنها تحمل في ثناياها دعوة لوليمة مجهولة أو بلاغ ما خصه. تلك الزغاريد طنت في أذنيه كطنين نحلة هامت بصوان أذنيه، ما فتأت دارت في خلده حتى لسعته. كانت قد لسعت ذاكرته بسم الهوى، نقلته لوهدة الخيال والترقب والمحاذير، تجاوز قدر وداده، شك بما وجس. هجس بالزغرودة كسهم بقرت سكونه، عبثت بذهنه، أصابته بنوبة من الحمق والجنون. طفق يهذي بصمتٍ وهو مصفر

الوجـه، لا يـرى فـي أفـق ظنـه وصـبره سـوى ضـباب يتفتـت مـن حولـه، غشـاوة ركبـت عينـاه، نقلتـه لوهـدة ظلمـة آنيـة غطـت علـى فكـره.. مـا أن اسـتفاق مـن صـدمته؛ حتـى شـعر بتراخـي فـي عضـلات أطرافـه، ارتعـاش ركـب سـاقيه علـى غفلـة مـن أمـره. ركـن رفشـه ومجرفتـه جانبـا، جلـس علـى دكـة مطروحـة فـي البقعـة اليابسـة قـرب الترعـة، صـار ينظـر بعيـدا باتجـاه القريـة بفكـر مشـتت تائـه كيمامـة تـأن بصـمت فـي وحـدتها، لـم يسـمع نحيبـه سـوى أنـاه القـابع فـي أعماقـه بشـيء مـن الشـك والريبـة وهو ينظر باتجاه القرية...

سأل ذاته المنهكة بمرارة الفشل....

لِـمَ يـا ذات يركبـك الخـوف مـن نـداء جميـل، خفـي، حملـه الأثيـر لأذنـيَّ؟ لِـمَ ترتعـدِي يـا نفـس مـن صـدى فـرح عـابر اقتـرب بعبقـه من حواجز القلب؟

لا يـدرك لِـمَ أهـتم كثيـرا بزغـرودة عـابرة، أنهـا مجـرد فـرح فـي جـوف البطـين، فـي عمـق القريـة..... لكـن بقـي ذلـك الصـوت ينـوس فـي ذهنـه كطنـين ذبابـة لا تنفـك عـن إزعاجـه، هجـس بتلـك الزغاريد يكمن فزعه، هجس بها كطعنة خنجر أصابت مقتله.

تصـبب وجهـه بـالعرق، أمسـى الخـوف ينفـذ لثنايـا صـدره، كصرصـرة ريـح عاتيـة تنـذره بالوجـل، كصـرخة تمـزق السـكون هـزت كيانـه، أردت مسـتقبله، شـرخت تأملاتـه، لـدغت

أحاسيسه، خطفته من سُلافة الحب والمودة لمهادن الشجن. حينها وجد ذاته تتدحرج كحجر على سفح عالم مجهول.

لم تدم حيرته طويلا، لم تدم أنفاسه مجهدة، شريدة، هائمة بين قنوط الشك وجنح اليقين، تلك الحيرة لفضت أنفاسها وهو يبزل حوض الترعة ويشق السواقي والجوات، حين جاءت جهينة تحمل له الخبر اليقين.. حيث حلت الحمامة الزاجلة سريعا بالنبأ، بعد أن اخطرته حمامة السلام بالخبر، بعد ان سمع من ثغر أختها الصغيرة حفصة التي أرسلت خصصا له لتخبره بتفاصيل خطبة سعاد لأبن عمها حسني. كانت مرسلة من قبل سعاد لتخبره بانكسار جرة العهد، فلم تستطع الحفاظ عليها.

عندها عزف عن استمرارية العمل دون شمس ساطعة تغربل إرهاصاته وتجدد طاقته، فمضى بوجه متجهم لداره وهو مكسور الجناح والخاطر، يتصبب العرق من جبينه، مضت آهاته زفرات سعير تكوي صدره.

بخطبتها كانت سعاد قد أغلقت رتاج الأمل نهائيا أمام عزمه، ما عادت لجدرانها نوافذ تسمح بعبور نسائمه إليها، ما عادت لشمعتها بصيص نور تضيء نافذة صبره.. لقد تجلد إبراهيم في موقعه تحت نار الصمت والسكوت والسكون، بينما تجلدت سعاد في موقعها تحت سقم سقر أبن عمها إلى الأبد...

لم تعد هناك شعلة تُقدح في ليله الأدهم، شعلة تحثه على التأني والصمود في مواجهة قسوة ظرفه. أنتهى الأمل وتناثر في ترع القرية رماده، كتم همومه على أنفاسه، انطوى على جريد حظه العاثر، ولم يبقى له سوى أن يرى ما خلف القرية من جنون ينتظره.

خلال مراحل حياته السابقة كان قد أصيب بنَزْلات برد عديدة من تجارب سابقة، ما فتئ أن أصيب برشح دائم، لضعف ما ركب قدره، أو طوية ما عبثت بمفردات فكره. هذه النَّزْلات الشائكة لم تأتيه بغتة، أو من واقع برد صريح ألم به، أنما حلت به لضعف نخر جسده جراء هوس فؤاده الذي أرهقه، جراء عُقد عديدة خلفها له والده في قريته عن اصله ومكانته.

الركود الذي أصاب فكره، لا يشفع معه ركوة ماء يتجرعها، ذلك لما أصابته من جفوة مرة يبست شفاه، حلت في بدنه وقلبه وذهنه حتى شف قدره. ركود أجرد، جراء عمق لا ينتمي له، جراء عُقد ولدت في حضنه بالفطرة، وأخرى أكتسبها من واقع عسر أحيط به والعائلة، فأكتسب منها قيوده وقنوطه ووحدته.

يوم بعد يوم أضحت تتراكم حلقات العقد والقيود في معصميه وفي رقبته دون أن ينتبه لها حتى طالت وصارت واضحة للجميع. دون أن تكون له دخل بتنميتها وتكاثرها، مثلما تناثرت هياكل جسده في الأزقة والطرق، كأشباح هيكل من ذكريات اصبحت مبعثرة هنا وهناك تذكره بمواقع الفشل

العديدة التي تجاوزت قناطر زمنه خلال فترة ما.... أضحى يرى ذاته مكررة هنا وهناك وفي أماكن شتى من القرية نع فلانة وفلانة ...الخ، وفي طريق المدرسة الذي أرتادها، في غيط الحقل، برفقة الترع، وفي بطون القرية ودروبها، وفي سوق الخضار وعيون الناس الشامتة التي تترصد أخباره كذئاب تتبع أثره.

هجس بتلك المواقع تجلده وتقلل من قيمة تواجده بالقرية وخاصة بعد انكسار شمس سعاد خلف خط الزوال الأخير والتي ما عاد دفئها يشحن فؤاده. حينها أحس بالنكوص الذي ركب ساقيه، فقرر أن ينجو بذاته قبل أن يغرق في تلك الترع.

4- ظهور وفاء

في واقعه المرير كان إبراهيم قد بان في قريته كشجرة توت يبست جذورها، هزلتها ريح الزعزعان الخريفية، نثرت أوراقها في أرجاء البقاع.. هكذا تناثر خبره بين فتيات القرية رغم سرية نواياه، شعر بذاته قد تركت في كل بقعة من رواقها نكبة أو ذكرى كانت كفيلة بأن تجرده ألقه، فلم يعد يمتلك وجها سمحا في منحنيات حياته داخل قرية المراغة ولا يستند على صبر يستعين به على جلده.

فيما مضى كان قد جرب حظه مرارا قبل سعاد، ود أن يستلطف بعض فتيات القرية، لكنه دائما ما كان يصطدم في جدار القبلية، دائما ما كان يتعثر بمطبات العرف والتقاليد... والحقيقة لم يفلح سعيه لأسباب شتى، بعضها تخص العرف وأخرى تخص جاذبيته وشكله الأملح بسماته ملامحه الغائرة في تقاسيم شكله الجنوبي المتصف بأنف فنطاس أفطح، وعينين غائرتين في كوة محجريه وبلفائف شعر رأسه الأجعد، وطوله الفارع مع نحول عام في الجسد.

تلك الصفات تكاد تكون نادرة الوجود في قرية المراغة وغريبة لم تألف محيطها، إضافة لفقره وبور أصله إذا ما قورن بغيره، فإذا ما أحبته فتاة ستحبه لعاطفته الجياشة ولطيبة قلبه ولذكائه وصلابته كما عرفته بذلك سعاد....

صفات أخرى مخفية تحت همزات القلب والمشاعر، لن يراها إلا من يخترق حاجز فكره وقلبه... فشخصيته واقعة تحت ضغط برج السرطان الهوائي، لرهافة قلبة وخفة دمه وبريق عينيه اللتان ترُقْان لكل صبية، فكل فتاة ممكن أن تخزق عاطفته بنظرة عابرة..

هذه الصفات واضحة لُبناتِها لفتيات القرية، أو مأخوذة عليه من وجهة نظرهن. هو أيضا يراها حالة تختلج في دمه دون أن يستطيع السيطرة على عواطفه، كلٌ منهنَّ تنظر له نظرتها الخاصة وتقارنه بشباب القرية.

المقارنة تعد حسب النظرية النسبية العاطفية بانه هوائي صرف، تنحرف بوصلة عواطفه مع عصفة الريح دون أن يثبت قلبه أو يستكين بعطفة مشاعره باتجاه ثابت. ربما ظرفه وواقعه المزري حصراه في هذا النزق.

أسباب أخرى خاصة وعامة وشخصية تدخل في تفاصيل حياته لها تأثير في صياغتها كانتمائه القبلي وطراوته وتعامله ووو ...الخ، جوانب تعج في عالمه وأسواها غلِا؛ تلك التي تخص عرف القبلية. الكل ينظر له من باب العطف والشفقة، الكل له فكرة واضحة عن أصل جذره دون معرفة أبعاد أصله، وتلك الحالة مقدسة عند أهل الريف.... ففي الريف تذهب العقيدة إلى التفاخر بالجذور والأنساب وكثرة الرهط والأقارب. القروي دائما ما يفتخر بأعمامه وأخواله أمام الآخرين ليرفع من قدره وشأنه ويحفظ بهم كرامته، ليجنب

نفسه مخاطر الاعتلالات والاعتداءات الخارجية والداخلية، إذا ما شط أو أنجرف لها يوم ما، أو أذا ما تعرض لغدر لأسباب مبهمة تقبع في نفوس أعدائه.

بخطبة سعاد من أبن عمها؛ توقفت الدماء في مجرى عروقه داخل القرية، بذلك شرع في ترك صومعة العبادة التي تعود عليها والتي مرغت أنفه بأوابة الفشل عبر تلك الأشهر من المحاولة والعناء دون جدوى.. أضحت حالته لوحة منخورة بمثاقب الحزن والشجن. حينها نزع ثوب ارتباطه بالقرية، غير اتجاه فكره، بدل مبادئه، توجه عكس رغبته، أبحر بصمت في محيطات المجازفة بعد أن ترك مجرى القرية باحثا عن جمانة جديدة في أعماق ذاته.

لقد تجردت العاطفة منه مثلما تجرد من العاطفة وتأثيرات محيطه تماما. أمسى كشجرة البراري يابس، جلد، لا مجرى يعطف عليها ولا طريق يمر به. لازمته حيرة صماء عكرت صفوة ذهنه، دون أن يتمكن من انتشال نفسه.

خبر خطبة سعاد أصابه برعشة الفشل من جديد، فوجد حالته تترنح على رصيف اليأس يصطلي بين نارين، نار داخلية شذت عن عاطفة جياشة أصلت أحشائه، وأخرى خارجية جزت مصيره المبهم فتركت أشلائه تتفحم كذكريات في مرافق القرية. لقد وجد نفسه الظامئة تائهة في وصف حالته، لا يجد لها مخرجا للهرب من واقع العذاب، متمنيا الموت على البقاء حيا.

القدر سلبه فكره، كتم على أنفاسه، لم يعد يجد نفعا من التمسك في بور عاطفته، الغراب الذي اشمئز منه؛ أكل ما ذر من بذور الود. الظرف الذي عانده فيما سبق؛ عاد وكبله في زنزانة فردية، دون أن يتجرأ الدفاع عن ذاته أو ان يرفع الأذى عن جسده ومحبوبته. الخوف باء يغشيه مع الهواء الذي يتنفس، بل تعشق كالعقدة بأنفاسه، لن يستطيع كش ذبابة الوحشة عن فكره، ولا أن يكش طيف حسني عن جفنه.

ما أنفك صار يرى سجل ذاته في ملف القرية سجلا أسودا معبأ بفضلات المواقف، كتاب طويت صفحاته، جز جذره، عق صبره، راق سره على بساط الرمل. لم يعد يمسك بيده مفاتيح السعد، لم يعد يتحسس محيطه ولا أن يمد الثقة بكيانه بعد أن عصفت به سعاد دون موعد.

في سجل القرية أضحى ذكرى عابرة، بعد أن شف نور مشكاة سعاد في عتمة ليله. غمامة أبن العم غطت على وهج النور دون أن يحرك ساكنا، أضحى في واقع صمته كرماد سيجارة بعد أن خبت نيرانها، غدت سعاد ذكرى مؤلمة بعد أن ابتلعتها ريح صفراء بسموم دخانها.

شعر بذاته قد أزفت رحيلها وواقعها قبل أوانها، لا قدرة لديه على أعانتها أمام الواقعة التي هزته، رغم الصرخة التي ملأت فاهه. إلا أنه كان قد كظم غيضه وكتم أنفاسه مغصوبا، كـ بالونة خشى عليها من لسعة الشمس. فلم ينبس بشفة.

الحكمة غلبت عاطفته، لم يعد يمتلك قرارا صائبا أمام ضعفه، غير أن يتمسك بقرار الهرب من الواقع.

في الحقيقة ظل يعاني من عبثية الصمت فترة طويلة؛ حتى سقطت حدقة عينيه على صورة وفاء في أحدى المجلات! تلك القطة الرقطاء التي مدت له حبل النجاة وهو في حيرة من أمره، تلك الحورية التي انتشلته من مأزق فشله لتجدد دمائه في جسده. كان قد وجد في صورتها ما لم يجده في بنات القرية، وجد رؤيا مختلفة عما آلف عليه من قبل، هجس بطاقة إيجابية تشده إليها، تمسك بها، تشبث بخيط فتنتها كغريق استهام بها وهو يعاني وجده، تبع أثرها رغم عسر ظرفه وقيد سعاد.

ما أن شاهد صورتها في صفحات المجلة حتى دون أسمها وعنوانها في الأنستكرام؛ تراخت قوائم صبره بعد أن وجدها تهيم بالتعارف، تهللت أحلامه، أحرقتْ شريط أحزانه، حولته لإنسان آخر جديد، مبتهج، حيوي، حركي، حالم. حولت وجهته عن مسراه القديم المليء بفقاقيع الفشل لمسرى فيه شيء من الرجاء والتأمل.

تلك الصورة جعلته يرتقي صبره، يرتع في خانة السكون، يتأمل مستقبلا مشرقا مع توسع في مجالات أحلامه. أتبع لغز تلك الفتنة، رغم القنوط التي سببته له سعاد والتي سلبته أحلامه وأمنياته، إلا أنه أقتنع بأن فشله في القرية ليس نهاية المطاف وليس سبب يخص شخصيته قدر وضع اكتسبه من

والـده، فعليـه أن يجـدد مسـعاه فـي خـارج حـدود القريـة بعيـدا عـن الأعراف والتقاليد.

وسـط تلـك الحيـرة التـي ركبتـه وأزفـت تمحـق عقـده، بزغـت فـي ذهنـه فكـرة التغييـر، فكـرة الهجـرة وعبـور قنـاطر القريـة الضـيقة للضفة الأخرى الآمنة الأكثر اتساعا وتشعبا.

نفـض غبـرة الأتـراح المتراكمـة علـى جسـده الأجـدب، واصـل سـعيه بعـد أن دب فـي جسـده نشـاط زهـري، غريـزي، غريـب، نشـاط تـراءى لـه كهـدف مرئـي وغيـر مرئـي، ملمـوس وغيـر غيـر ملمـوس، أشـبه بالزبـد الغـائر فـي كريمـة القشـطة. أقحـم فكـره بعاطفـة جياشـة نحـو تلـك الصـور المثيـرة للجـدل. تحـرر مـن قيـد حزنـه فجـأة بعـد أن جذبتـه لجانبهـا مـن بـين الصـور الأخـرى المراقـة، كأنهـا عبثـت بظنـه وفكـره بعصـا أنوثتهـا، كأنهـا شاكسـته برسـالة مـورس عبـر الشـعلة الوضـاءة المضـاءة فـي ملامـح وجههـا، فأسـرت عاطفتـه المغروسـة فـي ثنايـاه، لسعت عواطفـه، فـاهتز لكهربتهـا، تكبـل بطاقتهـا الإيجابيـة، طاقـة حب إلكترونية فياضة منبعثة من ثنايا تلك الصورة.

تهامسـت خـواطره، تسـمرت عينـاه فـي ملامـح فتنـة وفـاء، هـذا هـو أسـمها مثلمـا مـدون تحـت الصـورة، وهـو ينظـر لهـا نظـرة إعجاب، نظـرة ذئـب جـائع لجسـد حمـل، يشـم النسـائم الغريبـة عـن بعـد، وجـد فـي شـواطئها وضـفافها مرتـع فـرص تسـنح لـه أن يستقر بها ويستمتع بالهدوء الفكري وراحة بال.

حينها وبشي من السذاجة والبساطة صف ذهنه أمام فاكهتها، لانت له فكرة تذليل المصاعب بمخادنتها بعد الفشل الذي لاحقه في القرية، والتي عقدت ظرفه ثم خذلته وعاقبته على مدى فترات عمره المنصرمة دون مبرر من وجهة نظره، ليكسر طوق سجنه ويتشبث بصورة وفاء... لقد وجد فيها وفي عالم النت الواسع مجالا أوسعا لتذليل الصعاب امامه والظفر بغايته.

تلك الصورة المؤطرة بالسحر نزعت عن جذوره رمم الخمول واليأس والوضاعة المتراكمة جراء إخفاقاته السابقة والمتكررة التي علقت بجيده، جزلت عنه تلك التقاليد التي التفت على عنقه كحبل المشنقة. جزلت البؤس والضعف عن ملامح وجهه، تمكنت من تغيير دفة مشاعره، غرزت في ذهنه إيجابية المحاولة....

لذا بسعييه كان قد تحول عن أصل اتجاهه وتكوينه بـ 180 درجة، بحيث انعكست بوصله توجهاته الحياتية عن أصل موضعها، فتغير ميزان فكره وتقديره وتثمينه للأشياء تماما، صار لا يرنو إلا لشواطئ وحسن تلك الفاتنة التي أسرته، على الرغم من أن سخام سعاد لا زال عالق في ثيابه، لم ينجلِ عن جدران قلبه. لذلك كان يجب أن يتناساها ويعزم على تغيير نمط حياته بثقة وإصرار مفرط.

منذ تلك الوهلة صار يتأملها بفرط أهوائه وبالتفاصيل المملة، أضحى لا يستكين إلا إلى وتد هواها، كأنَّ موجة عصفِها

اللاهبة عصفت بأشرعته لشواطئها، صفعت عينيه، أصابتهما برمد الحب والعذاب دون أن يدرك خطوات قدميه.

منذ تلك اللحظة صار لا يطيق النظر إلا لامتدادات ظلال وفاء الوارفة. لا يحتمل جلجلة الصمت إلا بخفقان طيفها ونشيد سحرها، صار لا يستكين لراحة بال إلا بالاسترخاء تحت مؤثرات عزفها ورتم تأثيرها.

لم يصبر على غل ظمأ الحب وهو في بيداء حظه، طفق يلهث خلف سراب الظن وبريق عالم الصور. دخل في متاهات الشك واليقين بحثا عن وجه الحقيقة الدامغة. لقد تماها فكره في أعماق صورها الملفتة للنظر بشكل ملهف.. أنه الظمأ الذي ما عاد يحتمل لظى صبه في ظل جوه القائظ، تسللت قوافل فتنتها لصحراء صبره دون إذن منه. بزغت في عالمه المجون كاللحظة المارقة تشد عزمه.

أنه الحب....

أنه الهوى والوله.. فمن الحب ما قتل!

بقي في سهوه يقلب صورها ويتأمل وجهها ويحلم بلقائها يوما ما، هكذا غرق في أحلامه كطفل يتسلى بسحرها ـ يتأمل في أبعاد ملامح الوجه صورة القمر، يشرع برسم تأملاته على الورق، كأنه وجد في جوف الأحلام كنزا يود الحفاظ عليه من عبث الزمن، لذا صار يتبع ظنه ويخطط إلى الوصول لذلك الكنز بسرية تامة.

كـان فـي قواعـد الصـمت المباحـة قـد أخـرسَّ تمامـا، أنحـرف فكـره عـن أصـل مشـواره، عـن عالمـه المحـيط بـه، مـا عـاد لوجوده فـي القريـة مـن حـظ وحضـور يتمسك بـه أو معنـى يلزمـه البقـاء فيهـا سـوى عائلتـه وشـؤونها. لـذا خفـق يبحـث عـن استغناءه بعـد أن وجـد أخوتـه كبـروا مـع كبـر همـه، أضـحى ممكـن الاعتمـاد علـيهم فـي إدارة شـؤون البيـت بعـد أن أفتقـد هـو سـماته ومميزاتـه فـي القريـة. لـذا قـرر البحـث عـن إغاثـة تجيـره، تحميـه، تعيـد لـه كرامتـه بعيـدا عـن مـأزق أزمتـه.. **لقـد وجـد فـي صـور وفـاء حبـل نجـاة ينتشـله مـن المـأزق، فتمسـك بـه ليتجـاوز حالـة العسر في مجتمعه البالي**.

حـين يمـوت الحـب لا تحييـه الشـموع... هكـذا بـات يسـعى خلـف حلمـه، صـار يطـرق ذاكرتـه بفتنـة وفـاء، أضـحى أسـير ظنـه، لا قلـب لـه يعينـه علـى مكايـدة الجلـد وتحمـل فـراق سـعاد سـوى إيجـاد سـعاد جديـدة تـدخل حياتـه خـارج حـدود القريـة، سـوى عمـل يعينـه علـى درء الأمـر برمتـه، لـــ ينـل حلمـه بعيـدا عـن زحمـة العقـد والفوضـى.

لـذا بعـد أن تجـرد مـن وثاقـه، فكـر أن يفلـت مـن عـالم العبوديـة الـذي قصـم ظهـره لعـالم أوسـع نطاقـا وحريـة، ليغـدو طيـرا مهـاجرا فـي العـالم المجهـول خـارج حـدود القريـة، عسـى أن يجـد لـه فـي بقـاع الأرض مـأوى يستكين بـه مبتعدا عـن جنـون سـعاد. ملجـأ يكـون مخضـب بالأمـان وراحـة البـال، مفـروش بخضـرة المشاعر وبسعادة نرجسية جديدة....

عندما ظفر بصورة وفاء، وجد فيها عاملا مساعدا له على تحريك عجلة فكره. لينتشل ذاته من أزمتها، أرتأى إلى تغيير نمط حياته وسلوكه. كأنَّ الصورة زرعت في ذاته حالة إيجابية تعينه على تجاوز عقدة سعاد، لذا قدحت في ذهنه فكرة الانسلاخ وتبديل الجلد، قدحت شرارة تأمل جديدة خارج نطاق القرية. ألم يقل الله سبحانه تعالى في كتابه ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)﴾

إذا لابد من تغيير منهج الحياة لتجديد الأحلام وعسى أن تفتح أمامه الأبواب الرزق والعاطفة المؤصدة، وعسى أن يلتقي بفتاة أحلامه لترفع عنه وشاح العزوبية وشقاء النفس، ليرتع باقي عمره في أجواء أنثى مشبعة بالأنوثة.

5- مؤازرة الأم

لم تغفل عنه أمه أبدا، راقبته عن كثب، التمست هوسه وتيمه بسعاد، شعرت به مجدول الفكر في عالم سعاد حتى النخاع. لم تكن تمتلك مفاتيح سعده لتعينه على جلده، أنما تعلمت من حقب الزمن تجنب المنغصات قدر الامكان، الاختفاء بعيدا عن الأنظار، تجنب المعارف والسكن في صندوق مغلق هو السبيل لإراحة البال. الصعوبات والعقد أن لم تقدر على تليينها، فعليك تغيير مسار طرق الحياة، تغيير إطار وشكل المكان والعمل، تغيير الثياب التي ترتديها والأماكن التي تراودها...

تعلمت كيف تمسك العصا من المنتصف في المواقف المحرجة، كي لا تخسر ذاتها وقيافتها، تعلمت أن تجعل مفاتيح السعد بيدها بدل أن تعلقها في سقف الأحداث. أدركت بأنه إذا ما قبضت على الدلائل القسرية في يديها وتمكنت من تشطيب مُدخلات العسر من دروبها؛ ستنجد ذاتها من الغبن والعفن والإذلال، حتما ستجد طُرق سهلة تنجيها من فك الظرف؛ عندها ستكون في مأمن من غدر الزمن.

وهي تتبع متلازمات أبنها العاطفية كانت تقرأ صفحات الفشل في مصفوفة وجهه، لم تنبس بشفة، لم تقحم ذاتها في معترك تجاربه، ودته أن يخرج بنتيجة مرضية وهو يخوض التجربة بنفسه، أن يتجلد بسره، أن يدخل مدخل صدق في مخابر

الحيـــاة، أن يـــتحمص بنـــار العـــذاب والحرمـــان والكرامـــة، أن تكويـه تجاربـه المرة، كـي تكـون لـه دوافـع تغييـر جديـة نحـو نمـط حياة أوسع وأشمل، نحو سلوك أرقى وأفضل.

كانـت تـدرك بـأن مصـيره سيصـطدم بجـدار القبليـة الصـلب مسبقا، كمـا أنهـا تـدرك بـأن لا شـيء يقـف أمـام عصـف الحـب إذا مـا ضـربت أمواجـه شـواطئ القلـب.... كمـا أدركـت حينهـا لـو حذرتـه مـن مطـب سـعاد فلـن يصـدقها، ولا يأخـذ بتحـذيرها.. لـذا فضـلت الصـمت والسـكوت والـتمعن بمشـاكله عـن بعـد، كـي يكتشف البلسم لمرضه ويعرف مواضع ضعفه وقواه.

أحسـت بـه حـين تقيد فـؤاده بسـحر سـعاد، بسـياج لا يمكـن اجتيـازه حـده، شـائك، عقـيم، متجـذر بالعقـد، لـن يصـل لمبتغـاه طالمـا بقـي ينظـر لسـعاد مـن خلـف السـور ولـن تسـتطيع أن تفتـح لـه بابـا، ولـن يسـتطيع أن يقـتحم بابهـا. لأن مفتـاح الأبـواب لـيس فـي يـده أو يدها!!.

حزنـت عليـه حـين أنكسـر عـوده، هجسـت بـه طفـل تعلـق بلعبـة مـا ثـم خسـرها، صـار يبكـي بحرقـة حـين تحطمـت صـورتها أمـام عينيـه. لقـد تحطمـت لعبـة إبـراهيم فلعـق مـرارة الحرمـان، اصـطدم بـالواقع المـر، ركـن ذاتـه إلـى فكـر مشـلول، حينهـا امتـدت لـه يـد أمـه لتنتشـله مـن واقعـه المحطـم، هجسـت بـه لـم يعـد يحتمـل ضـيق الحيـاة، وهـي كـذلك باتـت تشـتد عليـه المصـاعب طرديـا مع جريان العمر بعد وفاة زوجها.

كما شعرت بأنها وأبوه قد وضعاه في عنق الزجاجة حين كبلاه بعقدهما الثأرية، فلا يمكنه أن يخرج منها إلا بخسارة معينة... لذا حين دارت عليه المصاعب، بينت له مخارج العقد، هيأت له سبل جدية تعينه على الخروج من واقعه المظلم المريض، من مستنقع السلبية في القرية لعالم قد يكون أهون وأوسع مجالا وأرحم ظرفا وقدرا من الذي يعيش فيه... أخذت بذلك تجربة والده كمثال حين تخطى عجز القبلية بالهجر، حين سعى إلى منحهم فرصة حياة جديدة بعد أن أشتد عليه الخناق.. لذا ودت أن تفتح له أبواب تنتشله وتنتشل أخوته من بعده، وعسى أن يمحو بها أثار السنين المرة التي صدأة في ذهنه وفؤاده، عسى أن يفلت من قبضة انتمائه الأعمى للقرية.

أرخت له حبل الإفلات واستسمحته على تحمل الفراق طالما أخوه الأصغر يستطيع أن يقوم بعمله ويدبر رزق البيت.

قالت له:.....

- يا إبراهيم: أنت كبرت وأني أرى مصيرك ضائع في هذه القرية، أذهب للمدينة وجرب حظك هناك، عسى ربك أن يأخذ بيديك. حاول أن تعمل بأي عمل ترتزق منه ولا تنسانا، لا تنسى لك أخوة وأم يتمنون لك الخير والموفقية. سنكون بانتظار عودتك يا بني، أجعل قلبك دليلك، أنه لا يخطئ في اختياره وقراره أبدا. لا تضع نفسك في مواقف محرجة مع النساء، أنهن يبحثن عن

الفرصة لتسلق الرتب، فعالم النساء مليء بالعقد والاسرار، تحتاج لشخص حاذق، متمكن، خبيث، متمرس. وعسى أن تجد من هي على شاكلتك فتأخذ بيدك.

- أماه صعب علي فراقكم، ولكن أجد نفسي مخنوق في القرية، مزنوق، مُكتّف. لقد ضاقت الحياة عليَّ هنا، القرية تنبذنا كوننا غرباء، مقطوعون من شجرة، لا أحد يقيم لنا قدرا واحتراما طالما ليس لنا عمق وسند يشد عضدنا، نخن نعيش كأغنام في مرعى الذئاب. هذه المظاهر غير موجودة في المدينة، لا أحد ينظر لبلادة الأعراف والقبلية. يا أماه؛ أن وجدت فرصة للمعيشة هناك سأنقذكم من فك الذئاب، سأنقلكم لها.
- لو سعيت بعقلك ستجد فرص كثيرة أمامك، أما لو سعيت بقلبك فلن تحظى بأية فرصة.

أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يمسك بقدر الانفلات نحو عالم يتراءى له مسرح سعادة وألفة جديدة، قدر قد يرفع من شأنه ثقافيا وماديا ونفسيا أمام حشد العقد التي أوثقت عزمه وحطت من قدره بشبكة العقد المفروضة عليه. عُقدة الفقر رافقته منذ الصغر، بينما الضعف والوجاهة والعزوبية والانتماء خلقتها القرية، إضافة للعنة القبلية وتقاليدها وأعرافها التي تكبل بها دون طائل...

ما عاد يخجل من ذاته في تغيير لون جلده بعد أن تأود الأمر عليه، عاد يرسم لنفسه طرق جديدة بعيدة عن وجهة معارفه ورفقاء عمره الذين بسط لهم كفه دون أن يبسطوا له كفوفهم. فالعجلة لابد لها من أن تسير، المراكب لا تسع إلا لمن يغامر بمصيره ويجازف في حياته، وعسى أن يبزغ القمر في شتاء ليله من جديد، وعسى أن يعيش بكفاف وراحة بال. فاز باللذات من كان جسورا...

كل شيء جائز رغم كل شيء، لقد كانت أمنياته بسيطة جدا لا تتعدى حدود حظوته بحبيبته سعاد، أن يعيش في ظل القرية قرب أخوته.... لكنَّ الظرف لفظه بعيدا، لم يرغب بإسناده، الايام أشعرته بأنه نكرة فركنته جانبا، وهو كذلك ركن نفسه على رصيف الذاكرة، صار يسطر جزء من هيافة قلبه على الورق ليسلي نفسه حيث قال فيما يخص سعاد وفراقها:....

سعاد

يا ظبية الفلاة

يا سجدة الهوى

يا قُبلة

رق لها الخد بما غوى

يا جمرة

توقد قلوب العاشقين

وتزلف الود

بسقم النوى

في عينيك قرأت طالعي

وحين دنت الاقدر

بقرت الهوى

أني في هواك أشهق ككأس الخمر

إذا ما مسه فاه

شط الخيال منه..

فاستوى

ليس لي فيك سوى وجد يعرج

ما أن تبعت غييه

خار الدرب

فانزوى

دعيني أجزل حبات العِقدِ

علني اختصر شجون الصمت

ببلسم دوى

كم وكم ناخت العين ناظرها

وسهم الغدر راق دم الصبر

فأولغ الجنون بالنوى

6- العلاقة الخارجية

دون إرادة منه أخذ قلما وسجل ملاحظاته عن وفاء في قصاصة ورقية أحتفظ بها في جيبه، ثم عاد ودونها في مفكرة الهاتف الذي اشتراه حديثا.. كان قد سجل رقم هاتفها وعنوانها واحتفظ بصفحتها الشخصية على هاتفه الخلوي، لهوسه وشغفه بصورها التي باتت لا تفارق ذاكرته ولاحظة عينيه، بعد أن خسر الجمل بما حمل في قريته بضياع سعاد.

ود أن يشرب من زير الغربة بعد أن يبست عروقه وعانى ما عانى في قريته، ود أن يساير ظرفه المغل وهو مشبع بكمد الحزن، مكبل بالوحدة.. لذا روض ذاته في محاولة منه تغيير منهج حياته بتغيير سكنه وعمله. ذلك ما خفف من وطئ حزنه. فبات يبعثر بعواطفه على صفحات مذكراته، يكتب شجنه وخواطره الشعرية بما يخص سعاد ووفاء ويحتفظ بها، وأن كانت ارهاصاته تخالط مشاعر قلمه حزنا نتيجة فراقه سعاد.

لكن لابد من تغيير، هكذا هيَّ سنة الحياة، لن تنال الرضا حتى يكون لك شأن في عين من تحب!!!!. في الوقت الذي به يتأمل أن ينتقل للقاهرة لتغيير منهج الحياة وصيغة حياته؛ بات يشغل نفسه في أوقات فراغه في رسم تقاسيم وجه وفاء متأملا أن يلتقيها في خياله. كان قد تعود في سره وتولعه بالرسم على رسم وجوه الفتيات اللاتي يشغلنَّ فكره، أو ممن مررنَّ بعطفته، محاولا أن يصل لصيغة توافقية بين سر عواطفه

وشذر تأملاته وقدراته الفنية. حيث الرسام يبدأ هوايته برسم الوجوه والمناظر الطبيعية، لذا كان قد رسم وجه سعاد في قلم الجرافيك فيما سبق وأهداها لها، كما رسم زينب وهي تجني الثمار و ليلى وهي عائدة من المدرسة وووإلخ.

تلك المذكرة أضحت مسرح شجونه وشهواته، وسّاحة همومه في أوقات فراغه، وفي ساعات الوحدة والسهاد. فلولا تلك الهواية لربما أنحدر بظنه لوهدة العقد التي تكبل بها، والتي حولت حالته لحالة الانعزال التام والغيبوبة عن المجتمع.. لكن بتلك الممارسات البدائية تمكن من تعليق ذاته المريضة على شماعة الحياة، بحيث تمكن من إنهاء أحزانه وتأجيل تأملاته المستقبلية على اللوحات الرسم التي رسمها إلى أجل قادم.

ذلك ما دفعه بأن يحاول أن يرسم وجه فاتنته بشكل من الأشكال قدر من الإمكان والإبداع، بعد أن ألهمته حبيبته السابقة سعاد محبة فن الرسم حين كانت تآزره وتشجعه عليه... فمن خلال سعيه وإرهاصاته في رسم قدره، صار يتأمل بفراسته حبيبته الجديدة، وهيَّ تنقله عبر حدود الخيال الممتدة لبر الأمان، عسى أن يجد حلا لعقده بين مخاض الحياة، أن يبجل كرسي الفردوس بقدره، أن تفتح أمامه أفاق جديدة تجدد عزمه وتلين ظرفه وترتب رفوف مستقبله..

وقد تكون تلك الرسومات التي صار يصورها ويلمعها ويبعثها لها عن طريق برامج التواصل صرة أمان له، صرة إلهام ودليل شغف وتخاطره في الحياة يحسسها بوجوده، لذا

تمسكه بوفاء قد تنجيه من زنقته وتكون مصدرا لإعانته وتغيير ظرفه.

منذ أن اختلجت شواطئ قلبه بزبد فتنتها هدأت اضطرابات قلبه، استكانت إلى وهدة الصمت، ذابت في أجاج ملح بحرها اللاسع، المثار تحت سطوع نور وجهها المشرق... لقد أنسته عواقب قريته وبالذات فاجعة قرة عينه سعاد. برقتها تمكنت من انتشاله من درك الفوضى العائمة في داخله وفضاء حياته. وجد فيها سلما نحو إنقاذ ما تبقى من شخصيته المكومة بين تراكمات الفشل وقسر العادات والتقاليد التي قيدته في قريته التي يعيش. وجد فيها أملا جديدا يختلف عن الطموحات الذابلة في قريته.

عكف على لملمة أحلامه المبعثرة، صار يتأملها بشكلٍ يومي وبأشكال ود حميميةٍ. كل يوم تطرأ في فكره فكرة تقربه لحدودها، تتبعثر في حجره الافكار وهو جالس على صخرة صماء شاخصة فوق رأس ترعة تمر بحقله، مختضب الوجه، متأملا دفء الشمس تميل لجهته، تجدد نغمة الامل في الايام الغاربة. هجس بنفسه هائمة في خيال واسعٍ، ترق به رغبة منسوجة من وحي عاطفة جياشة، خيال ملئه حبور وأعجاب وأمل تقف خلف تلك الصورة الشفافة، اللماحة.

وهو في ظل القرية؛ كان همه أن يقترن بفتاة من أهلها، من صلبه وعاداته، ما أن لفظته قريته صار يبحث في أدراج الغد عن قدره بواقع مقبول ومختلف عما كان عليه، تكرار فشله

فـي القريـة دعـاه لينتبـه لتلـك الصـور الملفتـة للنظـر، وعسـاها أن تلهمـه حيـاة جديـدة لمـا فيهـا مـن تـأثير إيجـابي علـى تغييـر واقعـه المـزري، بحيـث تمكنـت برقتهـا مـن جمـع شـتات فكـره حـول محـور جمالهـا بـدارة واحـدة؛ حتـى راودتـه فكـرة الفـوز بهـا وأن كلفته ثمن المشقة والسفر والعناء.

هكـذا صـارت وفـاء بـؤرة الألـق والأرق فـي مركـز أحلامـه، بـؤرة تحديـد المصـير والسـعي فـي مجالـه القـادم. وكأنـه وجـد لعطفتهـا السـحرية تـأثير مباشـرٍ كتـأثير المحلـول الكيميـائي علـى صـبغة الألـوان المتاحـة بورقـة الكشـاف، تلـك التـي مـن خلالهـا يسـتطيع أن يكشـف قاعديـة أو حامضـية عواطفـه تجاههـا، ليعرف مدى عمق حظوظه في الوصول لشواطئها.

تلـك الفتـاة بـإطلالتها المفاجئـة ظفـرت بشـغاف قلبـه، غـرزت إشـعاع سـلطانها فـي ثنايـا صـدره وعمـق صـبره وتفكيـره. غطـت علـى تخـوم صـمته بوغـف مـن زبـد الحيـرة وبهـاء الأعجـاب، بعـد أن لمـح صـورتها وعنوانهـا صـدفة فـي برنـامج الأنسـتغرام Instagram علـى هاتفـه النقـال، لتكـون لتلـك الصـورة نقلـة نوعيـة فـي مجـرى حياتـه. لتكـون السـبب الحقيقـي فـي انتشـاله مـن أزمـة نفسـية كانـت قـد أرهقتـه بعـد خطوبـة سـعاد. رق لصـورتها فـي المجلـة الالكترونيـة، فتعلـق بهـا. هجـس بذاتـه يعـزف علـى وتـر زاويـة قائمـة تجمـع بينهمـا، تحـرك مشـاعره فـي ذات الوقـت التي تهز كيانها، فأنحدر بغيه خلف النغمة بهيام.

لقد عملت برامج السوشيال ميديا الاجتماعية ترع ومجاري في مسلك حياته، سقت عزمه وتفانيه وتواصله في الحياة، حفرت أنفاق محبة جديدة في قلبه، قلبت كيانه رأس على عقب، بحيث نقلته من واقعه الأجرد الذميم لواقع متحرر تنتشي فيها الروح بأطرها. نقلته لعالم مرن، بهيج النفس. لقد بزغت وفاء كنتوء في صرة حياته، جعلته ينتبه لألوان السعادة المحيطة به، راقت له تأثيراتها كصيغة إيجابية، عضدته، فتتت عقده قبل أن يأذن لها دخول عالمه، هجس بها بمثابة قطعة سكر أزاحت مرارة قهوته، تلك التي تعود أن يرشفها مرة عبر مراحل حياته الغير مستقرة في قرية المراغة، سواء المرارة التي أغدقتها سواعده أم تلك التي فرضتها عليه قيود القرية وعقد ابيه...

تلك الفاتنة كانت قد تركت تحت صورتها بوستر بارز يمثل أسمها وعنوانها ورقم هاتفها المخصص لبرنامج رسائل whatsup الواتسآب فقط، كمبادرة حسن نية منها، وكي لا ترهق ذاتها بمكالمات وتعهدات لا تلتزم بها، كما أنها تعتبر خطوة إيجابية في مسألة التحاور والتواصل معها... ذلك ما تراءى له وسره على تأمل اللحظة القادمة، التي يمكن من خلالها أن يصل بمشواره الحثيث لشواطئ قلبها الدافئة.

من خلال دخوله شبكتها، أنحدر مع خيط خياله لشواطئ فتونها، بات يغرف من سحر جمالها غرفة تطفئ شرر فؤاده،

ليبني معها جدار عهد ويقين مع مرور الأيام، وقد عَزَمَ على أمره فسار خلف عزمه دون يقين.

"فإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ". صدق الله العظيم.....

لا أدري لِمَ أعجب وفتن إبراهيم بصورة وفاء؟

قد لا تعود تلك المسألة لفرط جمالها فحسب، أنما لعوامل أخر داخلية وخارجية متجذرة في ذاته وفي قواعد قريته، عوامل تخصه، إضافة لقوة خارقة وجدها مدفونة في تلك الصور قد لا ننتبه لها، دفعت به نحو محاولة تسلق جدارها الصلب والذي لا يمكن تسلقه إلا بمعية رضا النفس وهي تتبع خطى رضاها، تلك التي أثرت على مجرى قراره.

تلذذ بفكرة الحب عبر الاقمار الصناعية والمواقع الاجتماعية التي تتجاوز عُقد التقاليد والاعراف الطافية على سطح الواقع، تبقى محاولات السوشيل ميديا عابرة لا يتحسس فشلها إذا ما حصلت، ينساها باللحظة دون تأثير سلبي على حياته العامة، ليست كحالات التخاطر المباشرة التي يشترك بها بشكل حيوي مثل تلك التي تفاعل بها مع سعاد أو اللاتي فشل معهن من بعض بنات القرية اللاتي عيرّنه بين فتيات القرية. إضافة إلى عوامل أخرى تخص العرف والتقاليد السائدة في الريف التي كبلت مسعاه بالفشل. إضافة للتغيير الدائر من حوله من ظروف البلد المتقلبة، من غلاء وصخب وعبث سياسي وأزمات متلاحقة لم تنفك عنه تأثيراتها.

كـل تلـك العوامـل اجتمعـت عليـه وأثـرت فيـه ولكـن الـدافع الأكبـر لتغييـر مجـرى حياتـه وتـرك قريتـه؛ هـو الهـروب مـن سـوط الفشـل الـذي لاحقـه. حيـث تكـرار فشـله العـاطفي، رسـم لـه بعبـع فـي داخـل نفسـه، خيفـة فـي خـاطره، تبعـه كظلـه، جـرده مـن كـل محاولـة مسـتقبلية وجديـة داخـل القريـة - تلـك العصـا جعلتـه يهـرب مـن بـراثن اليـأس التـي خربشـت وجهـه لبـراثن فتنـة قابعـة فـي سـطور الغـاب خـارج قـوس القريـة.. كأنـه سـعى بـذلك للهـرب من واقع أسود لواقع آخر مظلم، مجهول، قاتم...

تلـك المعضـلة تركتـه يعـيش علـى هـامش اللحظـة فـي فـراغ واسـع يحـيط بـه مـن كـل جانـب، فـي مسـتنقع لـدن مـن حـزن وكآبـة غربلتـه، ممـا دفـع عواطفـه تتعلـق بأيـة قشـة تهفـو فـي طريقـه لتنقـذه مـن الغـرق، حتـى لـو سـارت بـه لجـوف المسـتحيل أو المطلق المتناهي..

أنـه القـدر أو القـرار أو سـميه مـا شـئت- انقـلاب، ثـورة، عاصـفة، هزيمـة ..الـخ كلهـا تنجمـع فـي معنـى واحـد؛ هـو الخـلاص مـن حبـل مشـنقة الفشـل فـي قريتـه. لـذا جنحـت بـه الاوضـاع لمـلاذه الجديـد لتكملـة مشـوار سـعيه. جعـل الهـروب مـن الواقـع هـو المحور والركيزة التي يستند عليها في مجال التحرر...

ثـم أن المجـالات فـي بـرامج السوشـيل ميـديا منفتحـة وواسـعة وكثيـرة لا تتخللهـا رقابـة أو عقـد اجتماعيـة، ولا تقاليـد وعـادات باليـة كتلـك السـائدة فـي قريتـه، والتـي تعتبـر حجـر عثـرة دائمـة أمام سعيه ومشاويره، لذلك تمسك بفكرة الهرب.

تلك الظروف القسرية والعاطفية زرعت في أعماقه حالة من الصراع، أوقعته تحت ضغط قوى هجينة لا يتحكم بمدلولاتها، أنما هي التي كانت تسيره وتتحكم بأقداره وقدراته كيفما تشاء.. قوى خفية، ساحرة، مهدت له سبل الهرب من خلال أفق مرنة كان قد فكر بها، أوصلته للقناعة من إمكانية النفوذ من تلك المعضلات المحيطة به والوصول لسدة الغاية المرادة، أنه تحول الذات وتبديل الجلد..

أضحى يشعر بأنه يتعامل مع واقعه بندية، بقدر ملموس، تحسس وجوده بها بشيء من الوجود والكبرياء، أضحى يهجس بإمكانه تجاوز ظلال أزماته الحالكة بيقين..

قد يكون تصرفه مجازفة جديدة في مسرى حياته؛ لكن لابد من حركة، لابد من مجازفة تغير أفق حياته، وإلا فلن تقم له قائمة في جحور القرية وهو يعيش فيها كالفأر يخاف القطط.

قد يعود أدراجه خائبا مكسور الجناح، دون أن يحصل ذلك التغيير الذي يتمناه؛ ولكن تبقى المحاولة والتجربة والمجازفة خير وصفة تشفي غليله، فالخنوع يؤدي إلى الاستسلام والاستسلام يؤدي إلى الهلاك، فلابد من مواجهة ذاته الأسيرة. الفكرة التي آمن بها وسعى لتطبيها قد تنقله من مجاز خامل لمجاز أكثر حيوية في المجتمع لمجاز فيه رفعة وتقدير، أكثر ضمانة له ولمستقبله العاطفي واستقراره النفسي والمادي، خاصة مسألة العلاقات عبر برامج النت أضحت شائعة وملموسة تعطي الثمار أكولها.

كان قد قرأ فيما سبق بأن بعض الزيجات قد تمت بين شبان على خلاف ديانتهم وقوميتهم عبر برامج النت.. شابا فلسطينيا دام في تواصله عبر الفيسبوك مع فتاة فلبينية كانت قد أعجبته على مدى أشهر، حتى قرر السفر للفلبين وعقد قرانه عليها. وآخر مصري تعرف على سورية ومن ثم تقدم لخطبتها. وزيجات حصلت بين رجال مسلمين ونساء من الطائفة المسيحية أو غيرها....الخ...عليه أن يجرب حظه. إذا أصبحت المسألة فيها سعة أكثر مرونة وأكثر إيجابية وسهولة عما كانت عليه من قبل، أضحى العالم قرية صغيرة ممكن الوصول إلى الأماكن النائية بسهولة دون عُقد أو تعقيد. خاصة وفاء ليست غريبة عنه، أنها بنت جلدته ودينه، وأن كانت تحمل هوية مصطنعة أولدها الاستعمار في تقسيم الوطن العربي الكبير لدول متعددة، إلا أنه بإمكانه أن يتواصل معها بلغتها ودينها ويصل إلى قلبها..

ليصل الأنسان لأهدافه؛ لابد له من مواصلة حركته، كيلا تموت في أعماقه الرغبة، ليرتقِ بذاته درجات السلم بيسر، ليغير من نمط سلوك حياته ومعيشته مع الظروف المتقلبة، عسى أن يلتمس سكينة ذهنه وعاطفة قلبه، أن يلتمس طراوة غايته، فالجمود والتقوقع يعني الهلاك في قاموس الحياة، يعني العدم، يعني الغوص في المطلق المجهول، عليه أن لا يعقص أمره.

المسألة أشبه بلعبة بوكر جديدة يحاول أن يلعبها مع خصم مجهول متمثل بالزمن، والظرف، والكسل، والبعد، والمادة، والخيال ومسائل أخرى متداخلة روحية وفكرية أمام عزمه وإرادته ليكون على قدر المسؤولية أمام قدرته على المحاورة ومجاراة العاطفة وتنعيم أفق حظوظه..

يا ترى؛ هل يتمكن من مواجهة خصومه الممثلة بقوى خفية غير مرئية وغير ملموسة؟ خصوم نفسية ومادية وروتينية وعقائدية وغربة وجهل ومجهولية، تلك العناصر المشتتة جمعت في شعبة الخصام، وقد لا تجتمع في المكان والزمان، لكنها متحدة في النية والعداء، لها تأثيرٌها الفعالٌ عليه في كل مكان وزمان....

ترى؛ هل ممكن أن يتجاوز أزمة والده التي تعلقت برقبته عبر عقود من الزمن، وبالذات في قريته **المراغة** التي ينتمي إليها في صعيد مصر؟ هل سيتجاوز أزمة سعاد وما تركته في أعماقه من شجون؟ هل سيتجاوز أزمته المادية وعمره الذي بات يتراخى في نهاية العقد الثالث من عمره.

أنها مسألة تحد واضحة وصريحة بينه وبين أناه والنجاح والفشل والزمن المراق وشلة خصومه من الأوهام وإخْتِلاق وإفْتِراء وإفْتِعَال وتَلْفِيق وذُهُول ورِيْبَة وسَهْو وشَكّ وغَفْلَة ونِسْيان متدحرجة غي وادي العقد..

الفصل الثاني

1- عزمه على التغيير

يا ترى؛ كم هي حجم وطبيعة تعلقه بتلك الفتاة التي رسمت له خارطة طريق جديدة لتغيير مجرى عواطفه نحو مصبها؟

ترى ما لجديد الذي سيطرأ في حياته؟

ذلك ما سنعرفه خلال الفصول القادمة....

كرجل مقيد بعُقدْ شتى، لا حلول آنية لديه سوى أن يتبع ظنه وظل السيدة وفاء، كي لا يخرج عن طوق القرية التي تلبس بها إلا وهو صاحب القرار. بشكل عام كان قد أعجب بمحاسن وفاء، لذا سورت له ذاته أحلاما تراءت له قريبة المنال، فمضى قدما خلف سعي جبار يقوده لعالمه الجديد كمركبة فضائية يكتشف نفسه وعالمه الثاني من خلالها، على الرغم من أن تلك الفاتنة ما هي سوى شبح قاطن في ديجور الذاكرة وعالم الانترنت، لم تكن سوى صور حيوية مشبعة بفوتونات الأنوثة، نثرت الفتنة في محيط خياله وأفكاره كرغبات جمة داعبت غريزته فهيجتها بالشوق والشبق.

صار يرنو إليها متى يشاء، متى تتدلى خيوطه الدنيوية والروحية إلى دلو جمالها، لتكمل بهجة حياته وأناقته، وما يرفأ إليه مسعاه، بات يتأمل تلك المحاسن بكمد بوطأة..

من جهة أخرى حين تحل المقارنة بين واقعه الأجرد الفقير وألق واقعها المجهول المتخم بالصور المبجلة بالرقي وبطيف

مـن البهجـة والأناقـة والبهرجـة الواضـحة فـي شـياكتها وجميـل لبسـها، تهجس بـه كأنـه قد شط فـي حد ذاتـه بتتبعـه لهـا، الأمـور معقـدة والمقارنـة قائمـة، كأنـه هفـا فـي ظنـه بحثـا عـن بلسـم لجراحاتـه. ولكـون المسـألة ليسـت مباشـرة فـلا خـوف مـن النتيجة، لذا تمادى في غيه وهو يسعى خلفها كالأعمى...

لحسنها الفاتن لم يعد يفكر في غيرها، كأنَّ قدمه غصتْ بغرين طـين لازب، فـي الوقـت الـذي تعتبـر محاولتـه الجريئـة كمـن يطـرق بـاب المستحيل بريشـة طيـر. كونـه يعـيش فـي قريـة نائيـة علـى ضـفاف نهـر النيـل، تنقصـه التجـارب ولـذة النجـاح والحبكـة، إضـافة إلـى أنـه محـاط بكـم مـن العقـد والأعـراف الدفينـة، والأدهـى مـن كـل ذلـك لـم يـدخل فـي مجاملـة مـع فتيـات المدينـة مـن قبـل. فهـو يعـيش فـي كوكـب وهـي تعـيش فـي كوكـب آخـر بعيد، مختلـف تمامـا عـن كوكبـه، هـو فـي الأرض وهـي فـي زحـل فـي قمـة التـرف والعـز والرقـي، فـي مدينـة أبـوظبي الإماراتيـة التي تتميز بالأناقة والرفاه..

لكـن للإنسـان قـوى مغمـورة فـي داخلـه تـتحكم بـه بشـكل لا ارادي، لهـا طاقـة تفـوق طاقتـه الملموسـة الخارجيـة، تلـك الطاقـة مدفونـة فـي أعماقـه كقـوة مغناطيسـية متعلقـة بالقلـب، قـد يـتمكن منهـا إذا مـا تجـاوز المسـتحيلات وكسـر حـواجز الـروتين، أنهـا قوى من صلب الارادة والعزم...

فـي قـرارة ذاتـه كـان قد قـدر المسـافة وأيقـن مـن تمكنـه مـن تخطـي خـط عجـزه وأغلفـة الأجـواء الضـبابية ليـدرك غـرة القمـر. كـان

يحلم بالطيران، وها هو يحاول أن يزرع لذراعيه ريش تجعل المستحيل طوع إرادته، فالكرة الأرضية الشاسعة والمترامية الأطراف لا تعدو سوى قرية صغيرة في عالم النت والطيران، تستطيع أن تفطر في بغداد وتتغدى في باريس وتتعشى في موسكو. لذا وجد ذاته في فسحة من هذا الأمر حيث ممكن أن يضع العلم في جيبه وتحت أنظاره متى شاء.

ليس هناك مستحيلا لدى الإنسان الناجح، فمهما طال الدرب فأنه يبدأ بخطوة.. عندما كنت في طور المراهقة واقرأ الكتب في مكتبة جلولاء كنت أتعجب من قدرة الكاتب تأليف كتاب أو رواية، أتعجب من إمكاناته على جمع تلك الكلمات في نسق في كتاب واحد، من طريقة ترتيب أفكاره في رسم شخصيات روايته...الخ، كان جان فلجان من أفضل الشخصيات التي ترسخت في خيالي بعبقرية صانعه فكتور هيجو، لذا بقي قاطن في مخيلتي. تلك الأحلام التي تأملتها هي من جعلتي أسعى خلف هوايتي، أحيانا تخر الفكرة من لقطة في فلم أو عبارة ترسخ في الذهن، فالرواية تولد من لا شيء، من العدم، كهذه الرواية التي بنيت فكرتها من فكرة صغيرة طرقت مسامعي، كما حدثت معي ذات الحالة في رواية جنوح النفس وفتاة الكاظمية وعواصف الجنين,,الخ....

نعود لصاحبنا إبراهيم: كانت له إرادة ولكن ليس له حظ في مؤازرة الإرادة في عضد مشواره، وأنا لا أُرجِع الفشل لمسألة الحظ أبدا، علمتني التجارب بأن الفشل له أسباب عديدة

تتداخل في قوام الشخصية لتصنع قدرية الفشل وأن الحظ لا وجود له مطلقا، وما نسميه حظ هو عوامل أولية مغروزة في شخصية الفرد وطاقته المادية والجسدية إذا ما استخدمت بشكل صحيح نال النجاح وإذا تردت بسلوكيات خاطئة نال الفشل. إبراهيم من هذا النوع الذي تنقصه الكثير من العوامل، كان قد تكبل بجملة أمور معسرة قادته للفشل مثلما ذكرنا بعض منها من عقد الاعراف السائدة في القرى وما تركه له والده من عقد.

لذا تمسك إبراهيم في مشروعه وإرادته تحت شعار من سار على الدرب وصل!!! لتحقيق مبتغاه، وقد بدأ فعلا بالخطوة الأولى عندما ناقش الأمر مع والدته، أنها الإرادة والعزيمة والقناعة تجتمع في ذاته...

إذا إصراره عليه تخطي الحواجز والمطبات، دعته يكون على مقربة لحظية من الهدف، حيث حين تبدأ بالخطوة الأولى في المشوار تكون المسافة قد قصرت خطوة، والزمن قد جزلت ثوانيه، والحلم أهتز ورعش تحت ناظره وقشع عنه ظله، والأمل أدُنَ ودنى من حواجز الصبر.... إذا ما على الشخص سوى أن يتحرك عن موضعه ليتجاوز عقده قبل فوات الأوان...

في واقع الحال الفكرة برمتها هي مجرد عصفة خيال تماهت في ذهنه، أنها أشبه بكذبة مرئية صدّقَ ولوجها وعذوبتها وتمنطّق بها وبلذتها وبرهافة أنوثتها فتحزم بها خلف غايته.

لقد لاحت له الأحداث كيقين في الأفق، فسعى خلفها بقرار مكين مرتفق، عزم على تطبيق الأمور لتغيير واقعه المزري تغييرا جذريا حذق، لذا حث ذاته على متابعة الفكرة وتدعيمها بالفعل والحركة وبالنزق..

رغم أنها صور وفاء هي مجرد صور مجردة من الروح، لكنه شعر بدفء مكنونها، وجد فيها ما لا نحس به، هجس فيها حياة حيّة وحقيقة لامست حشف قلبه، كدفء الشمس في فج صبح بارد، مع خرير الترع والنسيم يداعب سنابل الشوق. هجس بها تتلألأ في خياله كنجمة سهيل عند السهاد، ترفده بالأمل وأن كانت بعيدة المنال، هجس بها تتهادى في سواد ظنه وليله الأدهم، كتهادي القمر في موج البحر...

إذا هناك طاقة إيجابية تنبعث من تلك الصور حركت في داخله الطاقة الكامنة في مشاعره، هو فقط من تحسس تلك الطاقة ولمس أثرها، لذا بات يتبعها بيقين كي يدرك أصل لغزها وسر فتنتها..

من خلال تمعنه بالصور كان قد لمس رهافة روحها غائرة في ثنايا مباهجها، هجس بها تبتسم له، تحاوره بصمت كنجمة الجوزاء عند سكون الليل، تتأمله عن بعد، ترشده إلى كرسي الفردوس، تمحو من سبره أحزانه ليجتاز نفق حياته. هكذا وجد ذاته في حالة سرنمة دائمة تقوده مجسات وضاءة من الأمل عبر حواجز عقده، تخفق بخفية مفاتنها، شيء من

الجاذبيــة تصــدرها بهــا تضــيء دربــه، أضــحت تلــك الصــور كجواز السفر تنقله من بؤرة التيه لبؤرة اليقين...

والحقيقــة الصــورة لا تختلــف عــن الصــور المنشــورة لفتيــات الهــوى، أو بائعــات الهــوى. صــور تعبــر عــن فتــاة ضــالة، ضــائعة، غــائرة فــي متاهــة الفســاد مــن وجهــة نظــر الغيــر، تبــيح جسدها لمن يشاء، ذلك ما يتراءى للشخص العادي من النظرة الأولــى بمقيــاس تقاليــدنا وعاداتنــا وأخلاقنــا، وخاصــة الريفيــة منهــا. ولكــن تلــك المخــارج تــراءت لــه قناديــل فجــر، ومفــاتن روح تراقصــت عليهــا عوامــل ضــعفه، وفشــله. لــذا بذاتــه هجــس بهــا عمــود نــور تعيــد لذاتــه طاقتــه وتوازنــه، كالطاقــة المخزونــة فــي الأحجار الكريمة التي نستشعر بجاذبيتها من على بعد.

إذن الصــور كانــت قــد أشــعرته براحــة ذائبــة فــي ثــوان الــزمن المارقــة بــين يديــه، هجــس بهــا الســلم الــذي يمكــن تسلقه لينقلــه إلــى ســطح النجــاح، فبانــت تلــك الأحــلام كطفلــة تــركض أمــام ســعيه بثوبهــا المــزركش. طغــت تلــك الراحــة علــى جوانــب الســلبية مــن مجــرى تجاربــه الســابقة وبالــذات مــع ســعاد، تلــك التــي أنهكتــه وجزلــت قدراتــه علــى النجــاح، وعســى أن يتجــاوز أزمتــه ويرفــأ بعيشة تلبي طموحاته..

مهمــا كانــت تلــك المشــاعر فــلا يمكــن أغفــال الحقيقــة الســادرة، والتــي لا تكشــفها غلاظــة نظاراتنــا بــذات النســبة التــي نظــر بهــا إبــراهيم إلــى جبــروت ســحرها القــابع فــي ثنايــا تلــك الصــور، المتمثــل فــي جاذبيتهــا والأنوثــة المترجرجــة فــي تقاســيم الوجــه

والجسد، وفي شطب الطول وتسريحة الشعر، وفي لغز نظرة عينيها الشُهل. لمس في أعماق ذاك الحسن طاقة إيجابية خلابة تضيء أرصفة دربه. ما أن هجس بتلك الطاقة؛ حتى تراقصت في حضرتها مستشعرات قلبه ومشاعره..

ما أن ألتمسَ تلك الرهافة حتى تقبل صفاتها، أنها آية شغف لا يستشعر بها إلا من أسرته عاطفة جياشة وصار في عداد تِيمَ بسحر مفاتنها...

هو لم ينظر إلى السطح البائن، أنما تمعن في العمق، لم ينظر إلى الشكل فحسب، أنما للفحم المتقد في بشرتها والجاذبية المراقة على جميل مفاتنها، إلى اللهب الأزرق الكامن في بواطن ألقها.

استطاعت وفاء سالم - كما هو مدون أسمها تحت صورها وبقوة إطلالتها أن تستقطب عواطفه وتشحذها لمرافئها، بتلك الطاقة الكهرومغناطيسية الكامنة في مباهج مفاتنها الملتاعة.

قد لا يكون هناك سبب وجيه أو تفسير لتعلق شاب ما بفتاة ما، قد تكون الحالة مجرد نزوة أو إعجاب.. لكن أن يتعلق شاب من نظرة عابرة بصورة فتاة؛ فتلك هي المعضلة. حيث حالة الأعجاب ممكن وصفها بشكل هندسي فضائي كثيرة الانحناءات والزوايا، بحيث الأشعة لا تستقر على سطح ما، لذا تجد البهجة تنتشر في ثنايا الانعطافات وفي كل الاتجاهات وبذات الكيفية.

قد لا تعبر الصورة الرمزية بصدق عن كينونة الفتاة بذاتها، قد تكون صور مزيفة، فتلك الحالة بحد ذاتها هي عقدة تحتاج لصبر لفك عقدها وإدارة منغصاتها وتهويش طلاسمها، قد تكون مزيفة من قبل شاب خنثي منجر خلف سلوكيات الدناءة من أجل الكسب المادي أو الجنسي...

تلك هيَّ العقدة التي سنتبع خيوطها، تلك هي القمة التي سنتسلق سفحها وأحداثها، لنرى أين تكمن الغرابة؟ وأين سيجد إبراهيم ذاته؟..

أنها حالة تمثل تركيبة كيان ملغم بالعُقد، قد تكون نتيجة صدمات تكورت في فكره، أو برمجة خاطئة وضبت عواطفه وأحاسيسه، لتمنحه فرصة انتشال ذاته في عالم الميتافيزيقيا، عالم الغرائب ما وراء الطبيعة، خارج حدود المنطق، ذلك المتداول بين أفكار البشر...

لقد دج إبراهيم ذاته بتلك الملحمة التي لا تُعرف نهايتها إلا بنز غائر في جوف التوقعات، أمام إصرار شديد من قبله، ولين مخزون بصور وفاء. الزمن كفيل بحل تلك المعضلة بين ابراهيم ووفاء.

*****

وهـو فـي غيـه ومعمعتـه؛ خطـرت فـي بالـه مجموعـة احتمـالات أغـوت فكـره، جعلتـه يقبـع فـي وحدتـه يقـرأ ويراجـع مسـتجدات احتمالاته وسبل نجاحه.

الاحتمال الذي خطر بباله هو:....

قد تكون وفاء فخ أو لعبة دحرجها القدر في طريقه، وقد يكون هو بذاته عصا اللعبة دون أن يدرك قدره.

قد تكون قدره الذي ينتشله من وحل الهزل والهوان الذي أنهك كاهله، وقد يكون بذاته قدر نواياه ونواياها.

هـذه الاحتمـالات جعلتـه يفكـر فـي يومـه وغـده بشـكل مسـتمر، ومهـا تكـن وفـاء سـلبية أو إيجابيـة فأنهـا سـتغير شـكل حالـه مـن حـال لحـال، سـتبدل ثوبـه البـالي وطريقـة تفكيـره ومعيشـته، ذلـك هـو المهـم فـي المرحلـة القادمـة. أي لابـد مـن التغييـر، سـواء تغييـر إيجـابي يصـب فـي مصـلحته أو سـلبي لـن يكـون أكثـر سـلبية ممـا تعـرض لـه داخـل القريـة.. وعسـى أن تكـون مفتاحـا لأبوابـه المغلقـة نحـو انطلاقـة جديـدة تغيـر مـن شـكل الجمـود الـذي يركبه.

قـد تكـون دواءً سـحريا لإخفاقاتـه، قـد تنيـر سـراطه وتـزين أحلامـه، قـد يعبـر بهـا صـحاري العقـد والفقـر والفشـل الـذي يتبعـه والـذي طالـه مـن جـراء العـرف والتقاليـد ومـا صـاحبها. قـد يتجـاوز بهـا المخـاوف التـي أرهقـت فـؤاده وعقصـت مشـاعره.

وإذا ما أخفق معها سوف لن يخسر شيء، سيكون قد تجاوز عقد القرية، وتعرف على مجالات حياة أوسع خارج نطاقها.

ربما تكون وفاء هيَّ آخر أقداره في عالم المحاولة وإذا ما فشل ستكون أخر كبوة في حياته بعد رعنات الفشل المتكررة خلال فيض مشواره، التي أفرغت مخزونه من الطاقة الإيجابية في قريته.. كانت وفاء قد ظهرت في أفقه على حين غفلة كمذنب هالي، ركب موجها فترك خلفه أتعابه وملحقات فشله. زرعت في نفسه بذرة أمل ونشوى، تسامت بأضوائها مع أهوائه، تطابقت بأنوارها مع رغباته العالقة في فكره.. تمسك بتلك الدرة، لدرء منغصات الفشل، لمعالجة اعتلالاته الآنية على أقل تقدير، في ظل ظرف أعسر مُر، كان قد سلبه طاقته وقواه وسعاد.

قد يكون ذلك ما دعاه إلى التعلق بجاذبية وفاء التي أبرمت خيوطها على كفيه لأجل مسمى. معلوم بأن مذنب هالي يكمل دورته حول محور مداره في مدة 76 سنة، أي أنه يمر بالقرب من غلاف الأرض في العمر مرة واحدة، أي من فاتته رؤياه فلن يرهُ مرة أخرى. لذا فأنه في قرارة نفسه قد أدرك شعلة وفاء، وأن تغاضى عنها فلن يدرك قارب نجاة ينتشله من واقع قريته في المنظور القريب، أنها آخر القوارب من وجهة ظنه.

الواقع يثبت بأن تلك الجميلة جذبته بفتنتها الأخاذة لواقع بيدائها دون عناء، كانت قد شغلت باله بكل ما لها من إثراء وغنى

وثـراء عـاطفي. عكفـت علـى هاجسـه، أبرمـت مشـاعره، صـيرته لعبة بيد القدر.

بقـدها الميـاس وملامحهـا الناعمـة كانـت قـد دغـدغت قلبـه، برهافتهـا ورشـاقتها أسـرت هواجسـه، بفتنتهـا لسـعته، داعبتـه، بـالإغراء المنثـور فـوق ذاك السـهل المنبسـط مـن ثنايـا الجسـد، شـتت فكـره، لاحـت تباشـير الحلـم تُنثـر الرغبـة فـي فكـره، صـار لا يفطـن إلا علـى حسـنها، جعلتـه مشـدوها بهـا، علـق أمالـه علـى شـماعتها، تبـع اللمعـة المتعلقـة بأشـفار هـدبها، ولـن يتـردد فـي مواصلتها ولو بعد حين.

قـد يتعلـق الفـرد فـي أول شـبابه بلاعـب كـرة القـدم، أو بمذيعـة تلفزيونيـة، أو مطـرب مـا أو مطربـة مـن خـلال الصـور، وتلـك هـي صـرعة عاديـة تمـر بفكـر بعـض المـراهقين، ولا غرابـة بـأن يبنـى هيكـل أحلامـه علـى مـا يـراه مـن خـلال بـرامج التلفـزة أو بـرامج مواقـع تواصـل الويـب سـايت الإلكترونيـة التـي تقـرب العـالم، كـالفيس بـوك وتـوتر والأنسـتغرام، وبـرامج أخـرى كثيـرة تحمـل الصـفة الاجتماعيـة مـن ذلـك القبيـل.. لـذا قـد تكـون محاولـة إبـراهيم طبيعيـة فـي هـذا المجـال إذا مـا أخـذنا بعـين الاعتبـار كـم المحاولات الناجحة عبر هذا المجال.

أذكـر امـرأة ثلاثينيـة مـن ليبيـا كانـت تعلـق صـور الفنـان كـاظم السـاهر علـى جـدران بيتهـا، حينهـا قالـت: أنـي أعشـقه، وقـد أحلـم بـه وزوجـي راقـد بجـانبي، بـل أنـي أشـعر بنفسـي مغرمـة بـه أكثـر مـن غرامـي بزوجـي، حتـى أن زوجـي صـار يتضـايق مـن

هوسي به، بل أني أشد معه إذا ما مس صورة من صوره، أو رفعها عن مكانها....

كنت رأيت بعض السذج ممن غال في تعلقه بالمشاهير خلال فترة المراهقة من عمره الذين تغنوا بصورة ممثلة ما، أحتفظ بها في محفظة نقوده بدل صورة امه او زوجته، ولن أنسى أبو سميرة بياع اللبلبي (الحمص المطبوخ) الذي عبء عربته بصور المطربة سميرة توفيق وهو يتجول في شوارع وأزقة مدينة جلولاء حتى كني بأبو سميرة، بل حتى سمى أبنته سميرة، لهوسه وولعه الغير طبيعي بها، حتى أنه كان يبعث لها رسائل غرامية دون أن تجيب عليها.

والحقيقة الحب لا يحتاج لهوية تعريفية ليتجاوز الفرد بها حواجز القلب، هو كاللحظة العابرة في جوف الزمن، كالشهب يبزغ بظلمة السماء فجأة ليشع بهجة في روح المعني، الحب يظهر تحت أي ظرف وفي أي زمن، يبزغ من حيث يدرك المرء أو لا يدرك، وقد يرفع من قدر الشخص أو يذله، وحوادث التاريخ كثيرة في هذا المجال كعنتر وعبلة وقيس وليلى.

لذا قرر أن يدون أسمها ورقم هاتفها في مذكرة هاتفه، وفي ذاكرته الشخصية كما اسلفنا، ليتبع ظنه وقدره. كان يدرك أثر قراره على مستقبله، كأنه التمس أثر خطوته بقلبه قبل ذهنه، قبل ذاته التي خفت من وتيرها. لقد وجد في بحرها الطامي كينونة شخصيته، فصار يتبع ظلها وهوسها بجنون.

كان على استعداد لمواجهة المستحيل ليثبت لذاته قدراته العاطفية، ود أن يسمعها صوت الأنا المكبوت في داخله، تلك القامه التي ضمرت بسبب انكساراته العاطفية، عزم على استعادت ثقته بنفسه. لذا قرر مواصلة مشواره على أن يتصل بها خلال تواتر الأيام، ليستعيد ترتيب شتات فكره.

الحقيقة تقول أن بعض البشر تموه بهم العاطفة وتكور صفاة شخصياتهم بشيء من دبق الجنون، فيبقى يتغنى بها بمقام الصبا والحجاز. وصاحبنا إبراهيم آلت به عواصف الجنون عطشا لنبع وفاء، بات يبحث في أرجائها عن فيء شجرة تقئه شر حر العاطفة.

مثل هذه الحلات لا تفسر سوى بجنون العاطفة، كأنها سمطت فكره وقلبه بنار فتنتها، فصار قيس يبحث عن عاطفة جياشة من جوف ليلى يذيب بها لِعجة الهوى قبل أن تشف وتجف سواقيه..

هذه الطاقة المخزونة في صورها هي طاقة كامنة، مركونة في ملامح وجهها وسحر بشرتها وتركيب جسدها، تحتاج إلى ملاح ماهر ليظفر بها. تلك الطاقة تحتاج إلى أملاح مخزونة في طاقته لتدب فيها كهربة الحركة، لتنفذ إلى كل من يراها ويعجب بها...

والحقيقة هي ليست كامنة، بل فعالة جدا، تحتاج إلى دافع يحرك ذوائب قلبه المجروحة. طاقة فياضة، لا يشعر بها

سوى من أكتوى بشواظ الفتن. حقيقة الأنسان هو ليس حر في اختياراته وتصرفاته، تتحكم به عوالم واسعة من الطاقات الخفية سلبية وايجابية تحيط به تأثر بقرارته، تسيره حسب تركيبة النتائج البائنة أمامه وشعشعة مخه وثقافته وثباته. تلك العوامل تكور سلوكه، تعيد توجهاته، تحدد اختياراته، تحثه على أتخاذ قراراته.. لذلك هناك تميز واختلاف بين اختيارات البشر وحظوظهم في التوجه والإقرار.

تلك الطاقات جعلته يدور كالفراشة حول زهرته، أضحت رغباته أشبه بسلسلة حلقات عاطفية مركبة حول عنقه، كلما تجاوز حلقة دخل في أخرى أشد تأثيرا وولعا من الأخرى.

لذا جند كل طاقاته في سبيل تجاوز الخطوط الحمراء المعيقة لسعيه من مطبات وعلاقات عامة وخاصة محيطة به وقريبة الشأن، كتأثير الأسرة، والمكان والموطن، والمحبة والصداقة والعمل والجاذبية بين الإنسان والأشياء المحيطة به وسلسلة الذكريات والعشرة...الخ...

قد تكون لبعض العلاقات طاقة ذات تأثير مباشر وبصفات متداخلة، فالإنسان لا يستطيع أن ينفك من خيوط تلك العلاقات دون عامل مساعد له يكون أقوى من تلك العلاقات، كي يتمكن من القفز على حواجز التقاليد والعادات المترسخة بالمجتمع... فإذا ما أنفصم عنها يكون قد جرد نفسه من شراكة ما أُلِفَ عليها خلال مرحلة من مراحل عمره، واحتمال أمكانية عودته إليها في المستقبل، وذلك بإمكانية

شحن تلك الطاقة التي تخلى عنها لسبب أو دون سبب من جديد.

وكأنَّه بذاته يريد أن يجرد نفسه شبكة العقد التي ورثها عن والديه، والتي ثبرت فؤاده وبقرت مساعيه، ليزاول حياة جديدة ترفأ بشيء من الحرية خارج نطاق الحدود المحرمة.

تلك العوامل الخارجة عن إرادته، كانت قد أثبطت عزمه على ترك قريته، حَشرته في زوايا الرحيل دون إرادة منه، لذلك ود أن يقلع عنها بأسرع وقت ممكن.

وعلى ما يبدو قد افتقدت إشعاعها تلك الطاقات مع خطبة سعاد، خفت تأثيراتها على محيطه، ليجد ذاته تنسلخ عن جذورها بفعل طاقة جديدة أكثر قوة ونشاطا منها، ساندته أمه على خوض تجربة الانفلات من أسوار قريته لتفلت الكترونات ذكرياته من طوق القرية. ذاك ما عبرت عليه إعتمالات فكره على أثر تأثره بشفير طاقة وفاء.

في محاولته تلك عمل على وئد ماضيه، خرج من قيد حلقاته الضيقة لحلقات أوسع مجالا، لحكمة تعينه على أن يجد مسارا جديدا يبعث على الأمل والسعادة.

الوضع الجديد يحتاج لمحرك ديناميكي يحركه عن موضعه، يشحن فيه طاقات جديدة مؤثرة، تمكنه من البحث عن رفقة جديدة خارج طوق التقاليد القبلية، لقد تمكنت وفاء من شحذه بهذا الاتجاه، بات يخطط لتغير واقع معيشته بشكل تام

وإيجابي من الناحية النفسية والعملية، كي يتغلب على ظرفه الأعسر وجلد الفاقة. لذا كان عليه تغيير عمله من فلاح لتاجر أو صانع ما وعمل ما يدر عليه المادة.

مع الأيام غدى الحلم يتراقص بين عينيه كحقيقة، لابد من الوصول لشطآنها والنيل من منهلها، تلك المهرة التي تسرق الأنظار، ذلك اللبلاب والسرخس الذي يعانق امتدادات الصبح برونقه الأخضر الجذاب تحت سطوة شمس دافئة وعند الاصيل، خاصة أنه لم يرأف بدفء حقيقي من امرأة ما عبر سنين عمره المنصرمة، ولا شفَّ غليله بعبير أنثى.

2- اتصاله بوفاء

من فيض اليأس ذبلت وردة سعاد، أضحت خارج نطاق فكره. ومن رحم الرجاء ولدت زهرة وفاء في أعماقه بدوافع طاقة جديدة، لـ تجله لواقع أوسع مجالا وعاطفة. عندها قرر توسيع رقعة عاطفته، فأقحم قلبه ونظره بحسن فتنة وفاء، تعمق بفيض ملامحها، غص بثناياها، هجس بسنارة صيدها قد اصطادته من محيطه العبثي..

تبع عصفها، طرق أبواب برامج التعارف حتى تمكن من الوصول لشاطئها، تعرف عليها عبر برامج التشات والانستغرام والواتسآب، صار يتبع ظلها، يشم أخبارها، أحتفظ بصفحتها، حفظ أسمها، عزم على مواصلتها والوصول إليها..

يوما بعد يوم تعمقت العلاقة بينهما، تولدت عنده حالة صحوة فكريه وقناعة قلبيه، بعد أن لمس تجاوبا من قِبلها، تولدت لديه فكرة الظفر بها وانتشال ذاته من عقده السابقة. شعر بانجذاب تام لها رغم أنه لا يملك سوى صورا لا تشحذ نبضات القلب بعاطفة ملموسة، إلا أنها أضحت له عكازة يتكئ عليها لتجاوز واقعه المر، على الرغم من أنَّ الفكرة تبدو ضبابية، لكنها تعد بلسم لمعالجة اعتلالاته..

تمكنت وفاء من تحريك سنابل فكره، دفعته للتخطيط والعمل لأبعد نقطة مما يظن المرء. قرر أن يدرك شواطئها، أن

يلتمس دفئها، أن يسافر لأعماق سحرها، أن يسافر لها إذا ما سنحت الفرصة أمامه. بذلك صار يخطط لتثبيت ركائزه ويحدد مصيره العاطفي على ضوء الفكرة التي تجذرت في ذهنه، إضافة لتغيير واقعه المادي..

لم يكن بمقدوره التفوه بنيته أو عرض مخططاته لكائن ما، تلك الفكرة دفنها في قلبه كي لا يضيع سعيه أو يضع نفسه في موضع سخرية واستهزاء الآخرين به، لكنه أقتنع بفكرته، بل رجح فكرته على ما تناقضها من فكر. لذا وضع اسمها في قفص صدره وقفل عليها برقم سري، لن يبوح بها لأحد.

ما دفعه اتخاذ قراره بهذه السرعة عقم ظرفه، كان قد هجس بوفاء وحسب قراءته الأولية مختلفة عن بقية الفتيات، لندرة ملامحها الدافئة، ولكونها من طينته عربية المنشأ، حيث ممكن أن تتجانس معه فيما لو حصل توافق بينهما. كما أن في ملامحها تتجسد صفات زهرة القرنفل لما تشي به ملامحها الناعمة من درر، هفت على فؤاده كنسمة صبح، حركت ستائر قلبه الشفافة دون أن تستأذنه.

لقد وجد في مواصلتها حلا ميسرا لمشاكله الآنية.

في البداية عدها نزوة، ما فتئت تحولت لأمنية، ثم أضحت جزء من فقرات يومياته؛ حتى تدرجت في سياق ذهنه لتتسلق درجاته الأمنية إلى الرغبة، وهكذا تدحرجت ارهاصاته ككرة الحظ لتستقر في شباك وفاء كهدف يسعى خلفه، صارت

لأبـواب سـعادته مفـاتيح يمكنـه أن يفـتح بهـا أبـواب حظوظـه المغلقة..

عد تواجد وفاء في حياته كتواجد القمر في ليله، تضيء دربه، تعيد لذاته كرامته، هجس بها فرصة سانحة تنقله من واقعه المزري لواقع أكثر جدية وحيوية وسماحة ورأفة، من خلالها توسعت مداركه وارتقت أهدافه مراتب أوسع، صار يتطلع لتغيير نمط حياته ومعيشته وعمله، لذا قرر هجر قريته، وربما يهجر مصر برمتها فيما بعد.

من خلال وجود وفاء في حياته التمس حلولا جذرية لمجمل عقده، فتحت أمامه آفاق واسعه جديدة للعمل، وجد في بحر عينيها الواسعتين خضرة دائمة تمتد ظلاله لتخوم صبره، التمس في شفتيها سحر دفين يشتط من رواق بشرتها، سحر ماه كاللمعة المراقة في العقيق والكهرب.. هجس بلتعة البراءة طافحة في ملامح وجهها، كهالة القمر في العتمة. جذبته صفائح شعرها النحاسي المتوهج بالألق، أدرك براعة رسمة الفم المكتنز بالفتنة، مضى أعجابه بها لواحة الوجنتين المفعمتين بالأنوثة... حفظ معالمها كلوحة وجدانية جذابة، علقها على جدران قلبه، سبحان الخالق في نحت ملامحها ليعجب بها ولترهق فؤاده كزهرة ربيعية عائمة بالسحر.

فكر في ذاته، بأن تلك الملامح الجميلة واللطيفة ما كانت تظهر في مواقع التواصل الاجتماعية لولا ظرف جسور قسى على واقعها، فهفا بها وبقدرها لتلك الصفحات المشبوهة. أنها

أكيد أبنة أناس عريقة لها جذور قدسية... وأكيد صدمةٌ ما أصابتْ ذاتها باللعنة والرعنة والعناد، مثلما أُصِيبَ هو ذاته بصدمة خطوبة سعاد...

هذا ما خطر له ببالـه، ظن بها خيرا حسب أولويات أعجابه وأولويات تحليله بتواجدها في مواقع التواصل. ترسخت صورتها في خيلائه، تلألأت في باحة أفكاره، بزغت كلون جديد بارق يبهج قلبه، أزداد ولعا بها ووعيا وأدراكا وقدرا في متطلبات الحياة.

إمرأة كاملة الأوصاف كما تبدو، مبرومة القوام بالسحرِ والبهاء، تجتمع في ثناياها عناصر الرغبة والاشتياق والشبق الجامح. فرس جامحة، لماحة، تنتظر فارس همام يشكم لجامها، حتى لو كانت من ذوات التجارب الفاشلة كحاله، فالأنسان لابد أن يتعلم من دروس الحياة.

في تلك المرحلة من العمر أصبحت للمرأة متطلبات جمة عاطفية وجنسية، الشاب في هذا العمر لا يحتمل الثورة المشتعلة في داخله، فعلا لقد غدا كثور هائج يود أن يفرغ مخزونه العاطفي في حوض أنثى.

لم يسعه التفكير في غيرها وهو القاطن في حدود القرية، باتت له قدرا لابد منه، بكل ما ستحمله من مفاجئات ومفارقات تعترض سعيه. هكذا بنى عزمه وتوكل على ظنه. أن عزمت

فتوكل على الله، قاعدة تعلمها وسار على دربها خلال مراحل حياته عبر تجاربه السابقة.

هكذا أسرته، تعلق بها تعلق النور بالقمر، شبهها بالممثلة الساحرة (مارلين مونرو)، تلك الفاتنة على رغم غياب عصرها مازالت الجرائد والمجلات تتغنى بمفاتنها من فترة لأخرى، كانت قد استقطبت لجمالها الملايين من البشر عبر إطلالتها السينمائية في هوليود.

رغم أنه يعيش في بطون القرى إلا أن المجلات والجرائد لم تنقطع عنها أبدا، الفن هو أكثر مستنبطات الحياة الموجودة في القرى والمدن كافة، لذا تجد شرائط الأفلام والكاسيتات تعم الأسواق، إضافة لأجهزة ال دي × دي والأقراص المدمجة وفلاشات النقل والهارد دسك وووالخ. هذا هو عصر التكنلوجيا التي ربطته بالعالم الخارجي، لن يتخلف عنها بشر، بعد أن أغرقت الحواسيب أسواق العالم قاطبة.

شعر أبراهيم أبن السادسة والعشرين بذاته مأسورة بقوة جاذبيتها، أنها القمة التي تمنى أن يرتادها، تلك التي أدارت دفة فكره وقرار سعيه بنصف دورة، عكست كل ظنونه وأفكاره التي تضورت ألما وجوعا من جراء أحكام العصبية المغروزة في بطون الارياف من أعراف وقبلية، تلك التي عانى من أغلالها وكمدها طوال فترة شبابه.

مع تقدم عمره كُبرٍ سعيه، كَبُرَ حلمه في ذهنه، أضحى يخيط فتق أسماله بيديه، محاولا إعادة الابتسامة لدكنة شفاهه التي يبست، فلن يعد يحتمل هزة جديدة تضرب شواطئه.

مع كبرِ حلمه صار لا يحتمل عصف فيضه الداخلي، غدت غلمة رهقه تحرجه، تنغزه من الداخل، تجتاح كيانه دون هوادة، تقحمه في دورات إستمناءة تذكره بعالم النساء. صار الفيض يشتط بقلبه مع كل فاتنة تخطو أمامه أو تخطر في باله، مع كل جسد ريان يغويه، أو رهافة ما تطفح على ثغر أنثى تلهب فؤاده، أو نظرة تخرش صمته...

بكيانه وقع تحت تأثير غريزة عمياء، بحيث صار لا يحتمل طيف أنثى أو طلة أنثى من على شاشة التلفاز، ممثلة أو مذيعة أو راقصة تثير حفيظته من خلال وصلة راقصة في فلم، أو عرض خاص استعراضي يجذبه.

ظهور تلك الفتاة في عالمه في لحظة قنوط وجفاء عدها رحمة، فكت أنشوطة قيدت ساقيه، أنقذته من واقع أحلام بائسة مقيتة، بزغت له بقمة أنوثتها، حركت في صوته نبرات رجولته، رسمت له الأمل يسطع كنجوم السماء، أشعرته بعذوبة الحياة خلف حدود قريته، أظهرت له الفشل ما هو إلا نكسة نفسية، والنجاح من إرادة الفرد، لذا صار ينظر لحلمه في عالمه الواسع كنجمة استدلال لمستقبل باهر.

نفض غبار البؤس عن جسده، صار يشعر بالحياة، ما عاد يحتمل حالة الضياع والتشتت التي مرغت أنفه في وحل الهزيمة، ما فتئت غدت الأيام ذات أهمية كبيرة في واقع حياته، بات لا يستكين إلا على لحظات شغف تجدد دمه، أضحت وفاء أحدى أطراف عتلة توازنه في الحياة لا يمكن التخلي عنها.

بتجاوبها وسلاستها غيرت مسار أفكاره جذريا، نقلته من واقع مهموز، مهموم، ضيق، لواقع جديد متسع. نقلته حياته من موسم خريف أجرد لربيع مزهر يستطيع شم عبقه.

هذا الكون في حركة دؤوبة لا يستكين، الأجرام السماوية تتحرك وفق قانون فيزيائي صرف، في فضاء شاسع، مجرات، نجوم، كواكب، "كل في فلك يسبحون" صدق الله العظيم. تمضي في سعيها خلف هدف مجهول لنا، تدور حول محوره في حركة لولبية وبمسرات شتى. الفلك عبارة عن موج مكفوف، تجري خلاله النجوم والكواكب كمراكب وسفن البحر.... تلك هي آيات الله.. فالذي لا يتحرك في موقعه أو من موقعه هو بمثابة ميت بحكم قانون الكون، لذا كان على إبراهيم أن يكون جزء من منظومة الكون، إن يتحرك من قريته، عليه أن يخرج من قريته ليتسع مجاله ومستقبله.

لقد وجد ذاته في القرية كعنصر كامن مستقر، عنصر غير مشع على نمط حياة والده، ليس له تأثير على القرية، لذا ود أن يغير من شكل حياته، ليكون كتلك الكواكب السيارة

السابحة في فضاء الحرية، ليأمن مستقبله ومستقبل أخوته، وعسى أن يلتمس ظفره ونجاحه.

الأيام لا تشبه بعضها، لذا ينبغي أن لا يعلق أسمال ماضيه على عاتق مستقبله، أن لا يقطن في بؤرة محجوبة عن نور الشمس. يجب أن يبحث عن شراكة جديدة وفي مكان جديد، تكون أكثر لينا وحنانا وعاطفة وحكمة من تلك التي آثرت به. يجب أن يبحث عن الفضائل في قواعد الحياة الواسعة، ليمخر من الثقوب الدقيقة كالمياه الجارية.

والحقيقة كان قد خسر كل شيء تقريبا في قريته المسماة المراغة من سوهاج مصر سوى زمن عمره الباقي. ما عاد يمتلك في خزائنه سوى قرار الهرب والتنصل عن مسؤولياته أتجاه أمه وأخوته، بعد أن وجد ذاته عاجزة عن الزحف خلف سعادة نفسية وراحة باله، بعد أن تبخرت أحلامه في قريته، تحولت ظنونه لهباب أغشت نظره وقلبه وعقله وفكره.

ما أن رقت له صور وفاء؛ حتى قرر أن يقترب من لهب نار فتنتها ليهجس بالدفء من خلال برامج التشات الذي اشترك بها في بادئ الأمر بمحادثة جماعية، ثم لمح لها لتجاريه في غرف محادثة انفرادية، بعد أن وجد الأمور سهلة أمامه وميسرة، طفق يتغزل بها، حيث أصبح العالم بوجود النت غرفة صغيرة تجمع الشرق والغرب في شاشة هاتف.

أرسل لها طلبا خاصا، ود محادثتها بشكل منفرد... لم تمانع رغبته- سره موافقتها، تعرف على أسمها الصريح في البرنامج- وفاء 2000 وهو أسم عابر، أتفق معها بمحادثة سرية، دخل بشوق لغرفة المحادثة، صار يكتب لها بنهم وتكتب له بعرفان.

- أنا من مصر، أسمي أبراهيم– أعزب.
- أنا وفاء من أبوظبي وغير مرتبطة...
- هل أنت إماراتية الأصل؟
- لا أنا عربية ولكني أعيش في أبوظبي، أنا ولدت في أبوظبي.
- ممتاز هذا ممكن أن يكون عامل مساعد للتقارب بيننا.
- هل لي أن أكون مقربا منك؟ أنت جميلة جدا أسرتي قلبي، دخلت مزاجي من أول نظرة، لا بل أنت مذهلة، لأنك من الصور تمكنت من جذبي لشواطئ بحرك، فما بالك لو التقينا وجها لوجه؟.
- هههههه منذ البداية؟ أراك من هؤلاء الذين يحبذون التسلية..
- لالالالا، أن بعض الظن أثم، أنا معجب، معجب وهائم في حسنك وجمالك، جاد بعواطفي، ستخبرك الأيام عني.
- وكيف أضمن ذلك.
- لا أدري ولكني أصدق مشاعري تجاهك.

- إذا لا مانع لدي إن كنت صادقا، أنا أيضا أحبذ الجد ونخضع للتجربة مع مرور الايام.
- أنا نيتي سليمة، أنت رهيفة، جذابة، جميلة، فاتنة، أهجس بك تختلفين عن النساء.
- الله الله بدأ الغزل، أنا أشكرك لإطرائك.
- هذه هي الحقيقة أنا لم ازد شيئا بل أشعر بنفسي عاجز عن وصفك..
- ممتنة لكلامك الجميل.
- لا تنسِي أسمي إبراهيم المراغي، هذا أسمي الحقيقي، دعيه حلقة في أذنيك..
- وأنا لم أزيف أسمي، وهذه صوري الحقيقية، وعلى فكرة؛ أنا أبحث عن شيرك صادق وحقيقي وجدي.
- إبراهيم: هل لي تحويل محادثاتنا لمحادثة فديوية؟ هل ممكن ذلك فأنا بشوق لرؤياك؟.
- الأمر سابق لأوانه، لازلنا في أول لقاء، لم نتجاوز خط التعارف بعد، إذا ما ترسخت الثقة بيننا، في ذلك الوقت يمكنك أن تراني متى شأت وكل شيء في أوانه، وذلك بعد أن تترسخ الثقة بيننا.
- عين العقل كلامك في محله، برأيك متى نصل لنهاية المطاف ونتحلى بالثقة؟
- نترك ذلك للزمن فهو كفيل بصقل نفوسنا ونوايانا، حينها تترسخ القناعة في ذاتي وذاتك دون عناء.

- صدقت وأني أشعر بك حكيمة، وهذا ما يزيد أعجابي بك، إذا دعيني من أصدقاءك المقربين حتى تستفحل القناعة في ذاتك يوم ما.
- وهو كذلك.
- هل لي أن أعرف عمرك الحقيقي.
- أكيد لا أخفي شيء يخصني، عمري 22 سنة..... وماذا عنك أنت؟
- أنا خريج ثانوية ولم أدخل الجامعة وعمري 26 سنة.
- وأنا خريجة ثانوية أيضا، أعمارنا متناسبة.... فلا عقد ولا حرج من هذا الجانب.
- وأن كانت موجودة سنزيحها بالرغبة والنية.
- بأذنه تعالى.
- هل من الممكن أن أطلبك في الوقت الذي اشتاق به لك؟
- في الوقت الذي به أكون موجودة سأرد عليك، اكتب لي رسالة وسأرد عليك.

وجد قناعة من قبلها وبساطة في تعاملها مما رسخ اعتقاده الأول بها، إذا هي إنسانة متجاوبة وذكية في ذات الوقت، وبما أنها تسكن أبوظبي، إذا هي مشروع ناجح نفسي وعملي.

- شكرا لك يا وفاء على سلاستك وتجاوبك وتقديرك، أنت راقية في كل شيء، وهذا هو رقم هاتفي: 00200000000

- وفــاء: شــكرا وأكيــد حصــلت علــى رقــم هــاتفي مــن البوستر، ممكن أن ترسل لي مسجات في أي وقت عن طريق برنامج الواتسآب.
- يا للنية السليمة، حتى أرقامنا لها نهايات متشابهة.
- وفاء: لم أنتبه عليها.. ربنا يتمم بخير.
- إلى اللقاء....

3- وفاء

أضحت وفاء علامة فارقة في حياة إبراهيم، وفي المقابل ظل يتبع صورها وأخبارها على برنامج الأنستغرام والشات بشكل يومي، غدى يشعر بسلاسة الاتصال عبر الهاتف الحديث، هجس بها بمثابة نعمة ورحمة وجدت لحل عقده وعقد الناس العاطفية والمادية.

أحتفظ بصورتها ورقم هاتفها، تمادى في هواه حتى أدرك قبس ظنه يطفح أمامه كلما تذكرها. صار لا يهمه شيء في الدنيا سواها، خاصة بعد أن طُفِئَ قنديل سعاد من عالمه نهائيا، أضحت ذكرى تسطع في مخيلته مرتبطة باتون القرية التي ما عاد يملك فيها شيء سوى طفولة مشبعة بالحرمان....

بعد أن تلاشت من أحلامه وجرى ما جرى لها وله؛ بعد أن أوجرت عاطفته على ترع القرية؛ لفظته الأقدار خارج حدودها، وجد ذاته تتسكع على أرصفة الحث والنجدة والمستحيلات، عانى ما عانى من وحدة وتصرم، فلم يصحى على ذاته إلا بعد أن وجد في وفاء منفذا نحو دنياه ينتشله، فتمسك بوهج القنديل مرتديا العروة الوثقى ليتجاوز خطوط مأزقه، توقدت الرغبة بنبض الفكرة وعسى ترفع عنه ما وقع عليه من ضيم وقهر.

والحقيقة لم تكن للقرية لها دخل في معاناته، لم تكن القرية هي من جردته القدرة والتأثير والمبادرة قدر ظرف أعسر تكبل به

والـده، أحيانـا تحـل الأقـدار دون إرادة وكأنهـا ديـن لابـد منـه، هكـذا عصـيت عليـه الأمـور مـن خـلال غوصـه فـي مسـتنقع الصـراع القبلـي دون أن يكـون طرفـا فـي الصـراع، بالتـالي نقـل آثـاره ومأسـاته لأولاده، ربمـا ستسـتمر تلـك المأسـاة لأمـد بعيـد إن لم يتدارك نفسه وواقعه الدميم الشنيع.

تـرى! مـن تكـون وفـاء؟ التـي تعلـق بهـا إبـراهيم مـن نظـرة عـابرة عبر صورها؟

وفـاء: فتـاة عربيـة رقيقـة، أنيقـة، تتصـف بملامـح غجريـة فاتنـة، عشـرينية، جميلـة، ولـدت وترعرعـت فـي أبـوظبي بحكـم عمـل والـدها فـي بنـك أبـوظبي، تشـربت مـن عـادات الخلـيج منـذ صـغرها فحملـت لغـة وطبـاع مـنهن القيافـة أهـل الخلـيج. تزوجـت مواطنـا خليجيـا وجـد فيهـا متنفسـا لرغباتـه الجنسـية، لـم يهـتم بهـا سـوى أيـام المتعـة الأولـى، أيـام شـهر العسـل، ثـم ركنهـا جانبـا لتتخـبط فـي خطـوات ظنهـا وشـوقها بـين الرجـاء والأمنيـة. كـان قـد عـد زواجـه مقـامرة عـابرة تسـلى بهـا مثلمـا يفعـل معظـم أبنـاء الخلـيج للثـراء والمميـز الـذي ينعمـون بـه، ثـم أهمـل وجودهـا بعـد أن تشبع من فتنتها دون أن يقيم ويقدر مشاعرها وإنسانيتها..

معـروف بـأن تلـك الزيجـات لا يعتـرف بهـا مـن قبـل الدولـة والأهـل، لـذا مـا أن يـود أن يسـتقر فأنـه يفكـر فـي الـزواج مـن بنـات جلدتـه ليأخـذ منحـة الدولـة وسـكن يليـق بـه وليكـون فـي مأمن من عقد ومشاكل الأولاد مستقبلا.

كانت فترة مقيتة تلك التي حقنت ذاتها بزواجها من رجل هوائي، لا يجد في زوجته سوى دمية آلية، يركن إليها عند لزوم الحاجة.. لم يرتقِ بها كزوجة أمام المجتمع، نظر إليها نظرة نمر جائع، نظرة حيوانية واستمتاع واستمناء وترفيه عن النفس. لم يشعرها بجدية غايته ونيته منها قط. لم يحترم قيم وأعراف العلاقة الزوجية المتعارف عليها ولم يحسسها بقدرها ومحبته لها، كأنّه ود أن ينتقم منها بزواجه.

كان زواجه زواجا خالٍ من الأسس والمفاهيم والقيم، لا رونق فيها ولا مشاعل تضيء سقف العِشرة الزوجية، زواجا أشبه بحديقة فضة مفتوحة الجوانب دون أسوار، لا ورود تبهجها ولا أشجار تغنيها. بصراحة؛ كان زواجه نزوة مرقت على قلبه، كونه ينظر لنفسه نظرة فوقية وتميز وتجلي بصفته من أبناء الخليج مترفع ماديا، مترفع مكانة وقدرة، مترفا، غنيا.. الخ من صفات القبح الغير أخلاقية؛ فيما هي لا حول ولا قوة لها إلا الصبر والسكوت، بحاجة للرعاية والإقامة وعزة النفس والمادة.

كان زوجها من هؤلاء المصابين بالغرور الأعمى، الفقير أدبيا وأخلاقيا، ينظرون لتلك الفتيات اللاتي أصولهن من خارج الخليج نظرة دونية فوقية، ينظرون لهن كمشاريع فتنة وترفيه وولّه إلا ما نادر. قلة من تلك الزيجات تعدت خط الفشل، لما في نفوس هؤلاء الشباب من فراغ زرعته المادة والطيش

والفحش ودلال الدولة وتربية الخدامة، نتيجة الجهل وقلة الوعي لديهم.

الفكرة نابعة من انحدار القيم في المجتمع، العملية بذاتها هي تجارة رق بأسلوب مغاير للمألوف، أضحى الحكم على الفتاة حكما بليدا، قدرها سلعة رخيصة أمام من يمتلك المادة، سهلة المنال، حيث يعيش هؤلاء الفتية لحظات ظرف متكبر إلا ما ندر من الواعين والمنصفين من هؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...

فتلك الزيجات لم تلد إلا لتفشل، لسد ثغرة في منافذ الغريزة الحياتية، حيث الشاب يستلهم ثقافته الأولية من لدن خدامة اندنوسية أو اثيوبية رعته في نشأته، لذا افتقدت القيم قيمتها عنده، بات ينظر للفتيات اللاتي من غير جلدته نظرة دونية محصورة بين ساقيه، بعد أن تشبع الغريزة والحكمة من الخدامة..

ما يحصل هو زواج عرفي عام لدرء عقدة في حياة الشاب لمن فاتته فرص السعادة. أو جنوح ما خلف عجلة المتعة لمن ضجر من سعة الغنى، فبات يعبث بأمواله وشبابه في طرق النساء للتسكع والزنا. أو لهاجس السن أن ونى بالرجل فيستسيغ مغامرة تلهييه بقية العمر لترفع عنه عقد الحياة، فيزج ذاته بأحضان فتاة تصغره سنا من أعمار بناته. يشكم ذاته بجدلية المتعة في زيجة ثانية وثالثة تشد أزره بالحياة... هكذا هلم جرى، وما شابه ذلك من هذا القبيل، هذه الجرائم

تحدث كل يوم بحق الفتيات العربيات، ما أدى إلى زيادة نسبة الطلاق في المجتمع الخليجي بشكل رهيب حتى بين فتيات الخليجيات أنفسهن اللاتي بتن يسعين خلف الشاب العربي بعد تجارب مرة مع شباب الخليج.

تلك العقد ونظرة التعالي التي يشعرون بها لم تأتي إلا من فراغ عام وغنى فاحش وعقول خاوية، جعلتهم يعيشون في عزلة حقيقية من المجتمع العام، ناسين بأن تلكم الفتيات لهنَّ أهل وشرف عزيز وقيم خلاقة وأخلاق مجذرة وعادات يعتززن بها، ولهن مشاعر وأحاسيس تتنفس بها. ناسين بأنَّ المرأة إنسانة لها كرامة ولها دين وعزة نفس تفوق المادة التي تملأ جيوبهم، ولا ضير بأن تفكر في تحسين مستواها المادي بزواجها، تلك غريزة في نفس كل البشر.

وفاء هيَّ أحدى هؤلاء النسوة اللاتي أخطأنَّ الاختيار في قسمتهنَّ، نظرت بعينيها الجميلتين إلى القمة التي ترجتها فارتجت القاعدة وارتخت تحت قدميها، فهوت سريعا لدرك الهاوية، ركنت في قاعها السحيقة حقبة من الزمن....

تأملت فردوس حياتها بعد معاناة طويلة مع السقم والفقر، رسمت أحلامها السادرة في عيون فارس أحلامها، حتى شمعت تلك الأحلام على جدار الذاكرة، ثم صدأة قروئها وتآكلت أحلامها.

كانت قد صاغت رغبتها بالحياة بكل سهولة، صبرت بأناة ولم تحرك ستائر حظها المشهد. لم تشعر قط بالرضا، أضحت الاحلام غصة في فم المستحيل، قبل أن تكون غصة في فم الزوج بعد ذلك..... استشعرت روحها الترفة وهي تهفت بذبول نحو رقعتها الأولى، ركنتها الوحدة اللعينة في كوة العقد، كوتْ أوصالها، حجمتْ رغباتها بالحياة، تلك المشاعر الخاملة أضحت بركان حقد عليه لن يخمد نيرانه، تأججت شرر السقم والعناد نتيجة سلوك زوجها الارعن..

لم تجد في مرحلة زواجها ما يجعلها أن تحتفظ بالمعقول والمقبولية كزوجة على المستوى العلاقة، لم تدرك الحالة المرموقة من تلك التي تأملتها. لم يرع قيمها ومبادئها التي لا يمكنها التنازل عنها مقابل الخسة التي تعامل بها زوجها معها. القبس الذي تأملته يسطع في سمائها خفق، ما عاد ينير شعب البيت الذي يأويها، تخاذل زوجها دعس على رغباتها، جعل العلاقة بينه وبينها تفتقد الصلاحية سريعا، أضحت كظيمة، هشة، لا تستطيع مقاومة مخالب الوحدة التي مزقت أغشية فؤادها. تجردت اللمعة من أظافرها والبهجة من حياتها، شعرت ببرود تام في أجواء تلك العلاقة، أضحى كل شيء بين العروسين ذكريات وأوهام بعد مرور ثلاثة أشهر من الزواج، المغريات غدت هباء تتلاعب بها الريح.

في عرف الزواج تعد كرامة المرأة من كرامة الرجل، وإذا ما صان كرامتها ستصون كرامته، وإذا ما أخلى بها تخلت عنه..

ومن عشق المرأة أن تتألق وتتأنق بكرامتها أمام المجتمع، تلك غريزة محفورة في ذهنها، لن تتخلى عنها، وإذا ما خفت حددتها تجدد ذاتها وتبدأ بالبحث عنها....

بدخولها قفصها الذهبي ربطت كرامتها بكرامة زوجها. أنها تزداد إشراقة وقيما ونورا طالما هي على ذمة مصونة، لأنها بزواجها تكون قد أغلقت الأبواب بوجه الريح العاتية، فالفتاة الشريفة تعتز بنفسها وتحافظ على بيتها وكرامتها بأسنانها وأظفارها..

لكن إذا ما أخلى بها الزوج فلن تتنازل عن كرامتها، لأنها في حقيقة الأمر لم تتزوج إلا لتعزيز تلك القمة بسور محصن، حفاظا على ذاتها من كل دنس فسق وعبث شيطاني في دروب الموبقات. فهي لم تتزوج إلا لبناء أسرة، وتعزيز رغبة في الذات.

لذا يُعد عامل الكرامة أهم أركان حياتها حال دخولها محيط العلاقة الزوجية، ممكن أن تحتمل سقم الفقر والجور والغضب ومأساة الذل والهوان، لكنها لن تصبر على وضع يحتقرها ويسحق كرامتها، حينها يكون الجحيم أهون عليها من عيشة خالية من وهج الحياة والعزة والكرامة، وبالتالي تكبر وتزداد العقد بين الزوجين فتنتقل الحياة الزوجية لحالة حرجة وعدم استقرار، ثم تتحول لحالة عقم واستحالة أمام صيرورة الحياة، مما تفسح المجال أمام الكوارث من أن تحل وتدخل

مـن نوافـذ العلاقـة الزوجيـة، لتخـل بقواعـد الأسـرة بغـض النظـر عما سيحاق من أذى بأركان البيت.

ولكـن مـا الـذي جعـل وفـاء تنحـرف وتنشـر صـورها فـي الانسـتكرام مـع رقـم هاتفهـا؟ مـا الـذي جعلهـا تتأمـل مواصـلة الشـباب معهـا عبـر بـرامج الجـات والفيسـبوك والتـوتر وأخـرى تخـص الـدعارة؟ هـل لجهلهـا بتلـك البـرامج الرنانـة أم للبحـث عـن مرسـى آمـن لباخرتهـا التـي أضـحت تعـوم فـي وسـط عبـاب بحـر مضطرب؟ أو لأنها مسالة طبيعية عامة؟..

مـا الـذي أوصـل وفـاء لهـذه الحالـة البذيئـة مـن وجهـة نظرهـا؟ أنهـا تلـك الفتـاة الطيبـة المسـكينة الفاضـلة، تلـك التـي بنـت آمـالا عريضـة مسـتقبلية علـى وقـع زواجهـا، إلا أن الريـاح جـاءت بمـا لا تشتهي السفن.

قبـل الـزواج كانـت فتـاة سـمحة، نديـة، لا تعـرف خفايـا الحيـاة إلا مـن خـلال شاشـة التلفـاز كـأداة تسـلية وجدتـه فـي بيـت والـدها، قسـت عليهـا الظـروف العابثـة بعـد أن دكـت عواطفهـا مسـامير الغـدر، بعـد أن شـدت الرحـال لعـالم الزوجيـة برفقـة خيـال تماهـا فـي أول المشـوار. مـا عـاد ينظـر لهـا زوجهـا إلا بعـين المتعـة والاشـتهاء. تقوسـت آمالهـا نتيجـة حـر الشـوق والخيبـة التـي وجـدتها فـي زوجهـا. كويـت بسـوط الجهـل والبخـل واللامبـالاة الـذي مارسـه زوجهـا المـريض ضـدها. تماديـه فـي الإسـتمناءة وتخـوره المسـتمر فـي أزقـة النـوادي الليلـة بحثـا عـن بنـات الهـوى والسـكر والعربـدة جعلهـا فـي حالـة صـدمة. حرمهـا مـن أبسـط

ملـذات الحيـاة، ألا وهـي الشـعور بالإبـاءة والرصـانة والكرامـة والثقـة بـالنفس والعـيش بالكفـاف. جعلهـا تشـعر بـذاتها كأثـاث البيت مرميـة بـين أربعـة جدران، لا تشـعر لـذاتها قيمـة ترفـع مـن شـانها. جعلهـا تنظـر إلـى ذاتهـا فـي المـرآة لتجـد صـورة قبيحـة معاكسـة لمـا كانـت عليـه قبـل الـزواج، غـدتْ امـرأة تافهـة تنقصـها الكرامـة والسـيادة علـى ذاتهـا، باتـت تشـعر بـنقص فـي كينونـة شخصـيتها وفـي فتنـة قوامهـا وجمالهـا. هكـذا جردهـا مـن ألقهـا، هجست بذاتها كسلعة في يد زوجها.

فيمـا زوجهـا كـان قـد صـرف جـل أوقاتـه فـي السـكر والعربـدة وملاحقـة النسـاء والتنقـل بـين العجـلات الفارهـة مسـتفيدا مـن الأسـهم والسـلف التـي يتقاضـاها مـن البنـوك رغـم الفوائـد التـي تقصـم ظهـره، حتـى ونـيَّ بـه الأمـر إلـى أن يغـرق فـي بحـر ديـون تلك السلف التي تراكمت عليه حتى أزهقت جيبه..

طيشـه والاسـتخفاف بالمسـؤولية جعلـه يعشـق الانحـراف، يقـع فـي مطبـات مـن العقـد والمشـاكل مـع المومسـات ورفـاق السـوء، ممـا أضـطر البحـث عـن طـرق لعـلاج عقـده فـي الحانـات والبـارات ليـدعم جنونـه بالسـكر والعربـدة مـع بنـات الهـوى، جعـل مـن ذاتـه عربـة تتـرنح فـي مهـاوي الليـل تبحـث عـن بائعـات الهـوى، ناسـيا لـه زوجـة تنتظـر عودتـه للبيـت. جعلهـا تحـف الخطـى خلفـه دون أن تعثـر لـه علـى أثـر بـين أحـلام أمـس. أضـحى لا يسـتطيع تسـديد فـواتير سـلوكه والفوائـد المجزيـة

بالوقت المناسب، ولا يستطيع معالجة أموره النفسية والزوجية ومداراة القاعدة الزوجية.

تعلق بدماسة الليل ولعنة السهر والركوع أمام رغباته الجنسية في دور المباغي والنوادي المنتشرة ومراكز الدعارة في بعض الفنادق التي تعمل بالخفاء والعلن. أدمن على السكر والسهر ولعب القمار دون أن يتذكر بأن هناك في أعماق الذات وعلى أرصفة الحب من تنتظر رجوعه بشوق منقطع النظير.

بعد زواجه بشهرين عاد إلى سجيته الأولى، إلى شلته التي تعود عليها قبل الزواج، بعد أن تذوق شهدها ونفض ريشه؛ تركها وحيدة تعزف على أوتار الحزن والهم والأمل، قاطنة في قبوها مقابل أن يستمد رجائه من بنات الهوى، أو يستلذ بكأس خمر يذيب به غريزة عواطفه في باحات "النايت كلاب" يبذخ في حضن غانية ما أو مومس أعجبته. احيانا عربدة ما تحيله لمهرج تنتزع منه كرامته، حيث تسكعه في تلك المباغي يضعه في درك العهر مع شلة السوء التي يرافقها..

هكذا انحدر في سلوكه لهوة السوء، تاركا العلاقة الزوجية تأن فوق رفوف النسيان، في سدرة غربة مقيتة من عالم الوحدة، حتى جنى على زوجته التي كهب وجهها وجزل وضعها، جنى على بيته الذي لم يرعاه ويقدره.. عندها شطت عاطفتها، لا سند يعينها على جلدها ولا معين يرفأ بها، فلم يعيد لعينيها

بريقها الذي نفد طاقته من سئم الانتظار، ولا لنضارة وجهها بهجتها.

بتلك الممارسات الروتينية الدونية واللامبالاة، قتل في أعماقها الغيرة والمحبة بدم بارد، دفن لهفتها في بركة ملل، احترقت بصدى الشك الذي طغى على صوت الحلم والأمل. تعفنت الفكرة في مخها، تحولت لحالة تنتن قلبها، تأكدت من أن الشيطان غلبها. تصاعد دخان العذاب لعنان السماء، جُزلت طاقتها. لم تعد تحتمل قرف العذاب، لقلة تجاربها تلاشت رقتها، صارت أشبه بكومة فحم في كوة البيت تصطلي بذاتها، لم تحتمل الروتين المر المفروض عليها والذي طالت فترة غله لأكثر من سنتين من العذاب دون مراجعة وحلول، تلك المدة جعلت من قدر الزوج مسمار صدأ ثبت في لوح حياتها، فلم تجد من قلعه بدٌ..

كانت قد نزفت كثيرا في هواه، في ظل شك عصف بها، التصق بجلد يقينها، حطم كرامتها، مع الزمن تحول الشك الغامض ليقين دامغ، تجردت تماما من العلاقة الزوجية بعد أن وقفت له ندا في كل محفل يجمعهما، بل أضحت تعمق ذلك الخلاف لتسترد ذاتها وكرامتها وعافيتها الممزقة من بين يديه.

لقد وضعها في دائرة مغلقة من الجبن والعذاب، جعلها لا تحتمل صخب الليل الذي بات يعج بسكون مخيف، جعلها تنفر من الوحدة لذاتها ومن ذاتها للوحدة المقيتة. ملتْ قرف

الـروتين، تكسـرت مجـاديف الحلـم، ذبـل عودهـا، مـا عـادت تحتمل تلك العلاقة الهشة ورجوعه المتأخر جدا للبيت.

الفراغـات المبعثـرة فـي حياتهـا ولـدت فراغـات أوسـع فـي مجـال الـذهن والقلـب، وخـزت أحاسيسـها ومشـاعرها كـدبابيس نـدم شـكت أنوثتهـا، حتـى تأزمـت نفسـيا وجسـديا وفكريـا. أضـحت لا تسـتطيع أن تقـاوم جفـاء اليـوم وسـواد الليـل المـوحش، صـارت كالقطـة المتوحشـة محجـورة داخـل قفصـها، تثـب بوجـه زوجهـا كلمـا دخـل البيـت، حتـى تعقـدت خيـوط الألفـة وتقطعـت سـبل العـيش وإصـلاح ذات البـين. تحولـت العلاقـة الزوجيـة لرزايـا تحـرد الـنفس، لطامـة تفـج رأس الـزوجين. مـا مـن طامـة إلا وبعدها لطمة.

تلـك الأوضـاع أثـرت علـى كيانهـا، أكلـت مـن مخزونهـا الفكـري والعـاطفي الكثيـر. عبثـت بقيمهـا التـي راعـت أن تحـافظ عليهـا تحـت ظـل زوج دمـيم. غيـرت فـي سـلالم عرفهـا لمراتـب الأشـياء، فلـم يعـد الـزوج أو الـزواج مـن أولويـات حياتهـا، سـاقتها العقـد لحلـول سـريعة تجـدها ناجعـة لمحاربـة الـزوج بالمثـل ممـا أوقعهـا فـي مطبـات الخسـة التـي جرتهـا لجـزل واقعهـا بعـد أن تقيـدت زمنـا وهـي تخـاف أن تتخطـى حـواجز العلاقـة وتكسـر قيـد العصمة.

لـم تحتمـل القـرف والنـتن المركـون فـوق سـريرها مـن مخلفـات ذكريـات عـرس لـم يـدم سـوى فتـرة وجيـزة... الـزمن أخلـى بـالتوازن، لـم تعـد للعلاقـة الزوجيـة مقـاييس أناقـة واحتـرام، بعـد

أن وجدت حبل العشرة قد أرتخى في يدها، بعد أن وجدت نفسها تمسك بطرفه في الوقت الذي به تخلا عن طرفه الآخر، فعزمت هيَّ الأخرى أن تحل الحبل بعد أن كلت من ثقله وحمله والحفاظ عليه من طرف واحد.

تلمست الغموض المحيط بها، شعرت بخزانتها قد وشلت تماما من المبادئ، من تقدير مما كانت تترجاه وتحسبه من الجواهر، لم تعد تملك عاطفة اتجاهه، اختنقت سعادتها بأخطائه، أعماها الظلام، وجدت روحها مغشية هائمة بوهم الغد المبهم.

طنين الأذن أضحى له صخب دميم في النفس، غز صبرها المريض، لم تجد حلا وسطا أو سحريا في الأفق لإصلاح ذات الشأن. كان زوجها قد علقها على شماعة النسيان بعد أن رفض طلاقها، فلم تجد بد من تعليقه هي الأخرى بذات المبدأ. تلك الأوضاع المزرية جعلتها تفكر بالانتقام منه، جعلتها تنسلخ عن جلدها الذي ما عاد يحمي بدنها. رفعت شعار "العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم".

بدأت تستخدم أسلوبه وغطرسته وطرق تعامله معها، وجدت من الخيانة؛ العصا الغليظة التي تقصم بها ظهر زوجها، تقحم بها همجيته، مضت تزحف خلف عصف الانحراف، باحثة عن حريتها، تخلت عن القيم التي تشربت منها في طفولتها. ما انفكت بدت تبحث عن اللغز الذي غير فكر زوجها، عن

المفاهيم التي حرفته، عن السر الذي جعلها تركن في زوايا البيت كقطعة أثاث مهملة.

بدت تشعر بأن الحياة ليست مبادئ وقيم نتمسك بها فحسب، أنما هناك مكملات لابد منها تزيدها وتنا واستقرارا، كالاحترام والمادة والثقة بالنفس والاطلاع والوجاهة وحب الذات، الحياة هي اقتناص الفرص لبناء الذات وجمع المال لتقوية سيقان ثقتها بنفسها، لتحتمل أعباء الحياة قبل المواجهة. تلك هي الطريقة المثلى حسب معتقدها لتستطيع أن تقف على قدميها قبل أن تحل المواجهة الشرسة القادمة مع زوجها.

هذا هو بالضبط ما كان ينقصها، المال أولا ثم العزيمة والثقة بالنفس، ثم القرار. ...ذلك هو المغزى الذي تبحث عنه ليعينها على البقاء في مكانتها شامخة، خاصة وهي لا تملك ما تستند إليه أو تعتمد عليه سوى فتنتها ورشاقة جسدها---

مرة تلو المرة ارتأت أن تعاكس رغباته، أن ترتاد النوادي الليلية، خاصة زوجها غير متواجد في حضرتها. على أثر ذلك شعرت بنوع من التنفس رغم تلوث الهواء في هذه الأمكنة وقرف الهوام المتجمعة حولها. إلا أنّهاَ شعرت بالجو العام فيه نكهة ولسعة تكشط بها الهم واشمئزاز الوحدة اللعينة.

من خلال النوادي تعرفت على فتاة سورية أسمها ثريا وأخرى سودانية اسمها نجلة ومصرية ولبنانية كلن لهن ذات القصص المتشابهة لقصة وفاء، فصرن بذات الالفة والصداقة بحيث

صرن يتبادلن الزبائن في شقة وفاء او شقة ثريا أو في الفنادق الخاصة المفتوحة ابوابها للدعارة. حيث تجد السماسرة والقوادين يتبعون الغرباء بسعر زهيد بين 20 – 50 درهم.

كما تعرفت على شلة من شاكلة زوجها، جلست بحضرتهم تذوقت الخمر برفقتهم وبرفقة الهم وسوء النية ولسعات الدبابير المحيطة بها، استلذت، هامت بهم وبالخمر والسكر، رغم تقززها من رائحته النتنة. تراقصت هواجسها، تصدعت، استمالت للرقص، استمتعت بالرقص، هجست بطعم القبل والأحضان التي حرمها منها زوجها، شعرت بثقل في جيبها وأمان في قرارها. مرة تلو مرة تفتحت أمامها أسرار المهنة حتى جنت على نفسها براقش.

في الوقت الذي انتشلت نفسها من وحل المذلة، والعيشة المزرية مع زوجها؛ سقطت كحجر صوان في بركة الصياعة والضياع والانحلال والموبقات، في بؤرة الانحراف والتسكع، انحدرت من قمة الشرف لهاوية البغاء، سقطت في وحل الخسة والعار دون أن تشم وخمّ زنخها، دون أن تدرك بأنها قد تلطخت بتلك السموم السوداء التي غطت على بريقها نفسيا واجتماعيا ودينيا أمام الله. ودت أن تدافع عن كرامتها فذبحت نفسها بسيف زوجها الأرعن.. لم تكن تهتم لكل ما جرى لها سوى أن تهين هذا الزوج الذي لا يفكر بها ولا يهتم لمشاعرها ولمتطلباتها الجنسية والبيتية. وجدت بأن هذا الزوج قد كفر بنعمة أنوثتها فلا يستحق أن يصان، أو يكلل بالاحترام، لأنه

هو ذاته لم يصن هذه العلاقة ولم يحترمها، لم يراعِ قدسية العِشرة إطلاقا، لذا ركلت هذه العلاقة بقدميها.

بدأت تفتعل المشاكل في شتى أمور الحياة البيتية والخارجية، المشاكل تجذرت في أعماقها، الصغيرة منها تلمعها وتُكبرها، والتافهة منها تُعظمها وتحليها، والكبيرة تفجرها في وجهه وتسقيها. باتت تَفضحه، تَعريه من كل عفةٍ ورؤمة أمام أهله وأصدقاءه، صارت ترز به الرزايا وترعد بوجهه بوقاحة، محت صفة الاحترام من قاموسها، لم تعد تعر له أهمية تذكر، صارت تخرج من البيت دون أن تستأذن، دون أن تراعي حرمته، تصادق أصدقائه، تتعرف على من تبغي من أجل المتعة والسهر والمادة وترف النفس.

العين بالعين، أصبحت قاعدتها في التعامل معه، حتى جمعتهم الصدفة في ليلة ليلاء في أحدى النوادي الليلية وهي تشرب الخمر مع زبائن من أصحابه.... حينها جن جنونه، أنهار صرح رجولته، طالت يده لرقة جسدها، فضحته وفضح نفسه، قسى عليها، ضربها ضربا مبرحا في باحة النادي. وفي نهاية المطاف أدرك خطأه، وجد ذاته مجروحة، منزوعة الكرامة، لا يقدر أن يقاوم صرخته الداخلية، والفضيحة التي شهرت به أمام الملأ، فقرر التخلص منها بطلاقها نهائيا.

تلك اللحظة المثيرة أصبحت الفاصل الحقيقي لتغير حياتها، نقطة انعكاس لمعت حريتها، أضحت نقطة تحول في مسار حياتها من واقع مقيد لواقع حر، بعد أن تقاطع

المستقيمان في بؤرة الانحراف، ومن ثم افترقا باتجاهين متعاكسين.

بعد أن امتلكت الحرية التامة، أصبحت سيدة بلا رقيب أو حسيب، ادركت مسارات طرق الشعوذة، وتلك التي انخرطت فيها من مسالك البغاة.. خاصة طبيعة الكار يجمع الألفة دون عناوين، فسح لها المجال والآفاق بالتعرف على بعض الجانحات من بنات الهوى أمثال رجاء ونوال وشمة وثريا، عاهرات مستديمات ذوات خبرة طويلة في مجال البغاء، اللاتي أطلعنَّها على أسرار المهنة وأبواب الترف وطرق اصطياد الزبائن.

صارت تمسك بقدرها بين يديها بعد أن كانت تتبع أهوائه وهو مقيد في يد زوجها، لذا عكفت على شطبه من عالم الخنوع والذل تحت شعار(غاب القط العب يا فأر)....

بدأت تخطط لمستقبلها خارج السرب، بعيدا عن العيون المتلصصة، تخضب فكرها بأسرار المهنة وانعطافاتها وخفايا مهاوها. تشعبت صداقاتها مع بغايا من أقران المهنة، صرنَّ يتبادلنَّ المنفعة والزبائن، حتى تعلمت منهنَّ أسرار الكار، صار الكل يبحث عنها في نوادي الرغبة ونواصب الكؤوس، الكل يبتغيها لغاية في نفسه..

ناحت كيمامة في زوايا الشك من بواديها، هامت بين دروب الخمر وأغوار الليالي المجنونة وطرق العربدة وهيَّ تحرق

ذاتها بذاتها كسيجارة إلى أجل مجهول؛ حتى وجدت ذاتها تبزل الرأي بطرق كسب المادة، تخوض مبارزة العلاقات والعاطفة والجنوح الذاتي عبر برامج التواصل الاجتماعي مع الشباب الطائش، وعسى أن تستقر حياتها يوما ما كزوجة، أو تجعل الأفق عمل بزنز مؤقت تسير أمورها.

ما كان ينقصها بقي يشتعل في صدرها كجمرة تحرق أوراق عمرها، المرأة دون علاقة حقيقية حميمة مع رجل يصون كرامتها ويجمل القها؛ لا تشعر بذاتها كأنثى مطلقا، لن تجد لكيانها أساس كإنسانة، كامرأة لها دورها في الحياة كالنجوم والكواكب السيارة. إن لم يكن لها تأثير إيجابي سينعكس عليها الحال بالسلب كأم وكأنثى وكسيدة في المجتمع.

4- وقفة مع الذات

منذ أن سقطت حدقة عينيه على صورها المشعة بأيونات الجاذبية لم يهدأ له بال، شاغلت فكره المضطرب بقوة إطلالتها، شاغبت ظنه بشراسة أنوثتها، سيطرت على هواجسه ونبض قلبه، جلدته بسوط الشوق؛ حتى استمال لدفء صوت الغريزة الثائرة في جوارحه، حينها رهف قلبه لدفء لظاها، كالأزاهير وهي ترهف لدفء الشمس.

بعد اتصاله بها هجس بذاته قد اقترن بجواها، تلك اللحظة أعدها نقطة تحول في مسرى حياته، اعانته على تحمل الجلد، اعطته دافع قوي ليثور على نفسه والواقع المقيت المحيط به في قريته، جعلته يفكر جديا في طريقة ما ينسلخ بها عن القرية. هكذا شعر بخيط أنوثتها الناعم يلتف حول عنقه هجس بذاته كحشرة تعثرت بخيط عنكبوت، هجس باناه أرتبط بنور القمر، لم يعد يهجس بثبات في قرارة نفسه، غدى كرقاص الساعة وهو يسمع نبض قلبه يقرع ضمن مجال العقد داخل حدود القرية. كان عليه تسلق تلك المسافة لينتشل ذاته ويدرك غايته، عندها هجس بالروح تتهادى في مضمار فكره وحيرته، حيث التمس ذلك التناغم اللطيف فقرر أن يلتحق بظنه ويؤازر تفكيره.

ثورة داخلية هزته، انتفض على ذاته وضد المألوف المحيط به، انتبر كنصل سكين في واقع الصمت المدوش المحيط به ليقطع دابر الشك باليقين، صار يثأر من ذاته السلبية، لم تعد

تروقه سبل الصبر والتضحية دون جدوى، أضحى يدعك عقله بجدار العقد مثلما يدعك قضيبه في جدار الشوق. بات يجزل رغباته النفسية برغباته الجنسية بمرفأ الخيال، أستغرق عصفه في استمناءة لأجل راحة آنية أرتجاها في خياله وهو يتخيل جسد وفاء، وادا نسيان وجَومٌ سعاد ولون الفشل.

فيما مضى كان سجين قيد سعاد بعد أن قيدت هي الأخرى بقيد حسني، ما أن زفت سعاد حتى تحرر من قيدها والقرية معا، لكنه بقي سجين الذكريات والرغبة، تراكمت الهموم على قلبه كبيادر حلمه، فترة عصيبة مرت عليه، جعلته يترنح في أحكامه، بحيث لم يعد يملك ما يجعله أن يثبت في موقعه. أضحى كصرة من لفائف العقد تأبى فض مخزونها، مُشتت الذهن، لا يرَى لذاته مسلكا يسعفه، مسلكا يخرجه من خيار الصمت والاستسلام لفضاء الأمل. كانت الخيارات أمامه معدمة، الإمكانية ضعيفة، القدرة باهتة جدا أمام ظرف عقف ذيله، يكاد مجال تحركه محصور، ضيق، كفريسة لا تستطيع تخطي إطلاقة صياد لولا بزوغ شمس وفاء في الأفق.

ولكي يرتقي سلم النجاة كان عليه أن ينفذ من نافذة الشك لفضاء اليقين. بكيانه كان أشبه برصاصة تائهة في وسط قرار مهلهل، معلق بين رغبة الانفلات من قيد واقعه المعشق بجذور القرية أو البقاء في معالجة أمر والدته وأخوته في القرية. كان لابد من التحرر من كل ما يربط مصيره بماضيه الاسري والعملي والعاطفي. فكرة تبديل واقعه وتغيير مصيره

والتحول لعالم مجهول لم تخطر على باله لولا جنوح وفاء كنجمة ساطعة في سمائه. لذا فضل المجازفة على التمسك بجذور القرية. فضل التحرر والتحدي، رغم أنه خائف من الجهل الذي يركبه، لا يعرف بالتحديد كيف يبتدأ مشوار خطوته الأولى ليغير مسار حياته، وهو الذي لم يدخل القاهرة من قبل.

لقد حاول في ما مضى بلوغ صرح سعادة التي كان يراها قمة من وجهة نظره لابد من تسلقها، لكنها بددت أحلامه كضباب الفجر، فذاب كجليد بوهج شمسها بعد سماع خبر زواجها.

بعد تلك الصدمة؛ هجس بفترة انتعاش حين ارتدت إليه صحوته، حين غيَّرت وجهته وقراراته ريح شرقية، أجبرته على التوقف والنكوص وتغيير المسار ورفض الاستسلام. أدرك بوضوح تام، بأن الومضة التي تراءت له في الأفق ما هي سوى شهبُ ظنٍ منتحرة في جوف العدم تبعت مشوار سعيه.

فيما سبق كان قد صرف ذروة شبابه في محاولاتٍ بدائية فاشلة في القرية دون أن ينل شقفة من ثمار شجرة فتياته، تلك الفترة عدها مع ذاته نزوات مراهقة لم تقدح شررها. لم يكن غنيا ليتبجح بمال كما يجب، لم يلهمه الله وسامة تعوض فقره وضعفه ليصل لمبتغاه بيسر، لم تكن لديه مقدرة فكرية تعوض نقصه أو هواية ما ترفع من شأنه.

في قرارة نفسه كان يتأمل أن يتمم نصف دينه مع خليلة فؤاده كي يستقر قرب أهله، لكن المطبات أجهضت مشاريعه، تعثرت قدراته المحدودة في سقف طموحاته.

فيما سبق كان قد قيد بسجن والده، رغم محاولاته الحثيثة على التحرر، إلا أنَّ ظرفه الأعور وحظه العاثر وقدره الأعرج والإملاق الملصق بهم؛ لم يسمحا له بالتنزه خارج قوقعة والده وحدود القرية التي تقوقع بها. في محاولاته لاذ بمصيره في وسط ضحل، ثم طفحت عقدة الزواج في مخيلته كبعبع مخيف يبتلع أحلامه، الزواج بحاجة لأموال وحاجيات عصرية ومستلزمات بيتية كهربائية وإلكترونية إضافة لسكن مستقل ووو...الخ، والتي لا بد توفيرها لصيرورة الحياة. حاجات لا يمكن جزلها بمعادلة فقره، لن يستطع عبور مفازة العلاقة التي يتأملها بيقين وهو أبن فقر وجلد.

عجزه المادي كان حاجزا دامغا لكل أحلامه، كلل عزمه بالضعف والجمود، فلن يدرك مبتغاه وهو يتكئ على عكازة والده، كمن يشترك في سباق المارثون وهو يعرج، مكبول بكم الهم والعقد، تبدو المسافات تلول وعرة في طرقه. وهو يعاني في القرية؛ كان يدور في وسط غبرة عجزه وضباب تفكيره.

صارت الحياة لها أوجه وصيغ مختلفة وحسب لون شخصية الفرد وقوة إرادته وبعد نظره ومقدار عزمه، تبدلت فيها شكل السرعة ونمط المعيشة ووسائط النقل وصيغ الحياة التي كانت

سائدة زمن والده، ما عاد الحمار يجزى بنقل همومه ولا يمكنه انتظار مراكب السفن تمخر في طرقه الصحراوية، لقد عاش أبوه في زمن ضحل بسيط فترك مخلفاته جمرا في حجره، لذا عليه أن ينتقي سبل أخرى تديم عليه الحياة، عليه شد الرحيل بسرعة البرق ليجد زمنه ومكانه وحظه في مكان آخر قبل أن يندثر في أتون القرية. سرعة الفكرة في نظره لا تناسب السرعة في عيون الغير، في كنفه يحتاج لمحرك توربو ليلحق بأقرانه، ليتجاوز نقاط ضعفه والعقد المتجذرة في حياته...

إذا لابد من كسر طوق القرية المقرن بمصيره، لابد أن ينطلق للفضاء الواسع بقدرة تفوق حساباته الذهنية، ليفلت من حالة الاستحالة والمحدودية المتقوقع فيها، لحالة بها يدرك محيطه الخارجي، ليشعر بذاته أميرا دون قيود بدل أن يبقى صعلوكا في دروب التسكع خلف أحلام بائدة.

أضحت العقد والموانع الطبيعية كثيرة وشائعة في مسراه، مختلفة اشكالها في دروب حظه، إذا ما تجاوز فقرة لن يتجاوز صفحة والده المفروضة عليه ومسالة الثأر الملتصقة به، لا يتمكن أن يجرد ذاته من قيود القبلية والاعراف التي طوقت عنقه وحاصرته، لن يستطيع الهرب من شناطة الوحدة التي تعشق بها وهو مكسور الجناح..

هذا كله كان قبل أن يبتدأ مشواره، قبل أن يلتمس جراحاته، كأنه عاد وقيم ذاته بعد صفعة سعاد، راجع حساباته، حيث

عاد له وعيه متأخرا بعد أن كان تفكيره لا يخرج عن نطاق صمته والقرية. هرسته العقد قبل أن تختمر فكرة الهجرة في رأسه، لذا تجده في سلوكه المهلهل ضعيفا أمام خياراته وقراراته، لا يجرؤ على تجاوز ماضيه إلا إذا أهتز واقعه بصفعة كصفعة سعاد - هكذا عاش حياته في دوامة الصراع، أيقن بأنه لا يمكنه الهرب من نافذة صغيرة دون عامل مساعد.

كان قد عاش في تيه من أمره، ما فتئ تتبع هواجس ظنه بفكره وخياله، تربص انفجار الفرص، جلد ذاته، حثها على الخنوع والخضوع والتأني وعدم المجازفة، خوفا من أن يبتلعه بعبع الزمن. وقف كشاخص صد بين تقاطعات الطرق، بين الأنا التائهة والذات المريضة المتعبة؛ هجس بذاته صياد فاشل بعد أن أفلتت من قبضته الفرص.

لكثرة إخفاقاته؛ صار يفزع من واقع فشله، أينما يحل يبزغ له بعبع الخوف والهلع من حيث يدري ولا يدري، يتشبث به وبفكره بشكل من الأشكال لم يألفه من قبل، كحزن يسطع في ملامح وجهه أو خيال يرعب ذهنه، أو سراب يغشي عينه، أو طيف يسلب إرادته وراحته أو فكرة تغشيه... هكذا صار يجلد ذاته بسوط ضعفه وغشمته وفقره ومحدودية تجاربه.

قال الأمام علي كرم الله وجهه" لو كان الفقر رجلا لقتلته"

حقا أنه متواجد في دواخلنا كشبح من غير أن نراه، نتحسس مخالبه حين يود أن يصرعنا، جهم، ثقيل، يحتمي بالظرف، يعيش في أعماقنا كخصيم، وأفضل طريقة لمواجهته هو تغيير نمط الحياة والمعيشة، نعم تغيير نمط العيش ولو بالشيء اليسير، عليه تبديل اصاحبه والمكان بقدر ما... العيش مترفا وبالممكن لا يأتي من تقاعس الفرد، يجب أن يجدد أفكاره باستمرار. لذا تجد الغني لكثر ما يملك، يموت وهو لم يصرف على نفسه عشر مما يملك، وكل الذي يبقى من ماله يكون من نصيب الغير.

في مواسم الجفاف تشح المياه، تضعف القواعد الهشة، تزداد أنتن الفاقة مع ازدياد حجم الرغبات الملحة. وهذا يعتبر ظرف استثنائي، تفرضه الأقدار، تحمل عليه من القساوة ما تزيده قنوطا وجمودا في موضعه؛ إذا عليه أخذ بعين الاعتبار عملية استصلاح بور واقع والده في الحسبان، وما رافقه من إشكالات من المستحيل أن تبرأ يوما ما. حيث واقع والده مهزوز، لقد حل دخيلا في قرية المراغة، عرقل سعيه وأضعف موقفه وأوقف طموحاته، أدخله في نفق ضيق مليء بالعقد. استحالة إصلاح الشأن كبل سعيه بالمشقة، تلك العقد زادت من شجنه، دفعت به إلى التفكير الجدي في تغيير ظرفه وواقع معيشته.

القسوة أودت بأحلامه، قبل أن تولد كعناء في جوف صدره، سلبت حلق أذنيه دون أن تمنحه فرص التحسس برنينها.

تضورت أحاسيسه جوعا أمام زنقة حياة ترجاها سهلة المنال. المارد الذي خافه، قبع في فكره، نام في أعماقه، رافق ظله، تسلل لهواجسه في اليقظة والأحلام، لم يجد منفذا حقيقيا للهرب من السجن الذي فرض عليه طوال فترة وعيه.

خلال عمره المنصرم لم تمتد له يد تعينه على تجاوز جلده، ظلت بالونات صبره تتفجر بصمتٍ أمام عينيه، وآخر تلك البالونات كانت بالونة سعاد، غرائزُ الشبق نفثت من صدره على شكل زفرات وحسرات وأنين. كان قد فرض عليه العمل منذ صغر سنه، ليزيح عن كاهله وكاهل أهله شبح العوز والفاقة، ليدرأ همجية الخوف من المجهول الرابض في فكره ومستقبله.

كان لابد من تدريب ذاته على مواجهة مصاعب الغد، كان أبوه يدرك ضعف صحته وحتمية رحيله، لذا أعده على تحمل الكلفة والتكفل بأخوته وإجباره على الاعتماد على النفس، فحياتهم محشوة بالمفاجئات الغير سارة.. موت والده أثر على مسار حياته، أجبره على ترك الدراسة ليسلك عطفة جانبية غيرت مجرى حياته المستقبلية تماما. أبوه الذي كان يعيله ويعلمه الصبر على الجلد، وتحمل المسؤولية، لم يستمر معه، ركب مركب الرحيل سريعا، لكنه ترك فيهم نخوة وإباءة ومحبة خالصة فيما بينهم كأخوة.

القرية التي راعها في محبته لم تنصفه في حاجته... لذا ركب مركب عقله وقرر مغادرتها لأجل غير مسمى. لم يشعر

بانتمائه الجذري لها سوى بوثاق ذاكرة الطفولة المرة وفترة المرهقة التي عكرت مزاجه، إضافة لوثاق يشده بأمه وأخوته وقبر أبيه.

إذا فكر بالرحيل والبحث عن الكنز في جوف الزحمة، في وسط مدينة مغشية بالمفاجآت، هناك لا بد من أن يجد ضالته، يجد الخرزة المفقودة من سلسلة حياته، عساه أن يتعرف على شكل من أشكال الحياة يميد به العمر ويعضد قواه.. قد يكون الكنز كنزا ماديا، أو جوهرة ما، أو فتاة تعشقه، أو سعادة جديدة تفتح له أفاق الحياة، أو سِفرة مدهونة بالغنى، أو صنعة يتعلمها ويتقنها، أو أو.. أي كار يصلح له شأنه يعبد طريق العودة لأمه وأخوته من تلك الاحتمالات التي يتأملها لتغيير لون جلده الكالح، ليرفع من سقف العائلة في قريته.

ففي الحركة تكمن البركة، في الحركة تطفح احتمالات الفلاح والفرح فوق سطح الخذلان والاحزان، كطفح الزيت فوق سطح الماء. الرزق نهر جار، لن ينال منه إلا من تجرأ خوض مسباره. الشخص الذي تقيده الاضطرابات النفسية وحالات الاكتئاب يحتاج لعقل وحركة وعمل ليتجاوز ضعفه. عليه أن يقذف المياه الراكدة بحجر وعيه ليتجاوز عقدة الجمود، ليتمكن من ترقيع الفتق الحاصل في ظنه. الاضطرابات النفسية هي من أكثر الأمراض المنتشرة في عصرنا ومجتمعاتنا على كل المراحل العمرية وبالذات في ما يخص الشباب منهم.. والسبب لأنهم خائفون جدا من عبث

المستقبل ونيل السعادة، فهم يسعون خلفها بلا تخطيط محكم، وأحيانا يعجز التخطيط مسايرة الظرف. وهكذا تجدهم في صراع دائم مع الزمن، لقلة الخبرة وقلة فرص العمل وقلة السيولة المادية، مما تؤدي إلى إرهاقهم ذهنيا وخاصة إذا ما تبددت أحلامهم أمام أعينهم وهم في حالة عجز من انتشالها.....

الحركة: هي أفضل علاج لإزاحة الهموم وتجديد الفكر، اذا ما تنعم الذهن والقلب براحة، فأن بقية أعضاء الجسد ستنعم بذات الراحة، لأنها تعطل أوامر الأعصاب التي تحفز العصارات الهضمية والسمية الموجودة في البنكرياس والكبد على دفق إفرازاتها، تلك التي تنهك خلايا الجسد. بذا ينتعش الجسد براحة تبعده عن أمراض العصر النفسية.... لقد لوحظ بأن العمل ذات الجهد والحركة كعمال البناء والزراعة أو الحدادة أو الحمالة أو النجارة والرياضيون، أي الأعمال التي فيها جهد بدني وحركي وعضلي كبير؛ هي الأعمال التي تنقذ أصحابها من واقع الأمراض النفسية، حيث دائما ما تكون في الحركة صحة في الجسد وبركة في الرزق، أنها دواء ناجع للقضاء على شتى الأمراض العصرية... على الرغم من أنهم يعانون من جوع وفقر وقلة حظ ومشكلات صحية وبدنية مختلفة، إلا أنهم بعيدون جدا عن الأمراض النفسية التي تصيب الغالبية العظمى من الناس الذين يعملون خلف المكاتب. حيث يستيقظون مبكرين، يتناولون وجبات إفطار سريعة، ثم يقومون بمجهود بدني شاق، والبعض يعمل

كمجموعة متناسقة.. دائما ما ترافق أعمالهم أهازيج واغاني وطرائف ومرح مثلما يحصل مع عمال البناء، هم بذلك يسبقون المرض، فيوصدوا أبوابهم بوجه ريحه.

من هذا الباب بدأ إبراهيم يفكر بأن ينفذ بجلده قبل أن يصاب بكآبة وعجز في الصحة جراء الحظ العاثر والفشل في القرية وقلة الحيلة وقلة المادة والكآبة التي تحدوه، واضعا نصب عينيه أمه وأخوته الذين هم بأمس الحاجة لتصحيح مسار حياتهم ووضعهم المهزوز في القرية وترقية دوافعهم المستقبلية وبناء جدار صد يقئهم شر الفقر والعناء والمادة التي باتت ضرورة ملحة في حياة البشر مع التقدم الحاصل في مجالات الحياة العلمية....

افضل وسيلة لتحقيق احلامك وطموحاتك هي عليك ان تستيقظ من سباتك، وأن تتبع ما يمليه عليك قلبك وضميرك.

الفصل الثالث

1- الرحلة إلى القاهرة

أخيرا دق ناقوس الرحيل، دقت أجراس الحلم الوردي في أعماقه، لابد أن ينسى كي يتحرر من أناه، الحرية لا تباع وليس لها ثمن في الحياة، لا يشعر بها إلا من أفتقدها، متى ما تجاوز حدود القرية سيستشعر بها كباقة ورد تكمل ذوقه واناقته. في الحقيقة هروبه لم يكن من اجل الحرية فحسب قدر أن ينقذ ذاته من شناقة تخنقه. لقد استيقظ على زلزلة هزت اركانه ووجوده وتاريخه في القرية، فالتجأ إلى نبذ ذلك العمق الذي لم يقف إلى جانبه في صراعه مع الزمن في كل المواجهات.

إذا كان قد أتخذ قرارا صائبا، لذا عضدته أمه، أخيرا تمكن من أن يجلد ذاته الأسيرة، أن يضع قدمه على خارطة طريق التغيير، معلنا تحديه لأبجديات التقاليد التي غرست في ذهنه، تحديه لقواعد الأعراف وفتيات القرية والغياهب المجهولة المراقة في فكره وظنه. عندها أدرك بأنه قد نفذ من كوة العقد ودخل في نفق طويل من الصراع مع الجن والشياطين وعفاريت الخيال والوساوس وأراهيط الشك واليقين والتصادم مع الثقافات المختلفة في دروب تأمل شائكة وطويلة، أدرك بأنه لابد من أن يرتد على ذاته في حالة رد فعل عكسية لنبذ مخلفات القرية، على الرغم من محاصرة الأعباء له من كل جانب وبالذات في الوحدة المقيتة التي لا حل لها، تلك التي تقيد عزمه وتشعره بأنه قابع في سجن واسع مهما حاول

التغيير، راقد على بساط حلم بعيد المنال، هميم فكرٍ وعجزٍ وضعفٍ يقيده، ربيب ظنٍ وعناء، طبيب شقاءٍ وكربٍ ورجاء.

لكنه قرر التحدي، ذلك أهم ما في القرار وعليه أن يبدأ بالخطوة الأولى.

بقراره السديد كان قد خرج من طوقه ويأسه كدويبة نفذت من نافذة الشك الضيقة لعالم واسع يغطي على هواجسه ومعطياته، يهجس بالعيون المغرضة تتبعه، تتجسس عليه، عيون الأرض والناس والشجر والهواء والقدر واللبس والعمل والتربة والمساحي والرفش وحتى الترع التي تشتاق لخفق يديه في إصلاح شأنها تراقب ذاته التي قسمت لقسمين، قسم قانط وآخر متحرر. قسم لازب في جحور القرية وآخر طائر رفراف يتبع الظنة، حوارات صاخبة تذكره بماضيه وطفولته وهواه، لا يستطيع أن يسلخ جلده منها إلا بفعل صائب..... في داخل نفسه كان يشعر بذاته كمسمار مصدأ لا يبغى أن ينقلع من لوحة ذاكرة القرية، هكذا كان أسير هواجسه وماضيه، بينما الجانب الآخر يذكره بفشله ويأسه فيزيد فيه همة التحرر.

اصراره على التحدي كان أقوى من حالة القنوط في ماضيه، دافع أخرجه من شرنقة اليأس بعد أن أدى القسم واليمن أمام قوام شخصيته الجديدة بإقراره قراره السليم دون أن يعلم أحد بتوجهاته وغايته. هو لا يدرك تفاصيل حياته القادمة، لكنه يدرك نواياه وغايته، وعليه أن يتبعها ولا يتراجع ليكون جديرا أمام نفسه.

مـزق شـرنقة الأعـراف وذكريـات الماضـي، خـرج بذاتـه كحشـرة لا تعـرف مـن الـدنيا شـيء، لا يعـرف حقيقـة توجهـه، سـار بخـف قدميـه نحـو المجهـول الحائـل برغبـة وصـبر بـازل، الاشـباح تترقبـه، تترصـد خطواتـه عبـر نوافـذ الشـك، عبـر عيـون النـاس المحيطـة بـه، تحاسـبه علـى سـلوكه، تجادلـه فـي نوايـاه، وعنـاده، تعاملـه كفاشـل، كجبـان وناكر جميـل بتجـرده وتجـرءه علـى هجـر عالمـه، تضـع العراقيـل أمامـه، تقيمـه علـى محدوديـة فكـره وتجاربه ومصروف جيبه.

هكـذا عـاش صـراعا بـين الأنـا والـذات، بـين الماضـي والمسـتقبل، بـين قلبـه وعقلـه. الوسـاوس فـي فكـره تنبـع كعيـون شـك مـن وسـادته، مليئـة بـالخوف والظـن والخيبـة والأمـل، والأهـم مـن كـل ذلـك بقـي متمسـكا بـالتغيير، رافعـا رايـة التحـدي، يجـب أن أكـون أو لا أكـون، ظـل يعـيش فـي إحساسـه الـداخلي بشخصـيات متعـددة ومختلفـة كـل منهـا تـوده لجانبهـا، أنـه متلـبس بالشـيطان المرافق لأناه، ومتمسك بالنور لينقذ ذاته من معمعة لا تنتهي.

فـي فتـرة الطفولـة كـان يهـاب **الطناطـل والسـعلوة** لكثـر مـا سـمع عنهـا مـن والديـه، عـن عبثهمـا وجرائمهمـا الخياليـة، وهـي شخصـيات شـيطانية خرافيـة فالطنطـل شخصـية شـيطانية ذكوريـة والسِـعْلاة شخصـية شـيطانية أنثويـة، يتصـفان بأشـكالهم الغريبـة والمخيفـة، اجسـام مشـعرة تشـبه القـرود، الطنطـل لـه القـدرة علـى التحـول لرجـل وسـيم والسـعلاة لـديها القـدرة علـى التحـول لشـكل امـرأة فاتنـة رشـيقة القـوام حسـناء الشـكل طويلـة

القد، مزيونة الهندام تغري الرجل فيتبعها حتى توقع به ومن ثم تفتك به وتقتله. وقد تعجب بالرجل فتميل له ومن ثم تخطفه للنهر وتتزوجه وتنجب منه أطفالا..... يا ترى أتكون وفاء تلك السعلاة التي تبغي وصاله؟ إن كانت كذلك فلا مانع طالما بهذه القدرة من التأثير والجمال، وأكيد ستجلب له الخير وتجعله من الأغنياء الأثرياء.

(هذه الشخصيات تعود جذورها إلى اساطير بلاد وادي الرافدين (العراق) إلى ليليث في ملحمة جلجامش البابلية والتي صفاتها تتطابق مع السعلوة. وليليث كلمة بابلية / آشورية بمعنى أنثى العفريت. ليليث هي جنية أنثى تسكن الأماكن المهجورة وكانت تغوي الرجال النائمين وتضاجعهم وبعد ذلك تقتلهم بمص دمائهم ونهش أجسادهم. وفي التراث العربي تتجسد شخصية السعلوة والطنطل في قصص وحكايات وأساطير الشعوب العربية وقصص الف ليلة وليلة وهي من الموروث الميثولوجي في العراق القديم).

ما زالت هذه الشخصية موجودة حتى الآن في قصص الأدب الشعبي العربي عموما والعراقي على وجه الخصوص. تستخدمها الجدات لإخافة الأطفال من العبث والتأخير في العودة للبيت بعد الغروب أو مصاحبة الغرباء...الخ، في قصص شعبية مسلية. وقد تأخذ السعلوة دور امرأة عجوز لتدخل قبرا وتخرج على هيئة كلب أسود أو غراب، لذا تجد هناك انقباض وكره يمس الغراب والكلب الاسود لدى العرب.

تلك الأفكار جعلت منه أن يحيد في قيد وشك من أن تكون وفاء شخصية خيالية أو شيطانية، وقد يتيه في مسعاه في القاهرة والتي يهاب زحمتها، تلك الحالة جعلته مكبول بحركته وحريته، تسايره رعشة المخاوف من المواجهة المباشرة، أضحى يرى آثر خطوات قدميه تنعكس في مرآة صبره كخطوط تكوين شخصيته العبثية وتبدلها لشخصية جديرة وجديدة في مضمار حياته، الفكرة بمجملها أضحت مجرد خيط دخان، هباء، خيال يصر ذهنه، أضحى روحه حلقة وصل بين شخصيته اللازبة والمتحررة، في الوقت الذي به جزع الظلام وهو يبصر ضوء يقين ينبعث من خف قدميه يحثه على خوض التجربة، يزيد من إصراره على مواصلة التحدي ودرء العجز الكامن بداخله، متخذا من المقولة (من سار على الدرب وصل) دافعا له.

جزل الماضي بالتغيير الذي يتأمله، فما كان عليه إلا أن يسير بحذر شديد كي لا يوقظ شياطين الغل والبؤس وطناطل النكوص وسعلاة الفشل في دروبه العويصة، محملا الذات عذاب الغربة المرة، حيث بقراره أصبح يرى ذاته تسترد هدوئها وعافيتها من بين أيدي سعاد والقرية.

حمل حقيبته البنية الصغيرة المصنوعة من خيوط الكتان على كتفه، كان قد عبئها ببعض مستلزماته الشخصية من أدوات حلاقه وملابس داخلية وبنطلون رمادي اللون، وجلابية مع لفاف من ذات القماش يوضع على الكتف.. أحتضن أمه

وأخوته كامل وبهيه، ووعدهم بالعودة السريعة وتغيير مجرى حالهم نحو الأحسن، وعدهم بمستقبل يرى زهوه خارج أسورة القرية، في رواق المدن التي يحلمون بزيارتها.

كان قد أرتدى جلابيته الرصاصية، أحسن ما يملك من ثياب السفر، عَقد راسه بلفافة رصاصية تدلى أحد طرفيها على صدره، احتذى حذاء مشبك من البلاستك أسود اللون. حمل في جيبه هويته الشخصية وقليل من الجنيهات تكاد لا تكفيه لأكثر من شهر أو شهرين دون عمل.

رغم انه حمل حقيبته ومضى نحو الباب الخارجي ليفلت من قبضة الألفة والقبلية لقبضة الحلم والمستقبل والحرية والوحدة، رغم ذلك وقف طويلا يتمعن بما حوله في الجدران الشاخصة التي رُصِعت بذكريات السنين... رهافة جلدت حضوره وهو ينظر إلى أطياف طفولته وشبابه المراغة أمام عينيه بنظرات يائس حزين، ممزق، يعاني من التشتت، تعتريه إرهاصات قلق وأسى وتحسر، تنطق بها عينيه وملامحه عوضا عن لسانه المخرس...

دخل في صراع بين أن يكون أو لا يكون. هالات الحزن أقفلت ملامحه بأقفال الكبت والعناء، كحلت جفونه بمرود الشقاء، عوائق مجهولة دائرة حول عنقه كحبال المشانق تعيق سعيه، اطياف واشباح ترفأ في أرجاء البيت، تنقله من ركن لآخر، يود أن يتشبع من تلك الذكريات المتمسكة به بنظرة أخيرة لجوجة لحاجياته وذكرياته وطفولته وارتباطه العائلي،

سلسلة أصوات تدور في حلقة أذنيه، هنا ضحكنا هنا تشاجرنا وهناك وهناك ...الخ. تمعن في سريره الحديدي، وفي لوحة سعاد المعلقة قبالة مخدعه المعبئة بشجونه وصبره وعواطفه. نظر إلى الساعة الجدارية التي أذنت له بالرحيل وكأنها كانت خصيمه، تحاسبه على تأخره وشدة ضعفه، قرفت وجوده وتمسكه بفشله.

تمعن في وجه والدته وأخوته والمرافق الملتصقة به، والتي آوته واحتضنته عبر سنين عمره وفترة طفولته، تلك العيون التي تتبع خطواته وهو يحاول أن ينسلخ عنها، تحاول أن تسرق عزمه من قبضة يديه، أن تزيل قرار الرحيل من راسه..

في داخله كان يتمرد على عاطفته نتيجة الفشل الذي لحق به، محاولا تمزيق وشاح بؤسه واكتئابه من على وجهه.. الحيرة عصفت به، أرغمته على الاستسلام وتجنب الرحيل، فيما وجد دفعا قويا من قوة مجهولة ضغطت على زر ضعفه، حثته على كسر مرآة الماضي والمضي قدما بإصرار لا يلين نحو الصبح الجديد.. عزم قوي نبع من سطوة اليأس والفشل خلعه عن مكانه ليدلقه خارج أسوار سجنه، حثه على خوض التجربة وتجنب تكرار الإحباط والهزيمة.

حينها وجد قدماه تخطو خارج البيت بعد أن شدت والدته على يده، بعد أن منحته الضوء الأخضر ليعبر حواجز حزنه

وعاطفتـه، كانـت قـد شـجعته علـى خـوض التجربـة والتحـدي والبحث بجدية عن شخصيته وصيغ التغيير نحو الفلاح.

فـي حقيقـة الأمـر ود أن يهـرب مـن محيطـه الـذي يـذكره بـ الخـذلان والإحبـاط لصـيغة أخـرى أقـل تـأثيرا وصـخبا، لـذا ود أن ينطلـق بخطـوات سـريعة تنقلـه خـارج حـدود البيـت كـي لا يلتفـت للخلـف، حيـث ورائـه تكمـن كـل العفاريـت التـي تـود أن تأكـل مـن عزمه وقراره.

كـان قـد هجـس بـوازع مـا فـي داخلـه يمنعـه عـن الحركـة والمغـادرة، فـي المقابـل كـان هنـاك وازع آخـر يحثـه علـى الهـرب مـن طـوق الفشـل قبـل أن يقـع فـي الفـخ تلـك العفاريـت والمصـائد، لقـد خسـر سـعاد فعليـه أن يبحـث عـن سـعاد جديـدة فـي جـوف الحيـاة. هنـاك شـيء مـا مـن السـحر غـائر فـي جلـد العشـرة مـن ذكريـات حلـوة تكبـل خطـوات قدميـه، وكيـف تهـون العشـرة عليـه وهـو أبـن ريـف؟ فهـذه أمـه وهـؤلاء أخوتـه، وتلـك لعبـه وذكرياتـه تحيط به.

ربمـا قيـود سـعاد كانـت أقـوى القيـود، ربمـا هـاجس الرهبـة مـن منغصـات الغربـة عقـدت سـعيه. فلـم يخـض تجربـة بعيـدة مـن قبـل. والحقيقـة كـان خائفـا مـن البعبـع المجهـول مـن طناطـل وسـعلاة المدينـة التـي لا ترضـى بـه نـزيلا علـى حـدودها، مـن التيـه، مـن الضـياع فـي شـريعة الغـاب، تلـك المخـاوف زادت مـن ظـلال فكـره، فهـو لـم يجـرب الحيـاة خـارج حـدود قريتـه ليشـعر بالأمان.

في تلك اللحظة شفعت له أمه، فهي لا تريده يتراجع عن عزم قرار كان قد أتخذ، والتي تراه قرارا صائبا من وجهة نظرها، لا تـوده أن يعـود لدكـة الفشـل مـرة أخـرى، كـي لا تنكسـر مجاديفـه فـي الميـاه الضـحلة. لازال هنـاك أمـلا ينـبض بالحيـاة قبـل أن تـذبل أغصـانه ويضـيع زمنـه فـي مخمصـة التعقيـد، حثتـه علـى المحاولـة قبـل أن تمـوت فـي أعماقـه حراشـف الرغبـة، قبـل أن يقـوده الفشـل إلـى مـوت بطـيء أو انتحـار... لـذا سـارعت بمـد يـد العـون لـه، أسـعفته أعـادت لـه توازنـه، أعـادت لـه عزيمتـه وثقتـه بنفسـه، أوقـدت سـراج طريقـه حـين قالـت لـه بصـوت الحزم:.....

- هيـا أمضـي يـا جبـان، أمضـي يـا إبـراهيم لا تتـردد فـي سـعيك! دع إيمانـك بـالله قـوي، أن كـل شـيء مقـدر ومكتـوب، ربـك لـن يـدعك تتخـبط فـي سـعيك. أن التزمـت بمـرادك ووثقـت بإيمانـك، سـيفتح لـك أبـواب النجـاة علـى مصراعيها، لا تنسَ صلاتك ودعائك في المدينة.
- أماه؛ أنا خائف من الفشل، تنقصني الخبرة والتجربة.
- أعلـم ذلـك يـا أبنـي، الفشـل يفـتح لـك ابـواب النجـاح، ستتعلم. أن لـم تغـامر وتجـازف لـن تصـل لأهدافك. توكـل علـى الله، بعـد كـل كبـوة لابـد مـن نجـاح، فقـط عليـك أن لا تتهـور فـي تعاملـك، ولا تبـذخ بمـا تجنيـه... لقـد جربـت حياتـك هنـا وجنيـت الفشـل فجربهـا فـي مكـان آخـر ستنجح.
- أدعي لي بالخير يا أماه، دعوة الأم مستجابة.

- الله يوفقك يا بني، دع قلبك دليلك، صدقه، ستنجح في الحياة، لا تتردد، كن حازما في قرارك ستصيب. مع السلامة.
- مع السلامة ...

خرج من الدار يعفر الأرض بخطوات ثقيلة، ينظر إلى تخوم القرية يمينا وشمالا وهو غارق في يأس أعرَّ أعماقه، لهفة تشده لنسائم سعاد الغائرة في بطون الذاكرة ولهفة تحثه على البحث عن سبغة عيش في بقعة مجهولة. تميد روحه هواجس حزن دفينة، حسرات وآهات تعتلي صدره وهو ينظر إلى غيط الأرض في تخوم القرية بشيء من الحسرة، فلم تكن لسعاد في تلك الساعة العسيرة من نظرة وداع ولا ذكر، لكنَّه كان يهجس بطيفها ترافقه، تحوم حوله، فهي حاضرة في خياله، تمشي معه، تتنقل بين الترع والزرع والاشجار كطير ينط من غصن لغصن، كأنها أدركت رحيله فأدركت وداعه.

مشى وحيدا برفقة أخيه كامل في مسرب ترابي يحاذي مجرى ساقية تؤدي إلى ساحة وقوف الباصات في أطراف قرية المراغة. وهيَّ جوبة يتجمع فيها الناس لبيع الضأن والعلف والتمور وأمور أخرى تخص الزراعة، كما أنَّ ذات الموقع تتخطاه الباصات أو العربات الناقلة لوسط محافظة سوهاج، ومنها يمكنه أن يسافر إلى القاهرة بواسطة القطار.

لـم ينتظـر طـويلا وخاصـة ديناميكيـة الـرحلات الصـباحية دائمـا مـا تكـون نشـيطة لكـل فئـات الأعمـال. حينهـا أوصـى كامـل بعنايـة أخته وأمه، أخذه بالأحضان ووعده بالعودة عن قريب.

أخيـرا أرتقـى باصـا خشـبيا مـع مجموعـة مـن المـزارعين، وكـان قـد رافقـه وارتقـى البـاص إلـى جانبـه الشـاب عبدالناصـر، أحـد زمـلاء الدراسـة مـن قريـة المراغـة، والـذي كـان قـد قضـى معـه مرحلـة دراسـية سـابقة. زميلـه المـدعو عبدالناصـر ذاهـب إلـى عملـه بعـد أن أكمـل دراسـته وتعـين فـي القـاهرة بصـفة موظـف فـي وزارة الزراعـة، وقـد أعانـه وأرشـده علـى أمـاكن السـكن والبحـث عـن العمـل بعـد أن شـرح لـه إبـراهيم ظرفـه المعقـد والعقـد التـي لا حقتـه ومنعتـه مـن مواصـلة الدراسـة والكلفة التي لا يملكها بعد وفاة والده.

مـن سـوهاج اسـتقل قطـارا إلـى القـاهرة برفقـة زميلـه عبـد الناصـر، والـذي شـرح لـه الصـعوبات الممكنـة التـي سـيلاقيها فـي القـاهرة مـن مشـاكل سـكن ومعانـاة قـد تصـدمه، وضـح لـه المنـاطق المفضـلة والرخيصـة للـذي يبتـدأ مشـوار حياتـه فيهـا، بـين لـه أمـاكن السـكن المناسـبة للـذي يـود أن يبتـدئ مشـواره فـي القاهرة.

كمـا بـين لـه أسـعار السـلع والمطـاعم بشـكل عـام، ذكـر لـه أسـماء المنـاطق الشـعبية التـي مـن الأفضـل أن يتواجـد فيهـا لرخصـها وكثـرة مجـالات العمـل فيهـا وجنبـه المنـاطق الموبـوءة والمنحلـة. بسـط لـه المجـالات السـائدة للعمـل والتـي مـن الممكـن أن يفلـح بهـا

كمرحلة أولية في مواجهة غربته حتى يعرف خفايا السوق ونوعية البشر الذين سيتعامل معهم. كما حذره من عمليات النصب والسطو الدائرة في تلك المناطق وتجنيب ذاته الزحام والتأخير في الليل .

في محطة رمسيس في القاهرة كان لابد من توديع صاحبه عبدالناصر الذي أفاده كثيرا بمعلومات قيمة سجلها على ورقة محتفظا بها، تعتبر مفاتيح الأنسان الضائع والتائه في مبدأ خطواته الأولى، وقد يسره الله له في أول مشواره، وكانت بادرة خير واطمئنان لإبراهيم بأن الله لن يتخلى عنه تصديقا لمقولة والدته.

والحقيقة لا أعرف كيف أفسر الحالة ولكن حين ينوي الأنسان على شيء ما فيه خير لأجله ولأجل آخرين من بعده، فأن الأمور تتيسر أمامه ديناميكيا.. وأعد تلك الحالة إلى ما تسمى بالباراسايكولوجي في التفسير العلمي، وهو علم النفس الموازي لدراسة الظواهر الفيزيائية المزعمة بالعلاقات الخاصة، مثل حالة الإدراك خارج حدود الحواس، كما في التخاطر والاستبصار والجلاء البصري والتحريك العقلي المعروف كذلك باسم التحريك الذهني والقياس النفسي وادعاءات الخوارق، مثل تلك الحالات المتعلقة بتجارب الاقتراب من الموت والتزامنية وتجارب التجلي.... إلخ مما ندعوها احيانا بالحاسة السادسة أو السابعة أو الثامنة ...الخ من حواس تتعلق بروح الفرد وتخاطر عقله.

أعد تلك الحالة رحمة من الله ﷻ. حيث يجد الأنسان نفسه خاضعة لطاقة مجهولة خارجية تسيره، أو معجزة ما تستقرأ فكره فتوجهه لأهدافه بيسر غير متوقع تيسر له أمره. كظهور عبدالناصر بحياته.

قوة خارجيه لا يعلمها إلا الله، تعينه على تجاوز مراحل الصعاب ولحظات العجز والقلق، ليبسط له سراطه المجهول يزيح عن كاهله كرب الهجرة وعقدها. أو كإطلالة وفاء بصورها التي أغارت على قلبه وحظه في لحظة ضعفه وعجزه وانكساره، حتى تمكنت من إحلال سطوتها عليه وعلى سلوكه تماما، فزرعت في فؤاده طمأنينة وطاقة إيجابية من المحبة الجديدة خلعته عن جذور قريته وعن أصرة سعاد.

تواجد عبدالناصر في حياة إبراهيم ليس صدفة بل فعل مسير. من حرك عبدالناصر ليسافر مع ابراهيم في تلك الساعة هو الذي أوعز لإبراهيم بالالتفات لصور وفاء لينقذه من حالة اليأس، وبذلك أفسر الحالة بأن إرادة البشر مسيرة من قبل المطلق وليست مخيرة.

أمسك إبراهيم برأس الخيط مثلما وصف له عبدالناصر، مضى يبحث عن قدره وسط الأشواك والثعابين والعقارب والوحوش المفترسة الدائرة في شوارع القاهرة، والتي سوف يتعامل معها بالتماس المباشر وغير المباشر، بالرضا وعدم الرضا، بالين والقسوة على حساب مصلحته الخاصة، وبشيء

مما يحمل من طيبة والنية الصادقة التي يتحلا بها أبن الريف بأخلاقه وقوامه وطبعه وبحذر مكفول.

ليس سهلا أن يغير الشخص من كيانه وسلوكه وجلده في ليلة وضحاها، فالمبادئ التي تربى عليها تختلف كليا عما سيلاقيها ويتعامل بها مع أسلاف المدينة، تختلف في عمقها وأبعادها باختلاف النية التي جاء بها، وبالقدر الذي تتغنى به مبادئه، وبالقيم التي يتحلا بها. تلك التي لن يجد لها مثيلة في المدينة أبدا، نيته لا تشابه نيات أهل المدينة لا في اللون ولا في القيمة ولا في أعماقها وأبعادها، قيمه معلبة بطبيعة وكياسة أهل الريف..

كان تفكيره العاجز منصبا على كيفية مواجهة هذا الجدار الصلب الذي يجب أن يخترقه كسهم نافذ ليصيب حلمه، ليتمكن من أن يعيش وسط أهل المدينة بشموخ ودون ضرر. لقد فاضت مشاعره بمكنون ما حملت في سيلها من قدر وفكر وارهاصات لوسط أسواق القاهرة، وخاصة الشعبية منها. تلك التي سيتعامل معها بشكل مباشر ودون حجاب يستر عوراته، أنها **المدينة والمَدَنية** الملبكة بالمجهولية، كنادلة الملاهي مكشوفة الصدر والسيقان تغري المعن إليها، واسعة كالبحر؛ تحوي كل أنواع الأسماك الناعمة والمفترسة، لا تجد فيها قارب نجاة يرفأ بك إلا عقلك.

المدينة لا تحتاج إلى مال توظب ذاتك فيها فحسب، بل إلى دراية وخبرة وإدارة الأموال وعنجهية وفكر متفتح، تحتاج

لخبير يعرف أصول وقواعد التعامل الأساسية، وقراءة الوجوه ومعرفة احتماليات النصب والاحتيال و.....الخ.. كي لا يقع فريسة تلك الوحوش الجشعة التي تتحين الفرص لتسرق الومضة، عليه أن يتوخى الحذر كما أوصاه زميله عبدالناصر، عليه أن يحسن تعامله مع الآخرين ويحسن اختيار الرفقة.

بعد توديعه لعبدالناصر أستقل توكتوكا متجها لمنطقة الحسين الشعبية حسب توجيهات صاحبه، وقد نالـه أعجاب البنايات والعمارات وجمال الطرق المعبدة والحدائق النضرة المنتشرة وزحمة الأسواق الوفيرة التي مر بها وعبرها لمكمنه. كان في نيته أن يجوب كل تلك الأماكن حتى يتشبع منها ومن جمالياتها، وأن يستلذ بحسن ورقة فتياتها وسطوة نهر النيل على معالم المدينة وهو يمر في وسطها كفتاة سفور رشيقة القوام والجاذبية.

في طريقه لمنطقة الحسين، أغرته تلك مناظر والشوارع المزدحمة والبنايات الشاهقة، فكر في قرارة نفسه أن يستقر بها ويتزوج منها، هذا ما جال في ظنه بعد أن خطت أقدامه شوارع المدينة، وخاصة إذا ما عمل بإتقان ونجح في إدارة عمله وأستطاع أن يكسب رغيف يومه من عرق جبينه، بعيدا عن سلسة العقد والتقاليد التي خطفت سعاد من حضنه.

حط الرحال في منطقة الحسين وأستقر في لوكاندة **"الكلوب العصري"** بموقع متميز إلى جوار المشهد الحسيني، إضافة

لموقعه فأنه يتميز برخص الأسعار، ومعظم الذين يسكنون هذه الفنادق هم من النوعية الرديئة للغاية من البشر، لفقر ما أو لعقدة ما حثتهم إليه، لذا لجأوا لاستخدام هذه الفنادق كملاذ لفترات طويلة أو قصيرة حسب متطلبات الحالة، كي لا تثقل الحياة كاهلهم ماديا على الأمد البعيد.

كان للفندق فيما مضى ملحقا يمثل قاعة سينما ومسرح عفا عليه الزمن، ولكن مازالت آثار المسرح باقية وذكرياته موجودة من صور وأسماء دشنوه في حقب سابقة معلقة في ركن من المكان. كان قد وقف على خشبة هذا المسرح كبار مطربي الثلاثينات والأربعينات أمثال فتحية احمد، ومنيرة المهدية، ومحمد عبد المطلب يقدمون وصلاتهم الغنائية ويحيون ليالي بهيجة من الطرب الأصيل لكبار الأعيان، وتجار القطن وأثرياء الحرب من المصريين الذين كانوا يعملون مع الجيش البريطاني.

وبسبب التغيرات الاجتماعية والاقتصادية لم يحتفظ الفندق على زهوه ومستواه فتحول لفندق شعبي، وتحول المسرح والسينما إلى أطلال ذكريات لم يتبقَ منهما سوى مكتبة يديرها صاحبها.

بعد أن قطن إبراهيم الفندق، تمكن من التعرف على زبائنه الدائمين من خلال جلوسه الدائم بقاعة الضيوف متفرجا على التلفاز، بطريقة ما فضولية تقرب البعض منه لفهم لغزه، أو لغرض أبصاره وإعانته على أيجاد عمل ما يسترزق منه.

الحقيقة همْ من تعرفوا عليه لغرض في نفس يعقوب. كما تعرف على قصص البعض منهم، وقد أستغرب وفاضت به الأهواء لأثارتها حين قارن مشكلته ونفسه بعقدهم ومشاكلهم؛ وجد قضيته تافهة وقصته لا ترتقِ لفداحة قصصهم بشيء.

عند اكتشاف غشمته كونه مستجد على أجواء القاهرة! حذره صاحب الفندق من الاختلاط بهؤلاء اللمّة، إلا أنه لم يجد مناص من صحبتهم وخاصة حين وجد نفسه وحيدا، غريبا بينهم. هم عادة يتجمعون بعد المساء كألفة وأفراد في الصالة لمشاهدة التلفاز وشرب الشاي والسمر خلال فترة السهرة المسائية من كل ليلة، فأستغل تلك الحالة وأندمج مع البعض منهم.

وكان قد أستمع لقصص البعض الغريبة في فحواها، من خلال جلساتهم المسائية المتكررة في صالة الفندق وهم منشغلون في صرف أوقاتهم بمشاهدة التلفاز الذي لا يكل عن نقل الأخبار الناشفة ذات اللون القاتم والرمادي منها، وخاصة أخبار الحروب والحرائق والقتل والتشرد والاغتصاب التي صارت من الأخبار الشائعة اليومية المستحوذة على النشرات الإخبارية ومن ثم مشاهدة فلم عربي نهاية المطاف من الافلام التي تنقل واقعهم وتجدد عزيمتهم في ممارسة من يفطنون عليه من الألاعيب تجلب لهم الارزاق، حيث دائما ما تجد في تلك الافلام ما تغوص في عمق المشاكل والتي الكثير منا غافلا عنها..

أحد النزلاء وهو مهجن يتصنع في حديثة لهجة بدوية ركيكة ليخفي حقيقة هويته عن الملأ، يدعي بأنَّ رأسه مطلوب من قبل مخابرات إحدى الدول العربية المجاورة، يدعي أنه معارض سياسي لحكومته التي تبحث عن رأسه بين زحمة العقد، قد يكون أحد القياديين في جبهة المعارضة دون أن يكشف عن حقيقة نفسه، أحيانا تجده يبع السبح والمحابس في بسطية وأحيانا يبيع أحذية الاطفال يتنقل بها بين ازقة الحسين.. لقد قطن في هذا الفندق منذ خمسة أعوام وهو ينتظر ظهور القمر في ليله الداجي، يرتدي ملابس بالية ليبعد الشك عن نفسه، أو يتخفى بها ليبعد الشك عن مجالات تحركاته ضمن فريق المعارضة، خافيا نفسه في هذه الأزقة المزدحمة بعيدا عن أعين العناصر المخابراتية.

وهناك شاب يؤكد على أنه هارب من قضية ثأر، هجر عائلته التي تسكن في صعيد مصر، هرب من مجتمعه بعد أن تهم بقتل شاب من عائلة أخرى، تتلخص قضيته باحتدام نزاع عتيد لم ولن ينتهي بالتراضي، جراء خصومة خصت عقد تجلت حول قطعة أرض مشتركة بين حقلين أدعى كل من الفريقين أحقيته بها.. لذا هاجر ليتخفى في دياجير القاهرة خوفا من شظايا الثأر التي لا تحمد عقباها.

شابا أخرا مهووس بالجنون، أقنعه صديقه ببيع إرث عائلته من التركة التي خلفها له والده والعمل بالتجارة، وذلك بعد أن أقنعه بالنزوح للقاهرة وخوض مبدأ التجارة، هكذا زرع في

ذهنه احلام الغنى الوردية حيث أمل عائلته بالفردوس، ليدخل في متاهة الجب والنصب والاحتيال في مسلك التجارة، كان قد عرّفه على شلة من الأفراد ذوات النفوذ والخبرة ليساعدوه في أنجاح مشروعه الذي سعى إليه، لكنه صدم بنية صديقه وعصابته الذين تمكنوا من سحب كل أمواله ثم اختفوا جميعا خلف دائرة الضوء بغمضة عين، فلم يجرؤ على العودة إلى أهله بخف حنين، بقي يتسكع ويدور في دوامة البحث عنهم كالمجنون بعد أن أصبحوا أثرا بعد عين، لا يعرف لهم مسلكا ولا طريقا في متاهات القاهرة المتشعبة، وقد تعاملوا معه بأسماء مزورة.

أب مسكين ترك عمله وجاء إلى القاهرة يبحث عن أبنته التي هربت من البيت بعد ما بهرتها أضواء القاهرة وذلك قبل ثلاث سنوات، ومن يومها وهو يقيم في هذا الفندق دائرا في مطحنة البحث بين ملاهي القاهرة ومطاعمها ومراقصها، حيث يخرج صباحا ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، دون أن يرتقي بحثه إلى قناعة تجله لها، وفي نهاية اليوم يعود إلى غرفته الرثة خالي الوفاض مهووس بالشجن، الحزن يتقطر من شكله وجبينه كالعرق المتصبب من جبينه....أنه يخفي في داخله سر قصتها وهروبها دون أن يبوح بها، قد يكون هو سبب تشردها، لذا وجد في أعماق ضميره ما يؤنبه ويذله، تلك هي الدية التي يدفعها كل يوم لعجرفة ما جاهرها بها في لحظة غضب، أودى بها إلى الهرب. قد يكون أجبرها على

الزواج من رجل لا تحبه أو من رجل يكبرها سنا، هكذا العقد تولد من لا شيء، وهذا هو جزاء معلق بعنقه وسوء قراره.

من خلال الفندق تعرف على بعض زبائن الفندق الذين وجدوا أنفسهم من رواد متابعة الأفلام والسهرات، هؤلاء الذين تولعوا بأخذ الحشيش والهيروبين على مضض لينسوا مصابهم واحزانهم وعُقدِهم التي اضحت كسخام القدر ملتصقة بهم، وبعد أن قارن قضيته بقضاياهم العويصة؛ حمد الله، حيث واقع هجرته تحمل صفة عاطفية أكثر من أن تحتمل صبغة أخرى دميمة. فلو تزوج من أحدى فتيات القرية ما كان قد فكر بالهرب والهجر، إلا أنه وجد نفسه أسير عواطفه وفشله المتكرر، إضافة لعقد والده التي علقت به ولصقت بأسمه، وجد ذاته ملاحَق من قبل تلك المنغصات التي أبهرت أسمه بين السن أبناء القرية وفي أتونها، خاصة بعد أن تجاوز سن الخامسة والعشرين من العمر ولم يحظى بشريكة تسعد حياته، وتلك الحالة على ندرتها بين ابناء القرية تعتبر عجزا ولغزا مبهما، شكلت في ذهنه عقدة دائمة تذكره بالفشل.

وما أن وطأة قدمه العاصمة أحب شعشعة الحياة في ازقتها واحيائها، تولع بروحها المتجددة منذ اللحظة الأولى التي وثبت قدمه أرضها واسواقها. لم يستطع تغيير دفة قراره والعودة مرة أخرى لأحضان القرية أمام كم الفرص التي من الممكن أن تتفجر أمامه وتنقله لعالم أحلامه بلحظة غفلة، الغرائب والعجائب يمكن إيجادها هنا وبيسر وهي التي

سترشده وتعينه وستأخذ بيده للخروج من النفق المظلم، وخاصة بعد أن وجد تأييدا من قبل والدته وزميله عبدالناصر على تغيير نمط عيشه، وعليه الاستفادة من تجارب زبائن الفندق الذين تعرف عليهم.

في القاهرة وجد الفتنة مبثوثة في طرقه، تلك التي يبحث عنها متوفرة وبغزارة، بهرته أضواء المدينة بالسحر المراق في شوارعها المزدحمة الواسعة، تلك الفاتنات اللاتي يتمخطرن في الأسواق كحمامات مزهوة، كزهور ربيع متنوعة مبثوثة.

أدرك بأن الألق والسحر متناثر في طرقه هنا وهناك، كل الاماكن تشع بنور وقبس فتن النسوة ذوات العيون العداء والشهلاء والكحلاء والحوراء، مثلما تفيض بكم هائل من الاعمال التي يمكنه أن يمارسها لتغيير واقعه، وهذا التغيير ينسيه لغط سعاد والكبت المشاع في القرية والأذلال المتكرر الذي عانى منه طويلا دون أن يجد حلا لنفسه في تلك البقعة التي لازمته وكبلته بالذكريات المريرة.

2- عبدالمنعم العاصي وأم سامح

في بداية مشواره بالقاهرة أعتمد إبراهيم على السيد "عبد المنعم العاصي، وهو رجل أربعيني من أهل الشرقية يسكن في ذات الفندق. رجل نحيف القوام حاد النظر، جازم، يكاد أن يجزل شخصيات القاهرة في شخصه، للباقته وحذاقته وفطنته وسرعة بديهيته وعلومه، كان يمكن أن يكون في موقع أفضل من الذي هو عليه لو أراد ذلك؛ لكن سر ما لم يستطع أن يكتشفه إبراهيم كان وراء تمسكه بهذا الفندق الكئيب.

من خلال لقاءاته المتكررة به أعجب به ومن ثم وثق به، لسنه وشطارته وعلومه ولباقته، كان في عموم سلوكه فكيها جذابا صاحب نكتة، هجس فيه الأمان والاطمئنان، قدّره في ظنه المنقذ الذي يمكن الاعتماد عليه في معرفة خفايا واسرار دروب القاهرة العويصة، يمكن الاستناد عليه في تخطي عقد العمل وزحمة المعيشة حتى تتفتح عيونه المغمضة، حتى يتعلم خفايا المدينة وعقدها. يمكن أن يستند عليه في حالة تعرضه لأزمة ما أو مشكلة تعيق سعيه فيلتجئ إليه كمنقذ لحل أزمته، خاصة أنه مقطوع من شجرة لا يعرف أحدا في القاهرة يعينه. هكذا الامور تجري في المناطق الجديدة تحتاج لحائط يستند عليه وقدر يشد أزره، وقد أعتبر عبدالمنعم هو القدر والجدار الامثل لمرحلته القادمة.. كان قد أتفق معه عبدالمنعم على تسليمه مفتاح العمل والنجاح مقابل أن يوفر له مصروفه اليومي من مأكل ومشرب وأجرة فندق لتسليك امره.

لقد تمكن عبد المنعم العاص بحذاقته ولباقته وبروح الفكاهة والنكتة التي يتصف بها من كسب ود إبراهيم لجانبه وفرض سيطرته عليه. وجد فيه ورقة يا نصيب رابحة جديدة يمكن استغلالها لمصلحته وفرض شروطه ورزقه عليه لفترة قادمة تخفف عليه أعباء المعيشية ومصروفها الثقيل، فهو يدرك ذاته كالبكتريا يعيش على أجساد الآخرين إذا ما وجد الفرصة متاحة أمامه وها هي واضحة في شخص إبراهم وضوح الشمس..

فكر أن يستغل إبراهيم لصالحة لفترة قادمة، مقابل نصح بسيط يسديه إليه، يعرفه على مجالات العمل المتاحة في اسواق القاهرة الشعبية وعن مصدر اقتنائه البضاعة التي يتاجر بها. إن دامت الحالة على خير فهو في عز ونعيم وبركة، وأن لم تدم فأنه في المقابل لم يخسر شيء، وفي كل الاحوال أنه باقٍ بذات الفندق كزبون دائم لأجل غير مسمى، ويكون بذلك قد جرد نفسه عبء مصاريفه اليومية لفترة قادمة قد تطول به مع جدلية بقاء إبراهيم وفي التعامل مع الواقع. إذا وجد باب رزق يديم عليه راحة البال لأجل قادم دون أن يجهد نفسه أو يصرف مليم واحد من جيبه. فقال له:.....

- يا إبراهيم؛ أعتمد عليَّ يا أبن الأصول، أنت غشيم عن القاهرة أبن ريف لا تعرف خفايا واسرار المدينة ونوايا الناس، ستأكلك الذئاب وأنت قابع في سريرك هذا، أنظر لهؤلاء الزبائن، سيكون حالك كأحوالهم،

أسمع كلامي واتبعني، سأضعك على جادة طريق الصواب، في مأمن من المتلاعبين والنصابين واللصوص والنشالة لتتعلم المهنة وستشكرني فيما بعد.

بعد أن استمع اليه وقارن كلامه مع تحذير مدير الفندق؛ وثق به وسلم أمره له قائلا له:.....

- وأنا من يدك اليمن ليدك الشمال، كلامك صح 100% وأنا وثقت بك لسنك حلة وطيبتك واضحة وخبرتك جليلة.

أخذ عبدالمنعم بيد إبراهيم لتاجر بالات من معارفه كان بينهما اتفاق مسبق، وهناك أتفق معه على صيغة المبدأ، ليضمن حقة ومصروفه الجاري من قبل إبراهيم، كان قد طلب منه كتابة مستند ضمان، به يضمن حقه في حالة عدم وفاءه أو تنصله أو تهربه من الاتفاق المبرم، لذا فرض عليه كتابة السند باسمه وعلى نفسه وعلى أن يدعي فيه بالتالي....

.... أنّيَ السيد إبراهيم خليل المراغي مدان إلى السيد عبد المنعم العاصي بمبلغ 1000 جنيه بقيت بذمتي مقابل صفقة تجارية من بالات الملابس المستعملة كنت قد حصلت عليها منه، وقد أبرم الاتفاق على أنَّ للسيد عبدالمنعم له الحق برفع دعوة قضائية ضدي في حالة تنصلي وعدم تسديدي المبلغ له

خلال مدة ستة أشهر من توقيع العقد، أو إذا أخليتُ بأحد شروط الاتفاق معه.

..الاتفاق نص على أن يوفر إبراهيم لعبد المنعم مصروفه اليومي من مأكل ومشرب وأجرة الفندق، مقابل أن يعينه عبد المنعم على شراء ملابس البالات من تاجر مخصوص بتخفيض مقصد على أن تكون عملية الشراء بحضوره.. وهو اتفاق شفهي غير مكتوب، وكان عبدالمنعم قد جمل صورته أمامه صاحب شأن وعلاقات متشعبة، بالغ بتعريفه ذاته وعلاقته بالتجار عن قرب، رسم له شراكته وقرابته بأحد تاجر البالات، بحيث التمس إبراهم هذه العلاقة من خلال الملاحظة التي اقنعت إبراهيم بقدرات عبدالمنعم الفذة في امكانية مساعدته.

ومن شروط الاتفاق أيضا أن يدل إبراهيم على مناطق صرف البضاعة في المناطق الشعبية من أحياء القاهرة ويجنبه الأماكن الممنوعة ومحاسبة البلدية. بذلك يكون قد أوضح له معالم المدينة وعرفه على شوارعها المزدحمة ومناطقها الشعبية وكيفية الوصول إليها، ووضح له طريقة العمل والتعامل مع الزبائن. أنها المنفعة المتبادلة.

بعمله هذا كان قد أستفاد عبدالمنعم العاصي من إبراهيم مصروفه اليومي وأجرة الفندق، وأستفاد من التاجر عمولة على كل صفقة شراء تتم بينه وبين إبراهيم.. أنه سمسار وصاحب خبرة، يعرف من أين تأكل الكتف. كما أستفاد

إبـراهيم مـن عبـدالمنعم خبـرة السـوق وفرصـة العمـل، والتعـرف علـى حيثيـات العمـل كمبتـدأ، تجنـب مشـاكل المدينـة والبلديـة وعـرف طبيعـة مبـدأ التجـارة التـي لا يعـرف عنهـا شـيء، كمـا تـوخي عمليـات النصـب التـي تـدور حولـه، خاصـة بعـد أن سـمع قصـص النصـب وتحـذير صـاحب الفنـدق لـه وتلـك المشـاكل التـي استمع لها من بعض زبائن الفندق..

علـى ضـوء ذلـك بـات يتبضـع مـن "سـوق الوكالـة" ويـذهب ببضـاعته إلـى "سـوق العبـور" أو لميـدان التحريـر حيـث يتخـذ زاويـة مـن السـوق مـع بـائعي الخضـار والباعـة المتجـولين ليصرف بضاعته هنا أو هناك..

لقد وجد باحـة صـغيرة فـي كـل شـارع يرتـاده لصـرف بضـاعته، كمـا وجـد فـي أحـد أركـان شـارع العبـور مرتعـا لـه، صـار يـركن نفسـه فـي تلـك الزاويـة كـل يـوم مـع حلـول الفجـر وحتـى يحـين المسـاء، أسـتمر بعملـه هـذا فتـرة شـهر تقريبـا دون انقطـاع وجـد فـي عملـه متعـة وهـو يشـترك مـع الوجـوه العـابرة بشـيء مـن الوجـود والتعامـل الـذي يكسـبه الخبـرة والدرايـة فـي كيفيـة صـرف بضاعته...

خـلال أيامـه الأولـى وجـد متعـة فـي عملـه ورزق جيـد يـدخره، وجـد ربـح يغنيـه عـن منغصـات القريـة، خـلال تلـك الفتـرة الـوجيزة كـان قـد رَبَـحَ مَبـالِغْ لابـأس بـه، أنهـا البدايـة، أول المشـوار، حتمـا القـادم سـيكون أفضـل.. تشـجع علـى مواصـلة العمـل شـاكرا صـاحبه عبـدالمنعم علـى تسـليك دربـه بخبرتـه،

تفتحت عيناه على السوق، صار يعرف الناس ماذا تريد وماذا تلبس. صار يعرف بذاته ماذا يأكل ويلبس، حتى تمكن من ترك الجلابية لأنها لا توائم طبيعة العمل الذي يقوم به ولا طبيعة المدينة تتقبل ذلك كونها تجلب له النظرة والمصيبة والنصب. لذا لبس بنطلون جنس وقميص أبيض مما يبيع من ملابس البالات، بذلك تغير شكله وصار مظهره قريبا من مظهر أهل القاهرة ليتمم اندماجه بالمجتمع، لقد أخذ بنصح صاحبه عبدالمنعم منذ البداية...

في الحقيقة استمتع بالعمل حتى صار لا يبغي ترك مكانه إلا في ساعة متأخرة من الليل وبالذات أيام العطل، بذات الوقت استمتع بالوجوه العابرة وبالذات النسوة منهن اللاتي يتعاملن معه على البضاعة، ومعروف بأن مدينة القاهرة لا تنام للحركة التي تجوبها والزحمة التي تأممها، ذلك ما أبهجه وجعله يتمسك بالغربة التي صار جزء منها ويعيش حالتها.

....لكنه وجد نفسه في نهاية المطاف أشبه بالعبد المُسْتَغَل، فلا فرق بين ماضيه وحاضره، عندما كان يعيش في القرية كان يعمل ويزرع في أرض والد سعاد وحسب الاتفاق المبرم بين والد سعاد ووالده، هو العمل في أرض والد سعاد مقابل توفير السكن واربعة دونمات له يزرعها ليعيش عليها. وبذلك كان عليه الالتزام بتلك الشوط حتى بعد وفاة والده أو أن يعفوا عنه أبو سعاد.... وحين قارن وضعه في القاهرة بوضعه في القرية وجد ذات الحصيلة، وجد ربحه من عمله لا يتعدى

سوى قشور الربح أمام الهبرة التي يلهمها منه عبد المنعم، فلا يجد في ربحه بركة ملموسة تقيم عمله.

كما أنه بين الفينة والفينة صار يهف به الشوق لمخاطبة وفاء، فيجلس في أوقات فراغه يشحن ذاته بعاطفة من الخيال رغم الفارق الزمني وسعة المسافة بينهما. كانت وفاء قد أرخت له حبل الود، جاملته عدة مرات حتى زرعت الرغبة والامل في نفسه والثقة في يقينه. وفاء أبنة كار ذات خبرة في التعامل مع الزبائن كما اسلفنا، فيما هو يتسكع بعاطفته في شوارع القاهرة وبين الزبائن من النسوة الاتي يتبضعن منه..

لذا وجد في وفاء خيط أمل تشبث به، قد ينتشله من واقعه المزرى لواقع حلم بات يكبر في ظنه، قد يوصله لغايته المرادة، تلك التي توسعت أفقها مع وجود وفاء في حياته، ابيضت احلامه وازرقت سمائه واخضرت ارضه، تبدلت احواله وباتت الغاية قريبة المنال، فالوصول لمرفأ وفاء وقلبها وإمكانية ممارسة العمل في أبوظبي مستقبلا بات هدفا يسعى اليه. إذا توسعت آفاق حلمه حتى وصلت به ادراجه الاخيرة في مخيلته، بانت أهدافه واضحة كنجوم تتلألأ في فكره؛ حيث وجد فيها الهدف المادي والعاطفي معا.

هكذا نمت في ذهنه فكرة الهجرة لأبوظبي والعمل بها لتحسين وضعه المادي، ومعلوم حجم الاقتصاد المطروح في اسواق ابوظبي وانشائها التي ترتع بأعلى مستويات الصرف المتقدمة والعالية من الرقي والبناء والتطور المادي والفكري بين المدن

قياسا لأوضاع مصر المكبلة بحشد الديون وحالات الفقر السائدة والعامة.

مع كبر حلمه زاد محبة وشوقا لوفاء وهو الذي لم ينقطع عن مواصلتها ببرامج التواصل الاجتماعي، حيث صار يتصل بها كلما وجد الفرصة متاحة له.

مع كبر أهدافه توسعت تطلعاته، أضحت لها أجنحة تنقله لأبعد نقطة ممكنة، بعد أن وجد الفرص متاحة في القاهرة وبإمكانه مجاراة الفوضى الدائرة فيها. لقد عاش بها شهرا ونصف إلى شهرين من الهدوء والقناعة أنسته هموم القرية ومنغصات سعاد، وكل الفضل في ذلك يعود إلى وفاء التي بسحرها فتنته وانتشلته بالوقت المناسب من هوة عجزه وإخفاقاته.

من يومها صار يتطلع إلى تسلق السلم وإدراك خيرات الخليج وبالذات مدينة أبوظبي الجميلة كونها أيقونة مدن الخليج واكثرها إبهارا وتقدما، والتي ستوفر عليه عناء السنين السابقة من فقر وجور الـمَّ به إذا ما أستطاع الوصول إليها. طالما وفاء تسكنها، حتما ستساعده ليلتقي بها لتتعرف عليه ويتعرف عليها وعلى مجالات العمل هناك..

إذا أضحت أبوظبي إلى جانب وفاء هي الغاية وشعاره على المدى الزمني القادم. علق فيهما روضة هيامه والق مستقبله، يمكن أن يرتع بها عمره القادم إذا ما وافق حظه تطلعاته،

ليخف من وطأة العذاب وعناء الزمن والوحدة التي جلدته طوال سنين عمره الماضية كما يمكنه انتشال أهله من براثن القرية وتحسين وضعهم المادي.

كانت وفاء بطاقتها الكهرومغناطيسية قد جلدته، جردته من ماضيه، فتعلق بها تعلق المتيم، كانت قد شذبته بفتنتها وشحنته بطاقة إيجابية نحو التغيير، رفعت عنه ضغوطات القرية وقوانينها وضعفه وانكساره بلتعة الأنوثة التي تفيض بثناياها؛ حثته على ديمومة التواصل معها ومحاولة الوصول إليها والتفكير الجدي بالارتباط بها والعمل في أسواق الخليج.

خروجه من جحور القرية جعله يطور من تفكيره وأهدافه ويتوسع بغايته، حيث الغاية تكبر مع توسع مجالات الفرص، ومن المعروف للجميع مقدار الصرف والبذخ والعملة التي سيحصل عليها في ابوظبي إذا ما قورنت مع العملة التي يحصل عليها في القاهرة، حتما تفوق ما يحصل عليه في مصر بأضعاف القيمة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار قيمة العملة في الحسبان ودخل الفرد السنوي مقارنة بمصر.

لذا أرسل لها رسالة من برنامج "الواتس أب" قال فيها:..

- الو... كيف حالك يا غاليتي، أنا مسرور بتعرفي عليك وأنا دائم التفكير بك صباح مساء، أرجو أن تكوني بصحة وعافية وأن تفكري بي بقدر ما أفكر بك..

إبراهيم – القاهرة

جاءه الرد بعد ساعة تقريبا بالشكل التالي...

- .شكرا لك على سؤالك، فعلا أنا أيضا أفكر بك، لكن أنا الآن مشغولة أرجو أن تكلمني في وقت آخر بعد يومين أو ثلاثة.
وفاء - أبوظبي

رغم الارق الذي هو فيه ومتاعب العمل والتجربة الجديدة التي يمارسها باحتكاكه بمجتمع غريب عنه، ورغم فراق أهله والوحدة وكل الاشياء الحميمة؛ إلا أنه شعر بسعادة آنية لرسالتها التي في فحواها أمل كبير على تقريب وجهات النظر والهدف، شعر براحة نفسية في أعماقه، الرسائل حفزت ذاته نحو الحركة، مادت به نحو البحث عن غد أرقى ماديا وأعمق عاطفيا، بات يرى أفق طرقه معبدة نحو غاية يتوخاها، يترجاها، يتأملها أن تنقله لمصافي الحلم.

صار يتصل بها بين أسبوع وأسبوع ليخفف من وطأة الشوق الذي باتت تشتط بأوصاله، وهكذا دامت أيامه على رنة دقات القلب ورجاء الصبر والامل المعنى، بين يأس قانت ورجاء مموه وحلم سادر لا يمسك بأذنابه.

خلال وقوفه الطويل كل يوم في ركن من أركان سوق العبور الذي يغص بالباعة والمتسوقين، حيث الوجوه تتغير أمامه باللحظة التي ترمش بها عينيه لشدة الزحمة، فلا يسمع سوى

دوشة الباعة وصخب المارة وأبواق السيارات الزاعقة.. وكأنه يعيش حلم بعد تلك القطيعة من الهدوء التي تعود عليها وهو يستمتع بزقزقة العصافير وهدل الحمائم وفرفشة الطيور العابرة من وز وبط وحباري في شجون القرية. تلك الفراشات المارقة بألوانها القزحية الزاهية بين جدائل الأشجار من توت ورمان وحمضيات وأعناب وشجيرات خضرية وقصب وبردي وأشواك تعود على لونها وعطرها الشذي في تلك البقاع الريفية والتي عوضها بالفوضى والزعيق ودوشة البال.

أنها النقلة التي لم يكن يحلم بها، الصورة التي كان يسمعها أو يشاهدها عبر التلفاز بات يعيشها، الحركة التي كان يشاهدها من خلال الشاشة عبر الأفلام الشعبية الدارجة، صار جزءً منها، هذه الحركة الدؤوبة التي لا تعرف سكونا خلا ساعات اليوم بات يلتمسها، إذا ما أخذنا نفوس القاهرة التي تتجاوز خمسة عشرة مليون نسمة قياسا للقرية التي لا يسكنها سوى بضعة مئات من البشر.

خلال مكوثه الطويل في ركنه وهو يتمعن في الزحمة بين أنواع العجب والغرابة التي استمتع بها، بقي ذاك الحلم يترنح في ذهنه، يستمد منه طاقته، متمنيا أن يدرك شواطئ حلمه من خلال سعيه الحثيث خلف تلك الهواجس التي بلغت ذروتها لترفع شأنه وليرتقي بمستواه مستوى وفاء أو يحظى بسعاد جديدة تجزل همومه، ليرفع من شأن قدره قدر قدرها..

فـي ذات الوقـت الـذي بـه كـان سـارحا فـي خيـال بعيـدٍ، يُراقِـبْ حلمـه العابـث مـن خـلال فكـره السـارح فـي فـتن وفـاء وقدحـة سـعاد، فـي اللحظـة التـي انزلقـت بـه قـدماه نحـو وهـدة أحلامـه وجسـد وفـاء الـبض، كـان هـو مراقـبٌ بذاتـه مـن قبـل **أم سـامح** دون أن يعلم...

أم سـامح: امـرأة أرملـة أربعينيـة، بدينـة، متوسـطة الطـول، ذات صـوت أجـش. وجـدت فـي إبـراهيم ضـالتها، عطفـت عليـه وباتـت تقلـب ملابسـه المعروضـة بحجـة الفحـص والانتقـاء والشـراء، نظـرت إليـه بعـين نافـذة خزقـت لباسـه، دنـت منـه وتمعنـت بتفاصـيل جسـده وببنيتـه القويـة الريفيـة وبقوامـه الرشـيق دون أن ينتبه لها..

سألته ....

- بكم هذه القطعة النسائية يا ....؟
- إبراهيم: خدامك إبراهيم... بـعشرين جنيه يا حاجة.
- عاشـت الأسـامي يـا إبـراهيم ! أنـا أدعـى أم سـامح، معروفـة فـي السـوق وداري قريبـة مـن السـوق، يسـموني مختارة الحي، أن ترغب بضيافتك سأتشرف بك.
- شكرا يا حاجة يا أميرة، كرمك واصل.
- قلـي مـن أيـن أنـت يـا إبـراهيم؟ ومـن أي بلـد؟ لـم أراك قبـل هذا اليوم هنا.
- أنـا مـن سـوهاج يـا حاجـة...من قريـة المراغـة وبقـا لـي في هذا الشارع اسبوع تقريبا.

- ونعم الأصل والفصل والكرم.... صدقني أنا ارتحت لك يا إبراهيم من أول نظرة، شعرت بطيبة قلبك وبنظافة روحك وبحسن سلوكك، فقلت في ظني لابد أن يكون هذا الشخص الغريب أبن أصول.
- هذا من ذوقك يا حجة، صاحبي ايضا قال لي ذلك.
- لأنك فعلا طيب وأبن أصول، يا أبراهيم أنا ممكن أشتري منك البضاعة كلها.. ماذا تقول؟
- هي قدامك يا حاجة، وأنا سأتساهل معاك بثمنها.
- معلوم، لكن عليك أن تأتي معي للدار كي أخذ منك البضاعة، مثلما قلت لك أنا أسكن في نفس الشارع، في الفرع الثاني الذي أمامك، المسافة قريبة كما ترى لا تأخذ أكثر من خمسة إلى سبع دقائق في المشي.
- وكيف أترك المكان، ربما يحجزه غيري وأنت ترين الزحمة، هناك من يود أن يستغل المكان من الباعة المتجولين.
- قلت لك سأشتري منك البضاعة كلها فلا تحتاج للمكان بعد ذلك، ولا تخف عن المكان، لن يستغله أحدا وأنا موجودة هنا، سأعوضك ثمن أي شيء تخسره، أطمأن، كل شيء بثمنه، تعال معي للبيت، أن كنت كريما معي أشتري منك البضاعة كلها، هيا أحمل أغراضك وأتبعني.
- أنت جادة معي يا حاجة؟...أن كنت جادة فأني سأطاوعك.

- لا ترطن كثيرا كن رجل، هيا تعال معي، أتبعني.

حمل حاجاته وتبعها ماضٍ خلفها وهيَّ تسير أمامه كعربة حمل لوزنها الثقيل، ارادفها تتموج كأمواج البحر الغاضبة، تتلاطم في بعضها البعض، ترتفع تارة وتنخفض تارة بتوازن وانسيابية مع حركة الوركين، تمشي وفي يدها قطعة من الألبسة. بينما كانت ترتدي فستانا نيليا جرسيا لاصق على جسدها، تعتليه فتحة تخترق حاجز النهدين بغنج، لتبرز منه مفاتن صدرها الأسمر المشع بالفتنة والممتلئ بالحيوية والأنوثة والجاذبية، كما أن الفستان كان مقورا بمسافة شبر من الظهر بحيث يكشف جزء بسيط من متنها والعمود الفقري غائر في شحوم جسدها وبشرتها الملتاعة بالجاذبية.

باتت تمشي وهو يمشي خلفها كحمار يتبع صاحبه، عيناه تائهة في الوجوه العابرة وفي مفاتن جسد أم سامح الخلفية المغرية، رغم كثرة فتيات السوق المارقة أمامه، إلا أنه ظل يتمعن بعجيزها، سرقه الخيال إلى طبق الشحوم المكتنز في كفلها، وطفح زهرة النرجس بين الفخذين...

بعد مسير عشر دقائق وصلت البيت الكائن في زقاق ضيق، فتحت الباب الحديدي ثم دلفت للداخل.... كان البيت عبار عن كوخ له جدران وسقف، يحتوي على غرفة وصالة.

لم ينبس بشفة، دخل البيت خلفها كطفل غير راشد يتبع خطواتها.

ردت الباب خلفها ومن ثم أسرجته وطلبت منه أن يدخل معها لغرفة نومها.

هنا ارتبك.... توقف مكانه مرتعبا، مهزوزا...

- لماذا أنت مرتبك، تعال ولا تخف لا أحد غيرنا في البيت.
- ماذا تريدين مني؟ أنت قلت أشتري منك البضاعة.
- نعم لقد أعجبتني البضاعة وأنت أيضا أعجبتني وفكرت أشتريك أنت والبضاعة معا، أشتري راجل.
- أنتِ أوهمتني يا مدام.
- ما بك يا راجل! لم أنت خائف وجبان؟
- أين هو زوجك؟
- الله يرحمه، وصاني بك. هيا أخلع ملابسك وتعال، أنت فتنتني، وأنا سأعجبك.

أراد أن يخرج ببضاعته من البيت قائلا لها:...

- لالا يمكن أن أتجرأ، أنا صعيدي، وأخاف الفضيحة ولن أحبذ الغلط.
- أن لم تخضع لأوامري سأصرخ وألم عليك الجيران، وحينها لن تخرج من هنا إلا وأنت جثة.

التهديد أرعش قلبه وهو يعرف حقيقة النخوة في المناطق الشعبية، لقد تورط ولابد من تكملة مشوار اللعبة والتنحي من

بعد ذلك، وإلا لن ينجو من الفخ المرعب الذي حشرته به أم سامح.

- طيب وأين أبنك سامح؟
- لا تخف... هو الآخر التحق بأبوه، أستشهد في سيناء.

سحبته من يده لداخل الغرفة، حشرته بين جسدها والحائط، مدت يدها على قضيبه، أحس بنبض ما دب فيه، شعر برهبة، نمت في جسده قشعريرة، انتصبت شعيرات رأسه، نضت فستانها وسروالها أمامه، أضحت تبرق بفتنة جسدها تحت غلالتها البيضاوية الشفافة، عكست ضوء المصباح المبتهج على جسدها، بانت جاذبيتها تشع وهي ترتشف بجسدها المخملي ذلك الضوء الخافت مع هباء ضوء الشمس المتداخل عبر كوة النافذة الصغيرة من أعلى الجدار.

ارتعش القلب من هول المفاجئة، الغلالة ترتعش من مشاكسة الضوء لفتنة جسدها، من الرغبة الجامحة في بشرتها المشعة، وبين ارتعاشه وارتعاشها ارتعشت الظلمة من نزر العاطفة المسكوبة في أروقتها تحت وقع السكون المشاع. ماج الهدوء بين جلجلة الصخب الدائر بين هواجسهما، تسامى بين العصف المشاع بين تلاحم الجسدين. كل شيء بات بعينيه يرتعد، يرتعش، يرقص مع عزف شيطاني سليط توسد مشاعرهما.... بحذاقتها جلت الخوف عن مشاعره وفؤاده، استطاعت أن تغير وضعه بلحظة، حولته من حمل مسكين لذئب شرس يتحرك تحت وقع الغريزة، أصطف اهوائه

كرغبة تحت سقف تأمله الغريزي الذي لفح فؤاده ومخر نظرات عينيه بصواري رغبة شيطانية شظيت بعين وقلب أم سامح...

ما أن أضرمت النار في كوة الغريزة؛ حتى اضطرمت هي الأخرى بنار عصفه، بانت طبقات لحمها وشحمها المرصوصة تتقدد شوقا وهياما لعضلات جسده ورشاقته... لقد هم بها مثلما همت به، طفقت تتراقص أهوائها تحت شبق الرغبة من القدم حتى الرأس. فهيَّ امرأة ورهة، رغم شكلها المعفر والمطرق بمطارق الزمن، إلا أنّهاَ تمتلك فتنة جسد جذابة، قد تضاهي فتنة بنات الهوى وراقصات الملاهي لما فيه من مرونة وجاذبية ولياقة تبهج النفس الظمئة.

فكت أزرار قميصه وحزام بنطلونه، تأسدت عليه مثلما تأرنب تحت يديها، صار حمل مطيع تحت ظلها وهي تشد عضلاته وتمسد أعضائه، فلا ملاذ يعينه على الهرب ولا يستطيع فك قيد انشوطة الشبق. أستسلم لها وأستساغ عملها، بادلها الشوق، لامس جسدها مد يده على استها، شعر بلسعة دفئها، تنقل على جسدها كشحنة كهربائية يثير فيها الشبق، لَعَقَ حلماتها، أغر بلينها وطراوتها، عصر نهديها، استرخت تحت قبضته، أنتصب قضيبه في مكمنه، نضت سرواله، أحتضنها بقوة، أغتلم بها واغتلمت به، أشتد عصف الشهوة بينهما، دلقها على فرشتها الإسفنجية، أرتمى عليها كوحش مفترس، الهب أحراش جسدها بشحنة القبل والعاطفة التي افتقدتها، ألهبت فيه

جمـرة الشـبق بقدحـة لـين الجسـد والشـهوة الملظـة بهـا، قبسـت فـؤاده بشـعلة الرغبـة الجامحـة للايـلاج بهـا، أرتفـع صـوت الغريـزة فـي الفـؤاد بشـعلة الرجولـة التـي افتقدتها، لـم تلـتمس هـذه العاطفـة منـذ أمـد طويـل، تمسـكت بـه تمسـك الأعمـى بعصـاه، شدته بذراعيها..

مـا أن ولـج بهـا حتـى اشـتد العصـف فـي فـورة التنـور، بـات يرهـز المُباضِـع رَهْـز المسـافد، شَـاطَت أعضـائها واستشـاط بلينهـا، غارقـة فـي نشـوة طفحـت علـى محياهـا، مـا فتـأت صـارت تـأن وتنـوس نـوس القطـط، تتـأوه بصـوت غـنج، مسـتلذة بزمـام العصـف، شـبكت ظهـره بقـوة ذراعيهـا، فيمـا بـات يـنهس لحمهـا وشـحمها نهسـا بأسـنانه وأعصـابه كـالنمس، أغمضـت عيناهـا تحـت وقـع النشـوة وهـو يطعـر بهـا طعـر الحميـر، أدركـت معـه لحظـات الأثـارة، أنـزل فيهـا صـبره وهمومـه وغصـة صـبره، تخيلهـا سـعاد، تخيلهـا وفـاء، ارتعـش، ارتعشـت، اشـتد أنينهـا وشـهقاتها وهـي تمـوء مـوء القطـط تحتـه؛ حتـى فضـت هـيَّ الأخـرى صـرتها لحظـة فـض صـرته، بلغـا ذروة الشـهوة الأورجـازم معـا، ارتخـت أعصـبها مثلمـا تراخـت أعصـابه بعـد أن تـرنح جانبـا غيـر مصـدق طبيعيـة المتعـة الجنسـية التـي مارسـها لأول مـرة فـي حياتـه. أول مـرة يقتـرب مـن خـط النـار المولـع فـي جسـد الأنثـى، أول مـرة يلامـس امـرأة بتلـك الإثـارة والمتعة، كمن فتحت له باب التجارب في ضيافتها له.

لـم يكـن قـد جـرب الجـنس مـن قبـل، لـم يسـتمتع بحقيقـة اللـذة الجنسية من قبل، غرق في هيامه حتى ارتخت أعضائه، شعر بهذيان وتيه يجول في خاطره.. حينها أرتدى ملابسه، بات يلملم أشيائه ليخرج بها من دارها.

نادت عليه صارخة:

- أتركها مكانها، وأن رغبت أن تجرب راحتك معي مرة أخرى، الباب مفتوح أمامك متى شئت، تذكر! لا تأتي ويدك فارغة.

رد إبراهيم بذهول لا يعرف ماذا يفعل..

- ولكن هذا مصدر رزقي.

- وأنت بعتها لي؟... ألم تقبض الثمن من لحظة؟ لازلت لم أرتدي ثيابي، أليس لعملك الشنيع هذا ثمن، أتود أن تغتصب النساء ببلاش؟ ألم أخبرك بأني سأشتري منك البضاعة كلها؟

هيا أخرج من هنا، وأن وددت أن تعاود الكرة سنخفف عليك الحمل، لأنك أصبحت زبونا كريما، وفي المرة القادمة سيكلفك المشوار 100جنيه فقط.

خرج مذهولا، صاغرا، خائفا من الفضيحة، لا يحمل في جيبه سوى هاتفه وبعض الجنيهات من تلك التي كان قد باعها قبل أن تغير عليه أم سامح..

عاد يجر أذيال خيبة تجربته إلى الفندق، وهو في ذهول بين مصدق وغير مصدق فعلته، ترتبت في باله خطط جديدة بعد أن خسر بضاعته، عرف بأن للنصب وجوه وأشكال وطرق شتى لن يدركها بيوم وليلة، يحتاج لعمر كي يجرد نفسه تلك المكائد...

عاد يبحث عن الثعلب الماكر عبد المنعم، جلس في الصالة بين يائس ودميم، الحزن يكحل عينيه والنشوة تغسل قلبه، حزين لخسارته بضاعة التي تقدر قيمتها بأكثر من سبعمائة جنيه. وقت ثمين هدر من بين يديه، لم يستطع أن يصون نفسه فيه من لسعات العقارب.... فما بال القادم من الأيام، حيث لازلت الثعابين تخفي رؤوسها في جحورها، يا إبراهيم غدا سترتفع الحرارة وتخرج الثعابين من كل حدب وصوب، ستأتيك المصائب جمة من حيث تدري ولا تدري.

خلال عمله مدة شهرين متواصلين لم يجني شيء من الأرباح إلا اليسير، لكنه حافظ على مستوى مصروف جيبه كما هو، تكاد أرباحه بلعتها أم سامح وعبدالمنعم العاصي، ولم يضف إلى مخزونه إلا التعب والكدر والملاليم لا تقارن بالمجهود المبذول والخبرة المكتسبة.....

في نهاية المطاف قرر أن يترك هذ الكار ويبحث عن عمل فيه طمأنينة وراحة بال أكثر ضمانا.

أخيرا أتفق مع عبدالمنعم بالتخلي عن المستند المبرم بينهم، بعد أن شرح له قصة أم سامح، وبالمقابل أنه سيتخلى عن شغله مقابل تعويض يقبضه عبد المنعم من ابراهيم مبلغ وقدره مئتي جنيه، وقد سويت المسألة على تلك الشاكلة.....

كان لابد لعبدالمنعم أن يرضخ لطلب إبراهيم ويكف عن ملاحقته وهو راض بأي مبلغ يدخل جيبه، حيث طيبة إبراهيم وغشمته هي التي جعلت عبد المنعم يشرط عليه قيوده، مثلما أم سامح سلبته ارادته. كان قد وجد فيه فرصة لتسيير أمره بعض الأشهر، الطيبة التي يحملها جعلته يرحمه ويتنازل عن شرط العَقد المبرم بينهما..

كما أن أبراهيم أستفاد من خبرة عبدالمنعم في معرفة شكل السوق والعمل والنصب وطرق التعامل مع الباعة ونوعية البضاعة التي يمكن أن يتعامل بها. مثلما أستفاد عبدالمنعم منه ماديا أستفاد إبراهيم خبرة العمل.. وأستفاد من أم سامح خبرة الحياة ولون الجنس وطعمه ولذته، وكأنها فتحت له بابا من أبواب الحياة المؤصدة أمام سعيه، فبات ينغمس في شبق النساء، ويتأمل فتنتهنَّ برغبة جامحة وبفطرة غريزية جياشة، اقحمته في تتبعهن، محاولا الاتصال بهن بشكل من الاشكال.. كما بثت فيه لسعة الشبق لمواصلة سعيه بالوصول لفاتنته وفاء، وعسى أن يتذوق لذة فاكهتها وما يطيب الخاطر.

3- زيارة الأهل

مـن خـلال تواجـده فـي الأسـواق الشـعبية وتعاملـه المباشـر مـع النـاس ببيعـه ملابـس البـالات، ومـن خـلال تعرفـه علـى نوعيـة البضـائع المكدسـة فـي الأسـواق الشـعبية والمطلوبـة وطـرق التعامـل المباشـر مـع النـاس، تفتحـت أفـاق مخـه، توقـد ذهنـه، صـار ينظـر للأمـور بدقـة أكبـر، بـدأ يفكـر بالعمـل كعامـل ضـمن المحـلات الكبيـرة ليكسـب الخبـرة، صـار يحسـب للآخـرين ألـف حساب.

بعـد جلجلـة أم سـامح أجبـره الظـرف علـى تغييـر الشـكل الـداخلي والخـارجي للعمـل، غيـر مـن لبسـه، صـار يتطبـع بطبـاع أهـل المدنيـة، ليواكـب محيطـه وطبيعـة المدينـة المنفتحـة. تغيـر سـلوكه وهدفـه مـع أفضـلية ربحيـة بسـيطة يسـعى إليهـا مـن عملـه كعامـل صـنعة أو نـادل فـي مقهـى يـدبر أمـر معيشـته أمـلا فـي أن يصـادف فرصـة تكـون جـديرة بأحلامـه مـن جهـة وتحفـظ كرامتـه مـن جهـة أخـرى، تحفـظ مخـزون جيبـه مـن الانفـاق فـي وجـه إعصار الزمن.

بـذلك عـدّ نفسـه أسـوة بأهـل المدينـة لا يختلـف عـنهم فـي الشـكل والهنـدام الخـارجي، لـبس لبسـهم وسـلك سـلوكهم قـدر الامكـان ممـا تعلـم وكـان يتبـع ارشـادات عبـد المـنعم طالمـا بـاق معـه فـي ذات الفنـدق، حيـث أصـبحت بينهمـا علاقـة الفـة أقـل درجـة مـن الصداقة.

هذا ما شعر به بألفته وكسبه من الشارع، على الأقل صار يفهم محيطه ليتجنب عمليات النصب والاحتيال السائدة في الأسواق الشعبية كبعد المنعم وأم سامح واللصوص الذين يبحثون عن أشكال إبراهيم ليسرقوهم أو يبتزوهم.. حيث بعض الناس الذين يعملون في عمليات النصب، يعتبرون النصب على الآخرين ليس عيبا أنما فن وشطارة، فهم لا يحرمون ذلك، بذلك يجنون من تلك الأعمال الخسيسة قوت يومهم، وكل يفتي على حسب مصلحته ومدخولات جيبه.

في هذا المجال كنت قد شاهدت في موقع اليوتيوب أحد النشالة حين سأله الصحفي عما هو عمله قال وبدون استحياء : نشال!!!! وكان قد عرف عن نفسه وموقع عمله في شارع الكفاح ببغداد. واو والف واو.... وصلت به الحالة ليعلن عن عمله دون خجل.. وقد برر ذلك بأن الاحتلال والمليشيا المتصارعة لا تسمح له بالعمل وبذلك وجد نفسه مغصوب على ممارسة مهنة النشل التي تركها منذ فترة الطفولة، لم يجد عملا يواكب سنه ليعيش منه، ولم يخجل من الاعتراف أمام الملأ بقبح عمله. والأغرب من ذلك شاهدت فتاة في اليوتيوب تقول أنها تشتغل قوادة وتحت يدها 100 طالبة جامعية كانت قد صورتهم في وضع مخزي كي لا يشتكين عليها وعلى العصابة من ورائها، كل ذلك نتيجة الغلاء وضعف فرص العمل.

ليجنب ذاته المطبات أجبر إبراهيم على ارتداء التيشيرت والبنطلونات ليتحمل مشاق العمل ولينـدمج بالمجتمع الذي يأويه ومسايرة الموجة الدائرة في محيطه، بل صار يرتدي بنطلون الجينز لتحمله المشاق، فهو لا يحتاج لغسيل ومكواة كالأقمشة الأخرى باستمرار..

على رغم من أنه في قرارة نفسه غير مقتنع بهذا التغيير لتعوده على نمط معين من الحياة، إلا أنه وجد ذلك مطلبا يعينه على العمل والتعامل وعلى سياق الظرف والارتقاء بذاته بخفة تعينه على مواجهة أموره، كما انه بذلك يجنب ذاته مطب النصب والاحتيال أو يخفف من وطئه وزخمه بحيث لا يقع تحت مجهر النصابين والمحتالين. ذلك ما أشار به له عبدالمنعم، وقد بين له أصول العمل ووضعه على أول سلم الاندماج.. حيث البنطلون يحدد نَسَبْ الشخص للمدينة أو الريف. أي ينظر إليه من قبل أهل المدينة بأنه على علم ودراية بدروب الاحتيال وأصوله فيتجنبوه، وبذلك يكن اللبس حاجزا له عن أصحاب مشاريع النصب والاحتيال قدر الإمكان.

بعد أن مضت فترة شهرين على غيابه عن القرية، شده الحنين إلى أمه وأخوته الذين لم يفارقهم هذه المدة الطويلة من قبل، حيث شعوره الأبوي لأخوته بعد موت والده لم يتخل عنه، بقي ملازما له، لذا قرر زيارتهم والاطمئنان عليهم بعد أن

أخذتـه المدينـة فـي غفلـة مـن النسـيان، علـى أن يعـود للقـاهرة خلال أسبوع أو أسبوعين.

لقـد تعـرف علـى دروب الـرزق وتعـود علـى الزحمـة وأجـواء القـاهرة الصـاخبة، صـار لا يسـتطيع مفارقتهـا، بـل أنـه وجـد فيهـا مـا يشـغله وينسـيه همـوم سـعاد والـدنيا ويؤملـه بالمسـتقبل المشـرق، وجـد فـي زحامهـا ضـالة تنسـيه سـعاد، تحثـه علـى التـيقن وإدارة مشـاعره بنجـاح، وجـد فيهـا محطـة لتكملـة مشـواره مع وفاء، أملا في الوصل للغاية المرادة..

أضـحت وفـاء وأبـوظبي مـن أسـمى أهدافـه، كمـا أن القـاهرة كمدينـة راقـت لـه أجوائهـا وآفاقهـا ومعيشـتها، تعلـم فيهـا أشـياء مـا كـان يفكـر بهـا فيمـا سـبق، مـع مـرور الأيـام كبـرت أهدافـه وتوسعت مداركه وعلم نواقصه.

أخبـر مـدير الفنـدق بسـفره للقريـة، ووعـده بأنـه عائـد إليهم ليحـتفظ له بسرير في فندقه، بعد أن يقوم بواجب زيارة أمه وأخوته...
تحـرك مـع خـيط فجـر السـبت مـن أوائـل شـهر آب مـن 1988، أسـتقل توكتوكـا مـع نسـيم الصـبح البـارد لـ يقلـه لمحطـة القطـار فـي ميـدان رمسـيس، أسـتقل القطـار المتحـرك نحـو الجنـوب.
النشـوة ملئـت شـغاف قلبـه حنينـا لمسـقط رأسـه ورؤيـة أخوتـه وأمـه وذكرياتـه التـي لـم يتغيـر لونهـا فـي تلـك المـدة القصـيرة، وهـو مـاض حـاملا فـي جعبتـه حقيبـة ملابـس منوعـة لأخوتـه وأمه كهداية لـ تطييب خواطرهم.
مـع دوران عجلـة القـاطرة دارت عجلـة الـزمن بـه للخلـف دورانـا عكسـيا، أرجعتـه لبطـون الماضـي القريـب، أعادتـه لمربعـه القـديم

الـذي أنطلـق منـه.. مـع سـرعة دوران عجـلات القـاطرة نحـو سـوهاج دارت بـه عجلـة الـزمن نحـو هـوة ذكرياتـه، كحلـت عينيـه بمـرود ذاكـرة فتيـات القريـة المـرة منهـا والحلـوة، تلـك التـي كانـت قـد آلمتـه وحاصـرته فـي زاويـة ضـيقة زمنـا طـويلا، بمـروره علـى تلـك المواقـف صـار يوقظهـا مـن سـبات النسـيان، صـار الحـزن يشـتط كخـيط ألـم بصـبره وبصـره، يسـترق الابتسـامة مـن علـى ثغـره. أخطـر خـواطره التـي نازعتـه، والتـي صـار لهـا صـدى فـي الـنفس بـان ماضـيه الـذكوري فـي القريـة لـم ينتـزع مـن ذهنـه، أضـحى كنبتـة شـوك يابسـة فـي حقـل الـذاكرة، تغـزه وتؤلمـه حـين يتـذكر المواقـف، خاليـة مـن البهجـة والـروح، تـذكره بضعفه وعجزه في قريته.

بإخطـاره اسـتعاد شـيئا مـن خضـلة أمـس، أوقـدت فـي صـدره جمـرة أحاسـيس خابئـة، بـات ينفـث آهـات حـزنٍ وشـجنٍ وحسـرات حنـينٍ لتلـك الأيـام الخـوالي التـي ضـاعت دون أن تثمـر. رغـم مرارتهـا إلا أنـه صـرف بهـا سـنين عمـره وشـبابه.. ذكرياتـه تعلقـت كـأقراط بذهنـه كطفولتـه ومغامراتـه، وأخـرى نسـجت مـن خيـوط الصـدفة البنفسـجية مـن واقـع شـغف فـؤاده وتـدفق أحلامـه، بانـت لـه كشـرائط حـب معقـودة بضـفائر القريـة هنا وهناك بين الحقول والترع..

عصـفٌ أثيـري عصـف بفكـره؛ شـحن نبضـات الفـؤاد بحـوادث ماضـيه، ذكرتـه بمواقـف لا تنسـى وبالـذات مـع الفاتنـة سـعاد، قرعـت أحلامـه التـي أجبرتـه علـى الهـرب مـن قريـة المراغـة ومن عنجهية الأعراف والتقهقر الذي كان يحس به.

وهـو مـاض للقريـة هجـس بحنـين نحـو واحـة الطفولـة، نحـو ينـابيع العيـون التـي أشـرئب منهـا، هجـس بذاتـه كأنـه ينحـدر نحـو ماضـية

بقارب العاطفة دون إرادة، عرف بأن الماضي لن يمحى من ذاكرته انما عليه أن يوظب تلك الاحداث لتكون عبرا يستقي منها مستقبله.

أشتاق كثيرا إلى جنون وطراوة لُبَّنا وإلى فتون نجلاء وعفة صابرين، إلى ابتسامة سعاد وكركرتها الغضة وهي تتنقل في بطون الحقل كظبية البان، إلى تلك الترع التي نازعته وعلقته في سواقيها، إلى الزرع المبتهج بخضرته ورائحته وبهجته، إلى اللوحة التعبيرية التي بقيت تصرخ في وحدتها على جدار غرفته الكئيبة وهي منغمسة بسعادة ناقصة في عالم من فوران الود والجنون. هجس بتلك الذكريات وهي تطرق رأسه كمطارق النواقيس بين الحين والحين تذكره بشجن أمس القريب.

تعلقت أحداقه بشريط طويل من الاحداث، بصور أخوته وأمه الصابرة التي أتحفته بالحب والحنين، ساحت دمعة دافئة على وجناته، هجس بلفحتها حنينا للألفة والعشرة.. شعور غريب طفق يلوى ذراعه وعزمه بحجم المرارة العالقة في فمه، تلك التي لا يمكن وصفها والبوح بها. لم يكن قد جرب طعم الفراق من قبل أبدا، لم يكن قد شعر بغل ما آلمه بقدر فشله وهروبه من القرية، لم يدرك مسبقا بأن للفراق لوعة وسم مذاب بالكأس.

فاضت عينيه بنشيج الحنين، هاجت عواطفه بنشوة اللقاء، بات يترنح بين حاضره وماضيه ومستقبله المجهول، حيث وجد

فـي قـدره الجديـد مـرارة أقـل حـدة مـن مـرارة القريـة، ورغبـة أكثـر صـبرا وتـأملا ممـا تـرك فـي القريـة. رغبـة دائمـة نحـو التمسـك بعـروة التغييـر وصـعود سـلم الرقـي، تلـك التـي فسـخت عقـده المزمـع مـع جـذور القريـة مـن طـرف واحـد، فسـحت لـه مجـالا أوسـع لرؤيـة النجـوم وكواكـب المسـتقبل وهـيَّ تـتلألأ فـي مجـرة حياتـه. بـذلك التغييـر بـدأت شخصـيته الجديـدة تتمحـور حولـه، أنـه القـدر، أو النصـيب الـذي لـم يكـن يـراه لـولا إخـلاء سـعاد بـه، لـذا بقـي متمسـكا بقـدره الجديـد إلـى حيـث، يتبـع سـره ويحسب لغده الف حساب..

مضـى فـي لحظـة شـرود وتيـه ذهنـي، أضـحى سـرحانه يطفـوا علـى أحداث أمس كالزيـت، غـدت تنـوس بـه ذاكرتـه فـي مطباتهـا وقواقعهـا، كـان لصـوت القطـار وهـو يهـز وجدانـه أثـرا فـي تنشـيط الـذاكرة، أهتـز شـجنه وأركانـه بشـيء مـن الجـزع والـورع، شـده إلـى طـابع الأصـالة التـي أفتقد بريقهـا ولمعانهـا مـع اشـتداد غبـرة وجـواء المدنيـة وصـبغة ألـوان الكثيـرة والمنوعـة فـي حياتـه.. هجـس بنـار الشـوق يطفـح بكـأس الحنـين للماضـي بوصول القطار لمحطة سوهاج.

وصـل مسـاءا مـع أفـول شـمس المغيـب، تـأخر قلـيلا بسـبب قلـة المواصـلات المؤديـة لقريـة المراغـة.. ومـا أن وصـل حـدود القريـة حتـى شـعر بأنهـا تحتضـنه كروضـة تحتضـن فراشـة، ضـممته، هجـس براحـة لفـت البـال والجسـد، شـعر بـدفء الحيـاة وجميـل النسـيم، اسـتقبلته الطيـور والعصـافير بهـديلها وزقزقتهـا،

أرشدته التربة لعشقه القديم، سايرته ترعها حتى البيت، قادته عبر ذكريات أمس نحو حقولها كعريس في ليلة دخلته.

سار وحيدا في طريقه التي تكاد تكون خالية من المارة أثناء المساء إلا ما ندر، برفقة تلك الذكريات التي باتت تصحى من غفوتها على وقع أقدامه، أضحت تبرز أمامه كنباتات تخرج من مدافنها، تستقبله بعتاب الترحاب، زاد شجنا كلما أقترب من موقع البيت.. واصل طريقه بخطى ملهوفة؛ حتى دكت نظرات عيناه جدران الدار المعزولة في طرف من القرية.

أزداد لهفة وشوقا لمعانقة أمه وأخوته، شعر بأنه في تلك الفترة التي أبتعد بها عنهم كبر عمرا وزاد عقلا وشوقا، أزداد عطشا لعشرتهم، صار أشبه بطفل يتأمل حنين أمه، لتنسيه فترة الضياع والفراق والرضاعة. لم يشعر بالبهجة خلال غربته، قدر الألم الذي كان يذكره بفشله وفراق أحبته. كلما وضع راسه على الوسادة تحضر أطيافهم أمام عينيه، تداعبه أشواق الحنين تذكره بأصله وفصله، وهو ماض في سراطه، هجس بذاته افتقدت وقارها بعد طول الفراق. شهرين تعد زمنا في عرف القرية والوضع الذي هم عليه.

حين يفتقد الأنسان أهله فأنه يفتقد كيانه وذاته حتى لو كان رابضا بين ملايين البشر. كأنه قد تجرد من عواطفه، أضحى ذليلا؛ أشبه بطير جانح عن سربه. بقي مهاجرا في داخل ذاته لا تستسيغه أرض ولا وطن دون أهله، هجس بأنَّ الذي يتجرد من الأهل يتجرد من متعة الدنيا.

أسرع الخطى نحو دارهم المعزولة.. طفق يطرق الباب المؤصدة طرقا لحوحا، لجوجا، طرقا يكمن فيه خبرا ملغما. سمع صوت أخته الحاد يأتيه من الداخل، كأنه هاجس أنسل من سماء الخيال لواقعه، هاجس ملأ شغاف قلبه، اهتزت جوارحه حنينا، رق لصوتها الكرواني.

- من هناك؟

عرفها من خيط صوتها الدقيق، الحاد، كرقة صوت طائر الكروان الشريد وهو يصدح في صبح البراري.

- أفتحي يا بهية... أنا إبراهيم...

.. فتحت له بهية ... صرخت بأعلى صوتها...

- أماه إبراهيم وصل.

تهلل وجه أمه فرحا بوجوده، جاءه أخوه راكضا يشبكه وفي صدره شهقة شوق لفقدانه، أحتضنه، شمه، قبله، أحس بقيمته، وجد نفسه معلقة بين صحوة ندم وجسارة قرار متخذ، كأنَّه كان قد أسرع في فراره وهجرته، كأنَّ القرار لم يكن قراره، أنما قرار شيطان وزه على ذلك. ما كان له أن يتركهم وهم بأمس الحاجة لوجوده، كأنه تركهم لسطوة القدر دون معين..

بات يكلم نفسه قائلا:...

--- لكنهم كبروا يا إبراهيم، قلّت حاجتهم واحتياجاتهم لك، صاروا يستطيعوا أن يتدبروا أمر شؤونهم، فكامل قد أنهى سن البلوغ، وبهية قد أكملت الخامسة عشرة، وهي الآن أدركت سن زواج في القرية.. ثم الزمن قد شاق عليك كثيرا فما عادت تجدي نفعا تلك الملامة، بقائك في القرية كشجرة الكاليتوس جرداء دون ثمر ولا أواق تظلهم، أضحت حاجة البيت محصورة بتوفير لقمة اليوم، وبالنسبة لوجودك ليس ذات اهمية، اضحيت خارج المنطق، يجب عليك أن تحرث وجه المستقبل، لتزرع سعيك فيه ولتعود عليهم بالمنفعة والسعادة.

في الوقت الذي رق عقله وخفق قلبه، كان قد أصر على التحدي والمجازفة لتحمل أعباء الهجرة والغربة. حينها هاجت عواطفه في ميدان تحمل الصبر والصمت، باتت تحفزه على العودة للقرية لمؤازرة أهله وتسيير شؤونهم وحياتهم كيفما شاء القدر، كان يعيش صراعا في داخله بين البقاء والنفور، موانع تمنعه عن التراجع بعد أن لمس ظرف المدينة المشعشع أكثر رحمة من ظرف القرية، كما دوافع تحثه على العودة للقرية حيث شعر بمرارة الغربة والوحدة، أضحى مشتتا بين التحدي والتراخي لا يستقر على قرار، لكنه لن ينسَ اسباب هجرته والوحدة التي قيدته في القرية...

الحالة العقيمة ذكرته بماضيهم، أنهم دون أصل وجذور في قرية المراغة، دون سند وأقارب، مهمشون، تائهون. بعد أن

همد نجم أبوهم أضحى هو العمود والمحور لسقف العائلة، ذلك ما صار يأنب ضميره، يفرض عليه أن يعيد حساباته ويدمجها في حساباتهم المستقبلية، يحثه على تقاسم الخبزة والمصير المشترك معا.

كان قد عاش هذا الصراع كثيرا، بين البقاء والتحرر، بين الفلاحة والتحري عن مصدر رزق جديد، كان قد عاش جل عمره بينهم والحالة الكسيحة لازمتهم والتي نخرت عقله وبدنه. تلك التي دفعته وشجعته على تغيير وضعه المزري.. الدافع الذي حثه على الهجرة حثه على البحث عن مأوى يليق بأخوته ليرفع من قدرهم وشأنهم بين رهط القرية، لابد من أن يغتنوا ليكونوا أشرافا واسيادا في نظر أبناء قرية المراغة بدلا أن يقبعوا فيها عبيدا أبد الدهر، لابد أن يكون لهم شأن في المجتمع، ولابد من تغيير مكان سكناهم وتغيير نمط معيشتهم في المستقبل.

خلال مكوثه القصير في زحمة الأسواق كان قد جس نبض الحرية والحركة، تلذذ صخب حياة القاهرة المفعمة بالحيوية، عزم على أن لا يعيد نفسه لمأساة الماضي، أن لا يكرر ذاته في قريته تحت ظل حياة العجز والعوز، فصيغة الحياة في القرية كانت قد ترهلت كثيرا حتى أضاعت رشاقتها، باتت لا تقوى على مداهنة أهوائه وأحلامه وغرائزه. أصابها النخر والعجز والقنوط، لا تقوى على مسايرة واقع التطور الجاري في العالم - فيما الحياة في القاهر تبدو كامرأة بدينة كأم سامح

فيها نشاط وحيوية واسعة، لدنة، حميمة، مفعمة بالدفء والحرية، أشبه بالعشب الأخضر تبهج النظر، كلما جزَّ ذوائبه زاد بريقا وألقا. حياة متجددة في صياغتها بشكل يومي..

شعر بذاته وهو في شوارع القاهرة أصغر عمرا من حقيقة عمره، هجس بوجنة الحياة جذابة، وجنة صبية أبنة العشرين. المدينة جذبته، جعلته متقلب المزاج والراي بين المكوث والنفور، بين العجز ومواصلة التحدي والبحث عن مشاعل عواطفه بين زحمة الوحوش الكاسرة، أم سامح غرزت في ذهنه غريزة المراهقة والجنس.

صار يقنع نفسه بعبارة طالما تغنى بها" فاز باللذات من كان جسورا" آملا أن يغير من حالة ضعفه.. بعد أن تمكن من أن يمسك برأس الخيط المقطوع، فالتغيير آت وحتما سيصل موجه شواطئه الرملية، ففي الحركة بركة وفي التأني السلامة، والمرارة القابعة على الشفاه كفيل بإزالتها عبر الزمن وأن كانت لازالت بطبعها مرة، ليجلو اثرها فلابد من صبر وجلد.. كما أنه وجد مصير أخوته المشتت لا يختلف عن مصيره بحبة خردل، فعسى أن يسند حياتهم ويفتح لهم بابا يفضي لمستقبل مشرق.

ذهابه للقاهرة ليس بمثابة جسارة ضد القيم البالية فحسب، أنما لقيادة ثورة عارمة ضد الفقر وضد العناء والعبودية، لأحداث تغيير في واقعهم الفقير الذي صار يرزخ بالروتين والبؤس يوما بعد يوم، وخاصة أنه خلال هذه الفترة التي

قضاها في القاهرة تعلم تجارب شتى حثته على إيجاد مفاتيحٍ للغز الحياة. أعطته دافع قويٍ لتغيير شكل الحالة التي هو عليه بحجم الرغبة الكامنة في داخله، بحكم الحركة الدؤوبة وبحكم إرادته..

عزم ما شحذته بتجاه أحلامه التي كبرت، نقلته لقلعة الكرامة التي تجير مستقبله وتبجل طابعه. لابد أن يتنصل عن عقد القرية. حينها سألته أمه وهي تحتضر شوقا بمعانقته.

- كيف حالك يا ولدي؟ هل أنت بخير؟ أين عشت؟ وكيف عشت؟ وماذا عملت؟ هيا أفرحنا..
- بخير يا أماه... الحياة في القاهرة جميلة، تنسيك الهموم، الزحمة كبيرة، والناس أثرياء، والحاجات متوفرة ومنوعة ولا توصف لكثرة اسواق المدينة وحاجاتها المتنوعة، العمارات شاهقة....

سامحيني يا أماه أن غبت عنكم هذه الفترة، فالإنسان الذي يعيش في الزحمة ينسى نفسه وهمومه لكثرة مشاغله، فأنا جئت أزوركم وأطمأن عليكم، شوقي هو الذي قادني اليكم، لا أريد أن أبقى أعيش هنا كأعمى بين الترع والخضوع لأوامر الغير، يجب أن يكون لنا شأن وقرار، سأعود للقاهرة، ولن أنسى وعدي لكم ما حييت، ستبقون في القلب والذاكرة أفكر بمصيركم. حياتي معلقة بكم، لن أنسلخ عن جذوري قط....

على أية حال أني اشتريت لكامل تلفون، سأتصل بكم كل أسبوع مرة، لأن فواتير الانترنت مكلفة وغالية، ستكلفني وتكلفكم الكثير، وخاصة في القرية الاتصالات ضعيفة. سوف أرفع من قدركم أمام الجميع قدر المستطاع.

- يا أبني وما هذا الأنترنت؟
- يا أماه الانترنت، شبكة اتصالات دولية توصلك بالدنيا مثل التلفون.
- نحن نود سعادتك، حافظ على نفسك وفلوسك، أهتم بنفسك وعملك... قل لي كيف قضيت أيامك وبماذا عملت؟
- يمه: أني عملت بتجارة الملابس، لكني على قد حالي، أحتاج لوقت أطول ليكون لي شأن وأكون خبيرا فيها.
- يا خوي ماذا حملت لنا معك من هدايا؟
- حملت لكم ملابس للبيت وللعروسة بهية وللوالدة الحنونة، وأنت قلي يا عضيدي: ماهيَّ أخبار القرية؟

بهية أجابت بسرعة قبل أن يفكر كامل في الإجابة:

- زفت سعاد لزوجها!

وكأنها أطلقت رصاصة رحمة عليه لتقطع خيوط تفكيره وعواطفه بالقرية تماما، لقد قطعت شكه باليقين، لتقطع بذلك كل أمل يربطه في جذور القرية وتلك الذكريات الآنفة الحلوة، شعر بأنَّ همومه التي كان يراها كحجر جلمود في القمة العقد؛

تـدحرجت مـن مكانهـا لتسـقط علـى رأسـه، عصـفت بـه ريـح سعاد، تفتت الرغبـة التـي تكـورت فـي داخلـه مـع دخولـه القريـة، أضـحت الـذكريات نصـال سـكاكين تجرحـه، غمامـة شـجن تؤرقـه. لـذا قـرر أن يركـب غييـه ويعـود مـن حيـث أتـى بأسـرع مـا يمكن، كي ينسى مصابه وينسى سعاد وإلى الأبد.

حـاول تجنـب العاصـفة وإعصـارها، مثـل أمـامهم بعـدم اهتمامـه لخبـر سـعاد، محـاولا تغييـر مجـرى الحـديث، ولكـن دخـان النـار أرتفـع عـن صـدره، فضـحه أمـام امـه، أوقـدت شـعلة الـذاكرة مثلمـا أوقدت ومضة في قلب الأم التي شعرت بعذابه.

ألتفت إلى أخيه قائلا: ..

- يـا كامـل هـذا هـاتف جديـد وقـوي، نـوع كلكسـي كـوري الصـنع وهـو مشـهور، فيـه بـرامج فعلتهـا لـك لتحـادثني بـه.. أنظـر هـذا برنـامج الـواتس آب يسـتخدم للرسـائل والمحادثـة وتبـادل الصـور، وهـذا برنـامج الأيمـو لأجـراء المحادثـات الفديويـة، وهـذا برنـامج فـايبر شـبيه بـالأيمو، وهـذا برنـامج شـادو جـات للتحـدث مـع الأصـدقاء، وهـذا الفيسـبوك برنـامج اجتمـاعي للتعليـق والصـداقة والمحادثة. كل تلك البرامج فعلتها لك.
- يا خوي تعلمت كل هذه البرامج بشهرين؟
- يـا فهـيم أخـوك لـيس بقليـل، ثـم علمنـي بهـا صـاحب المحـل الـذي اشـتريت منـه الهـاتف مقابـل خمسـين جنيـه،...هـا هـا.. هيـا يـا طيـب حـرك يـدك وأسـعفني

بثلاثين جنيه مقابل ذلك، لأنك أخي نخفض القيمة عليك. هههههههههههههه.

بعد يومين من تواجده بالقرية وجد نفسه تائه كما كان قبل أن يرحل، لا يلتقي سوى بالذكريات المؤلمة، جاب القرية التي لا ينتمي إليها بصلة سوى بشبكة ذكريات مرة سلخته عن طفولته وعاطفته. مكث في القرية يومين ثم قرر العودة للقاهرة، كأنَّ تلك العودة ستكون الأخيرة له، لذا بات يتمعن في كل موقع ترك فيها ذكرى تشده لماضيه، تذكره بسنين المراهقة ومغامراته العاطفية..

مثلما ودع أمه وأخوته في المرة الأولى، ودعهم وأستقل القطار العائد للقاهرة بعد أن وجد نفسه وحيدا دون ونيس، الحيرة ركبت فكره وظنونه.

4- مصطفى الأسيوطي

عاد لفندقه في حي الحسين، وبعد عودته للقاهرة بيومين ألتقى إبراهيم في فندقه بشاب لطيف من أهالي أسيوط أسمه مصطفى، هذا الشاب الثلاثيني طيب القلب؛ يعمل ميكانيكيا في الحي الصناعي في منطقة الحرفيين المعروفة، والتي تبعد بأكثر من 40 كم عن مركز المدينة.

كان فيما سبق قد مر بظرف إبراهيم المعقد، لذا حين سمع بقصته رق عليه قلبه وقرر أن ينتشله من الضياع، من المأزق الذي لا يعرف طريقا للخروج منه، وقد أقترح عليه أن يعمل معه بصفة عامل صناعي في منطقة الحرفيين، بعد أن تعرف على وضعيته من خلال عِشرة يومين أو ثلاثة داخل فندق "الكلوب العصري"، وخاصة بعد سماعه عن حالات النصب التي التفت على رقبته، لذا أقترح عليه مقترحه من أجل انتشاله من التيه الذي يعيشه، وكي يجنبه فكوك أسماك القروش الرائجة في البلد.. فمضى خلف المقولة التي تقول " أذا أغلقَ بوجهك باب؛ فتح الله لك بدلا عنه ألف باب ".فقال له:...

- ما رأيك يا إبراهيم أن تعمل في مجال ميكانيك السيارات؟ نعم؛ أنه عمل صعب، يحتاج لدراية مسبقة، ولكن أعمل بقدر الإمكان وبشيء من الاستقلالية، تكفيك شر النصابين. فإذا ما عرفت سر المهنة ستنقذ نفسك ابدا، عندها ستعرف قدر نفسك! ففي تلك الحالة

لا تحتاج إلا لمساعدة ربك، أما أصحاب المهن هم سيسعون خلفك يطلبون رضاك.

- هههههههه، ومن أين آتي بالخبرة؟ هل يرضون أن يشغلوا شخصا لا يعرف أن يمسك المطرقة؟ أليس من باب التجربة اختباري؟ وحين يكتشفون اني فلاح سيصرفون النظر عني! وبذلك أخسر قدري ووجاهتي، وأنت تعلم أنا أبن ريف لا أقبل أن يصفونني بالنصاب والغشاش والمحتال، لا أقبل على نفسي الغلة.
- أسمع يا إبراهيم! لا يوجد شخص تعلم المهنة إلا بعد أن أنغمس فيها، وأنا كنت مثلك في السابق، وأعتقد الحدادة لا تحتاج لشهادة أنما تحتاج لمهارة وذكاء، أنت تمتلك القوة والذكاء وتنقصك المهارة، والمهارة تأتي بالممارسة، كما سمكرة السيارات ليس بالعمل المعقد مثلما تعتقد، أنه عمل هين فقط يحتاج إلى فطنة ودقة، دقة الطرق وخفة اليد هما العاملان الأساسيان في إدارة المهنة، أعمل بهذا المجال.
- عظيم يا صديقي...وهل ستساعدني على أن أكتسب مهارة الحدادة أو السمكرة؟ أني أحتاج إلى الثقة بالنفس وسند يجعلني أقف على قدميَّ، تنقصني المهارة والثقة، بعدها سأكون عند حسن الظن.
- أنا سأساعدك في الوصول إلى أصحاب العمل، لأني أعمل في مجال الميكانيك، سأكون قريب منك وأطل

عليك، والمهارة تحتاج من الشخص لشطارة وانتباه ودقة، توكل على الله، صدقني ستكتسب المهنة بفترة شهر إلى شهرين.
يجب عليك أن تتعلم صنعة تغنيك عن الف والدوران، لأنها ستخدمك العمر كله، ستشكرني طالما حييت، المهنة أفضل سلاح بيد الشخص، تستطيع أن تنقذ نفسك من التيه الذي تعيشه، تحولك إلى إنسان ذو قيمة، تعرفك بالسراط الذي تتمناه، ستعمل بها في كل وقت وفي كل مكان، وهيَّ أفضل من بيع السلع والأسمال والأطمار في الشوارع، ستغنيك عن حلات الفقر والتعرض للنصب والاحتيال، تزيدك قدرا واحتراما وثقة بالنفس.

- يا صديقي؛ ربك أرسلك لي رحمة من السماء السابعة، جئت مخصوصا لتنقذني من واقعي الكئيب، فعلا أنا بحاجة ماسة لأصون نفسي وقدري من العبث الدائر في البلد، أنا ضائع، تائه، أشعر بنفسي غريق يقاوم موج بحر هائج. لقد جئت بالوقت المناسب، وبقبس الطيبة، جئت تنقذني من عبث المفسدين قبل أن تبلعني الحيتان الدائرة في الشوارع، أنا من يدك اليمين ليدك الشمال، سأكون طوع إشارتك، عسى أستطيع أن أخدم أمي وأخوتي.
- على بركة الله، جهز نفسك غدا سننطلق مع غرة الفجر للعمل، ودع ثقتك بالله وبي ستفلح.

- والنعمة بالله، وأني لن أنسى فضلك ما حييت.. أحيانا تأتيك الرحمة من حيث لا تدري كالمطر، يرسلها الله مدراة على البشر. حين تأتي من السماء تكون عاجلة وآنية، وحين تأتي من البشر تحتاج لأناة والصبر وطول بال.. هؤلاء البشر الذين ينقلون رحمة ربهم لغيرهم؛ هم بمصاف الأنبياء في الأرض، وأنت واحدا من هؤلاء يا مصطفى! لقد اصطفاك الله بالرحمة وكنت أهلا لها.
- شكرا لك يا إبراهم؛ لقد أخجلتني على إطرائك السمح، هذه سنة الحياة، على الناس أخذ بيد المحتاجين لهم وإيصالهم لبر الأمان، لقد مررت بظرفك وهناك من أخذ بيدي وانتشلني من مأزقي، الحياة هكذا تدور، هكذا تسير، لابد من تعاون مثمر بين البشر.

في فجر صباح اليوم التالي استقلوا باص نقل 20 راكبا من مرأب الحسين إلى منطقة الحرفيين، بعد أن فطروا الفول والطعمية المنتشرة في مطاعمها الشعبية. وبعد ساعتين وصلوا المكان بسبب زحمة الشوارع وبطئ السير فيها.

أخذ مصطفى بيد إبراهيم ودار به على الورش، عرفه على أصحاب مواقع العمل، لف به على الورش الكبيرة والصغير، ذاك وذاك تأمله، وذاك تخلى عنه، لأنه لا خبرة له ولا إلمام لديه في العمل، لم ينخرط بحرفية العمل من قبل، غير أن دراسته التي لم يكملها ساعدته على الفهم والتفهم. أخيرا أتفق

مع جاره أبو جهاد من أن يعمل لديه مدة شهر تحت التجربة ومن غير أجر، وأن يجد له مأوى في ملحق الورشة ويعتبره حارسا ليليا يحرس محله أثناء الليل ويدربه على العمل أثناء النهار عسى أن يستفاد منه مستقبلا....

.. شعر أبو جهاد من جانبه في إبراهيم طاقة كامنة جديدة ممكن أن تتفجر ويستفاد منه لديمومة عمله، إضافة إلى أنه سيبقى داخل الورشة خلال ساعات اليوم بمثابة حارس وعامل وصانع يكتسب مهارة، كما أستنبط فيه خامة ناصعة بيضاء لم تتسخ بنتن أهل المدينة، ممكن الاستفادة منه والاعتماد عليه والوثوق به مستقبلا في إدارة شؤون الورشة، إي لازال يحمل نظافة أبن الريف وصدق وطيبة الفلاح ونيته الصافية.

بسبب ظرفه القاسي تضاعف تركيزه في العمل، حيث أضحى يقرأ الملاحظة بالسرعة البديهية، خاصة أنه تعلم بعض اسماء العناصر وعملها من دراسته لذا تمكن من فك شفرات لغزها بسهولة، مما حدا به أن يكتسب المهارة بسرعة غير متوقعه، بحيث قبل أن يكمل تجربة الشهر كان قد أكرمه أبو جهاد وقدر له مرتبٌ شهري بـ خمسمئة جنيها شهريا (120 دولار) وممكن أن تزيد وتتضاعف مستقبلا وحسب نشاطه وقدرته.

بعد أن قبض مرتبه الأول، بطيبه المعهود لم ينسى فضل صاحبه مصطفى، لذا أتفق معه أن يقضيا يوما من الترف على حسابه الخاص لزيادة الألفة بينهم، وأعتبره رد دين

عوضا عن الخدمة التي أسداها له في إرشاده لتعلم مهنة السمكرة.

كان قبل أن يلتقي بمصطفى قد عرض نفسه على تجار يساعدهم في عملهم عسى أن يكتسب مهنة ما تعينه على مجاراة معيشة القاهرة، فقد اقترح على تاجر كهربائي لبيع المصابيح في شارع عبدالعزيز أن يكون له عونا بتصريف بضاعته مقابل ربح رمزي يتقاضاه منه، لكنه لم يستمر بعمله طويلا لقلة المورد. كما عمل في غسل الصحون في أحد المطاعم مدة بسيطة ثم ترك الخدمة لشعوره بالذل والمهانة في قرارة نفسه، ولتجنب الأوامر والانصياع لولي النعمة.

تلك الأعمال أكسبته خبرة الشارع في مجال الحياة، من خلالها قدر وعرف قيمة اللقمة التي يقطعها من أفواه الوحوش بعرق جبينه، ولو أنها لقمة لا تفي بالغرض الذي هاجر من أجلها، لكنها تساعده على التمعن والتفكير المنطقي في البحث عن هدفه المعلن وعن هدفه المبطن دون هوادة.

تلك التجارب تسلسلت في أحداثها في حياته، بحيث كل عمل أو مهنة مارسها أضافت له لبنةٌ من الخبرة والتجربة وعزة النفس والعذاب الروحي وصبغة من ألوان الحياة على لوح ذاكرته، تلك الدروس علمته أشياء لم تكن في الحسبان، لم يحسب لها حساب دقيق كشأن التجار، جنبته مهاوي الخنوع في الشوارع، حصن ذاته من المخاطر المحيطة به ومن

مخـاطر الفقـر التـي لاحقتـه وأن كـان يكسـب لقمـة عيشـه بعـرق جبينه.

أيـام عصـيبة عطنـه، أخـذت مـن قلبـه وفكـره وبأسـه الشـي الكثيـر، وشـيء مـن عزتـه وكرامتـه مقابـل تلـك الخبـرة التـي أكتسـبها والتـي سـاعدته علـى درء فجـوات فقـره بأسـلوب جـزل. غـدت الخبـرة فـي يديـه تمـتط كمطـاط البلاسـتك، تعينـه علـى تـدبير أقـراص الخبـز بطريـق مختلفـة وبخبـرة، ترضـيه وترضـي سـعيه وتمهد له مسايرة ظرفه.

لقـد عـانى وتلـك المعانـاة دفعتـه للتأمـل والنجـاح والتمسـك بطـرف أحلامـه، لتطـول يـده القصـيرة عناقيـد الكـروم العاليـة بيقـين، ود كسـب ذاتـه أمـام احلامـه التـي يتأملهـا، لقـد تمكـن مـن أن يتـذوق جـزءً مـن عسـل تعبـه، ولكـن لازالـت سـلاله فارغـة مـن العنـب، بقـي يتأمـل مكنـون سـعيه لغده بإيجـاد ثغـرة فـي جـدار الحيـاة يسـد بها ثغرة عجزه المادي وثغرة سعاد التي تركتها في قلبه.

لقـد تجـاوز عمـره منتصـف العشـرينات، ولـم يـدرك ثنايـا عطشـه، لـم يرطـب فاهـه بشـبق أنثـى بابتسـامة أنثـى، لـم يغـرز قبلاتـه بـ وجنـات أنثـى، لـم يجـد عاطفـة أمـام مجـرى مشـاعره المولعـة بالنـار واللهفـة الـدائرة فـي محـيط النسـاء، صـار يحتـرق مـن نغمـة صـوت فتـاة تمضـي فـي طريقهـا، مـن لعلعـة تخـدش ذهنـه، مـن قدحـة نظـرة عـابرة لأرداف جميلـة مارقـة رفَّ عليهـا قلبـه، وخاصـة بعـد تجربـة أم سـامح زاد رهقـا وحيويـة فـي داخلـه وفكره.

لـم يمـارس حبـا حقيقيـا، لـم يتـذوق طعـم الجـنس علـى شـاكلته الحقيقـة مـع فتـاة مـن عمـره يـروق لهـا وتـروق لـه... مـا اعترتـه مـن مفاجئـة مـن قبـل أم سـامح لـم تكـن سـوى قشـرة مـوز تزحلـق بهـا، لـم يكـن متهيـئ لهـا ولـم يعـد نفسـه مسـبقا للهـاث خلفهـا، كانـت أشـبه بقنبلـة صـوتية انفجـرت فـي طريقـه جعلتـه ينتبـه علـى محيطـه الأنثـوي دون أن يعـد نفسـه لأقفالهـا، دمـرت اسـوار كرامتـه، كسـبت جولتهـا سـريعا بالضـربة القاضـية، جعلتـه يفتقـد صـوابه ويتـرنح تحـت إرادتهـا كالحمـل، تلبـك بـالخوف المحـيط به دون وعي.

كمـا أنـه ملَّ مـن مشـاهدة بعـض صـور الخلاعـة والأفـلام الإباحيـة والخلاعـة التـي تطفـح علـى هاتفـه مـن عـالم ملـيء بالفسـاد الجـارح، تلـك التـي مسـحت جـزءا مـن عاداتـه وتقاليـده الأصـيلة، والتـي سـقت غصـنه بـالفطرة مـن منهـل مبـادئ عريقـة صـعب أن يجترهـا أو يغيرهـا أو يعـزف عـن خصـالها أو يتنـازل عـن مكنـون جوهرهـا، تلـك التـي أكسـبته حصـانة ضـد طفـح الـذل العائم في محيطه الجديد.

ورغـم أن صـفات جديـدة طـرأت علـى صـبغة أخلاقـه التـي عُـرف بهـا، والتـي سـمطت فكـره بإنتانهـا، إلا أنـه يبقـى أبـن عـادات وتقاليـد واصـول ذات جـذور متأصـلة بالبـداوة، فـالهفوة فـي سـلوكه تعتبـر عـار محسـوب عليـه بمقـاييس قواعـد الريـف، يحاسبه ضميره عليها قبل المجتمع الذي ينتمي إليه...

مصيدة أم سامح علمته درسا في صيغة التعامل بالحياة، نقلته لواقع الحرز والتبصر، في الوقت الذي به حرثت أرضه البور وزرعت شبق الغريزة في أعماق فكره بوجه كل فتاة يصادفها، لقد استصلحت أراضه البور الممتدة لأعماق الروح وتخوم الفؤاد والذهن. نقلته من واقع التأمل لواقع التجربة والممارسة.

بعد تلك التجربة تفتح ذهنيا ونفسيا، أمتد أفقه لأبعد من حدوده التي يعرفها، كأنها بفعلها كسرت جرة الخوف والبؤس الملازمة له، كسرت في أعماقه حاجز التجربة، الهبت في داخله الرغبة المجنونة بشرب كأس الأنثى، تلك التي طالما بحث عنها في مهاوي الظن والمجادلة والسعي دون طائل.

لكن للبشر طاقة محدودة لا تحتمل وزر الضغوطات النفسية والجسدية، فالمحروم من المتعة واللذة لا يكل من البحث عنها بين ثنايا الرغبة الجامحة، فاللعقة من شهد الجنس بالنسبة له صار هدفا ساميا وأمنية يسعى خلفها بأظافره، يجب أن يدرك سر مبتغاه بشكل من الأشكال كي ينتشل ذاته من معاناة الليل والتفكير الهمجي بذكوريته الذي ما عاد يحتمل ثقل سكونه، والذي غالبا ما تنتهي إرهاصاته باستسلامه البليد لغريزته في عملية إستمناءة يقذف بها همومه وعذاباته في متاهات الفِكر وغياثه.

الجنس؛ حالة تعبيرية عن الغريزة، تكيل الفرد من هوة الضغوطات النفسية والبدنية لصرة سعادة ذهنية يستشعر بها،

لراحة جسدية، حالة راعها الله و زرعها في خليقته لديمومة النسل. لن يستطيع أحدا ما أن يتغاض عن أهمية الجنس إطلاقا، أنه جزء مهم من السلوك الطبيعي للكائنات الحية، لا يمكن الاستغناء عنه أو التغاضي عنه أو التجرد منه. أنه أشبه بالإسفنجة الماصة تمتص الهموم والكدر المتعلقة بالفكر والجسد، لتحيلها لنشاط زهري وحيوي تزرع المحبة والألفة في حياة الفرد، فالغريزة الجنسية حالة صحية ضرورية كالأكل والشرب ملازمة لهواجسنا وتفكيرنا لأنها من الطبيعة الحيوانية المغروزة في اجسادنا تزيدنا طاقة ومحبة للحياة.

قبل أيام عرضت أحدى القنوات اللبنانية برنامج بالخط الاحمر العريض، يعرض معاناة الناس بشكل علني، وقد عرضت امرأة أربعينية نفسها وهي تبكي دموعا حارة لمعاناتها الحقيقية من زوجها الرخم..... حيث تقول المرأة:....

- أنا عطشة جنسيا، منذ خمسة سنوات لم يجامعني زوجي، لم يعاشرني جنسيا، كل ليلة يعود للبيت كالثور المتعبْ، يدعي الارهاق والكسل والمرض من سخط العمل، فيضع راسه على الوسادة ليعذبني بعزف شخيره المقرف.

كانت تبكي بحرقة، تهجس بها كقطعة قماش متهتكة، لطول فترة عرضها تحت أشعة العذاب والحرمان المحرقة... حيث تكمل حديثها:.....

- أنـه لا شـعور لديـه، لـم يفكـر بـأن للمـرأة حـق فـي الرجـل مثلمـا للرجـل حـق فـي المـرأة، هـذا مـا سـنه الله فـي كتابـه، وأنـي متقصـدة مـن أن آتـي إلـى هنـا لأصـدمه، ليـرى قسـوته إلـى أي حـد شـهر بـي، إلـى أي مرحلـة أوصـلني بتعاملـه الوحشـي الـذليل، كثيـرة هـي الأفكـار التـي تـودي إلـى الانحـراف والتـي راودتنـي وراودتهـا بنفسـي بـين الأحـايين، لقـد داهمتنـي فكـرة الخيانـة مـرات ومـرات مـع كـل رجـل يعتـرض طريقـي، لكنـي فـي آخـر المطـاف أتراجـع عـن قـراري خوفـا مـن عقـاب الله ورأفـة بـأولادي .... وهنـا ومـن خـلال إطلالتـي أرغـب فـي هـزه ليرجـع إلـى الله قلـيلا، أنـي أشـك بـه أن يكـون سـويا مـن البشـر، كيـف يصـبر هـذه الفتـرة الطويلـة دون جـنس وأنـا أمامـه أتضـور ظمئـا؟ لابـد مـن أنـه يخـونني مـع امـرأة أخـرى، وكرامتـي لا تسـمح لـي بمواجهتـه، وفـي قـرارة نفسـي لا أريـد منـه شـيئا، سـوى أن يكـون أنسـانا طبيعيـا يمـارس الجنس معي ولو مرة في الشهر. الله يقول:

(وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُـمْ مِـنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجـاً لِتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْـنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)...صدق الله العظيم.

أنـا لا أجـد مـودة فـي قلبـه ولا رحمـة، تزوجتـه منـذ أثنـا عشـرة عامـا وأنقطـع عنـي منـذ خمـس سـنوات. وأنـي خائفة من أن يدفعني تقصيره لحالة الخيانة والفجور.

هذا الثور هل يعلم بأن عاطفة المرأة أقوى من عاطفة الرجل، المرأة أكثر حنو على أولادها وأبويها وإخوتها من الرجل، وأسرع إثارة وعاطفة من الناحية الجنسية من الرجل، وهذا متفق مع وظيفة الأنجاب وفي تربية الأولاد وترتيب وتنظيف البيت والصرف عليهم.

لذا الجنس حالة طبيعة يجب أن لا يخجل المرء من رغبته له، والمحروم منه يتصف بإحساس غريب يفوق الوصف والخيال.... هواجس الجنس حين ترق وتبزغ في الذهن تحيل البدن إلى ينبوع عواطف، إلى واحة محبة تحتمل السيل الجارف لإرهاصات القلب ومخلفات الفكر من أحاسيس ومشاعر وشوائب عناء البدن وعنفوان وصخب وعبث ورقة وشبق لتصب بمكنونها في الجسد المقابل كشعلة من الوهج العاطفي الجياش، يرفع من مقامه ومن مقام المقابل لمرتبة الإباء وغنى النفس، إلى الارستقراط في الحياة.

يحيل الجسد المانح إلى لؤلؤة تشع بهاءً تحت صدفية العاطفة..... بالمقابل يكون الجسد المتلقي أشبه بمنخل يسمح بعبور الدرر لبهجة النفس، فيما يترك الشوائب تذوب كأملاح لتنشيط البدن، حيث تدب فيه قشعريرة مخدرة تنقله لمواقع العاطفة والهيام، لواقع الأحلام، لعالم خاص يرتقي مراتب الزهو، ليكون كمصباح وهاج يمتص الديجور من حوله، يسمح للإشعاع من أن يخترق سدم الروح إلى الراحة والهناء والسعادة.

خلال الفترات السابقة لم ينقطع عن مواصلة أهله وطيف خيال وفاء تراود مخيلته، بحيث كان يطمأن على صحة أهله من جهة، ويديم سعي تواصله مع وفاء بمسجات على الواتس آب وأحيانا باستخدام برنامج شادو شات من جهة أخرى. كانت في كل لقاء تصرعه عاطفيا، أو العاطفة تسرقه فتسوق مشاعره إليها، أنه معبئ بكم هائل من الحرمان والشبق، فتجيش عاطفته عليه بالسهد والأرق.

فلم تدم تلك المحاولات سوى على بعض محاولات الأعجاب والغزل الفارغ الذي لا يجدي نفعا خارج حدود التماس الحقيقي بين تسكع الروح وكمد الجسد. لذا كانت وفاء دائما ما تحثه على القدوم للأمارات والتعرف عليها عن قرب. وكان أخر أتصال بينهما جرى على النحو التالي...

- ألو ...هل أنتِ معي يا وفاء؟
- نعم يا إبراهيم.
- أنا أحببتك.
- وفاء: وأنا ارتحت لك ولنياتك الصادقة، قد تكون قدري في المستقبل.

خلال الرسائل والمسجات لم تقطع سبل التواصل، دائما تحثه على التمسك بالأمل وتتبع الغاية.

- وهل سنبقى نتأمل الهاتف دون أن يرخي أعصابنا، وهو في الحقيقة يشنجها طالما أنت بعيدة عني يا وفاء.

- الأمر بيدك، أنت البعيد، لقد دعوتك من قبل للأمارات، يمكنك أن تعمل هنا، وهنا يمكننا أن نلتقي ونرى بعضنا البعض، بمجرد وصولك سأعطيك رقما جديدا تتواصل به معي، تكلمني به متى تشاء.
- جميل منكِ رأيكِ تسهلين الأمر وأنا ممتن لك، وأني أتمنى أن أسمعك وأراكِ عن قرب وذلك سيحصل قريبا. يا وفاء أتمنى أن أراكِ ولو للحظة فديويا، ما رأيك؟
- حسنا يا أبراهيم سأفتح الشاشة لثوانٍ فقط لأني اخاف التشهير والخيانة. هيا
- الله ما أجملك يا وفاء، أنت أجمل من الصور، أنت فاتنة جدا، في معانيك وصف يخجل أن يتفوه به الكلام، لأنه لا يمكن أن يعبر عن حقيقة الوصف الذي أراه فوق الخيال.
- شكرا لك ولأعجابك، وانتَ واضح جدا تكمن فيك الرجولة والشهامة، فيك ما تتأمله كل مرأة.
- صحيح كلامك أني سعيد بكِ وبآرائك.... يا وفاء وهل ستتزوجينني؟
- أنا قلت لك الامر سابق آوانه، عندما نلتقي عن قرب وتندمج اهوائنا وعندما نصل معا لنهاية المطاف، أعجب بك وتعجب بي، وعندما نذلل العوائق، سنكون أمام أمر الواقع والقرار، وكل شيء جائز وفي أوانه.

- إذا انتظريني فليس لي هدف في الحياة سوى أن أصل أليك وأن ألتقيك.
- سأنتظر عزمك وقرارك.

أسمع يا إبراهيم أنا أمر بأزمة مالية هل لك أن تساعدني؟ القرار يرجع لك.

- حاضر وما المبلغ الذي يفك كربك يا حبيبتي؟
- بحدود 500 دولار لقد عملت حادث سير في سيارتي ولا أملك ما أعالج به أمري. 0000000000 وهذا رقم حسابي وهذا sjdhfgal هو أسم البنك الذي أتعامل معه.

أنه مبلغ كبير لا يقدر عليه، وهو الذي يتقاضى مرتب لا يعادل ربع هذا المبلغ، لكنها أول مرة تحتاج مساعدته، لا يريد أن تنظر إليه باستصغار مع بداية مشواره معها، وهو الذي يتأمل أن يصل شواطئها بهدوء، عسى أن يجد راحته في أجنحة عاطفتها. ثم هيَّ من تلح عليه الوصول لمحطتها، هذا يعني لها رغبة صادقة به مثلما له ذات الرغبة، إذا يجب أن لا يقطع حبل الوصل بمجرد أن طلبت منه مبلغ ما من المال هي بحاجة له.

- يا وفاء سأرسل لك 200 دولار، أرجو أن تقدري ظرفي، الحقيقة في هذه الفترة وهذه هيَّ إمكاناتي مع شديد اعتذاري.

- لابأس شكرا للطفك وصراحتك، يعجبني صدقك معي، على الأقل يسد جانبا من عجزي.

في اليوم التالي ذهب لدائرة البريد وأرسل لها المبلغ من ما جمعه من عمله في بيع أسمال البالات، وهو منتعش في قرارة نفسه، يعيش حالة زهو مهزوزة بين الغزة التي نالها والنشوة الكذابة. الغزة أتت من واقع ضعفه العاطفي والمادي، حيث المبلغ المرسل يؤثر على توازن جيبه وهو الذي يكافح من أجل مستقبله ومستقبل أهله، والنشوة هيَّ فيض شعور بكسره الحاجز النفسي الذي كان يعتري رغباته في الوصول إليها، كأنه بذلك تمكن من شق نفق عبور صريح للوصول إلى لمرفئها، وخاصة بعد أن لمح فنار الشوق يضيء الطريق من على بُعدْ، بَعْدَ أن كشفت له عن ملامح وجهها من خلال المكالمة الفديوية القصيرة التي أثارت حفيظته بإعجابه بسحرها.

نمت تلك الرغبة في داخله حتى غدت هدفا لغاية لن يتراجع عنها، وخاصة أنه مال إليها ميل الغصن للريح السهكة، فالوصول إليها ليس بالأمر الهين اليسير، حيث يحتاج الفرد لعدة أمور تسهل أمره ولجدار يسنده حين يصل، لأساس يعتمد عليه خلال مشواره القادم، وخاصة أنه لا يعرف عن الأمارات سوى الاسم الرنان.

ما اعترَى إبراهيم سابقا من عواطف مسوقة، كانت مجرد محاولات بائسة لم تصل به درجة الاعتداد بالنفس والقناعة،

لم يفض كيس صَفنه في جوف الرغبة، كان قد أغتم بِجُرَارِهِ حين صب جل همه في بنات القرية دون أن يفكر بعيدا خارج حدود القرية، كان عليه خوض التجربة أو شيء من التلطف والصبوة بما تأمل في بنت الجار في بنات القاهرة، لنيل شذرات حسن من يهوى... بينما جذبته تناسق قوام بنت الريف وهي تعمل في الحقل دون أن يتمكن من كشط زبدها والانفراد بها أو التحرش بها أو ملامسة عواطفها. فيما سحرته بنت المدرسة برشاقتها وأناقتها وهو مذهول بأناقتها دون أن يتمكن من كسب ودها في مضمار سبيله وهي تمضي كل صباح لمدرستها. دون أن يتجرأ بمعاكستهن أو مصاحبتهن أو الوصول لشاطئهن، تجببا من قيود الاعراف أن تحكم علية بالجلد والقسوة، صعب عليه تجاوز قيودهن.... وفي آخر المطاف جلدته سعاد بسوط التعدي على حرماتها، كانت بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، الثريا التي تناثر كرستالها بمجرد أن لامس فتنتها. تلك الغيداء بعد أن لانت له، بعد أن أملته حياة الرفعة مع رفع عصا التحذير من قبل أبن عمها حسني، تماهت بلحظة غفلة في غياهب الجب، تبدت كالضباب أمام عينيه دون أن يستطع جمع شتاتها، تزوجت من أبن عمها مجبرة، تلك الواقعة غيرت مجرى حياته لينقلب بذاته بثورة ضد القيم والتقاليد والاعراف القبلية.

كل محاولاته التي سعى خلفها ذهبت سدى دون جدوى، لم تشبع رغباته الغريزية الحقيقية، لم تملأ فراغ كأسه بنشوة

السعادة قط، بقي مقيد كالسجين لا يسمع صفير ريح تنذره بالكمد ولا يهجس بوطاوط الشؤم تحذره من الغد.

المعوقات ذاتها ثابتة وشاخصة في عرف المجتمع، مكدسة في جحره وطرقه، حواجز صد وموانع طبيعية عالية تمنعه من تخطي حدودها، قد تكون تلك المعوقات النسبية مادية أو نفسية أو اجتماعية أو تراثية؛ فأنها تمسه أكثر مما تمس غيره، نتيجة ظرف العرف السائد المتعلق بجذر التقاليد، أو بوازع من الموروث الشعبي أو الديني السائد--- الخ .

رغم ذلك لم تفضَ حياته من بعض المحاولات الهزيلة، لكنه في كل تلك المحاولات لم يستطع أن يقضم تفاحة صبره، لم يشف غليل غريزته، لم يطفئ شرارة قلبه وعاطفته وتحسسه بوجود أنثى في حياته.

كل محاولاته كانت سلبية، دفعته نحو تغيير منهج حياته وأسلوب عمله، هيجت جمرة الغريزة، زوبعة العاطفة أثارت حفيظته، زادت من سمية الوحدة والوحشة والوحشية في ذاته، لو مكنه الزمن لأنتقم من الاعراف ومن حسني وكل من يؤيد سخط القواعد المعمول بها.

لم يهمل عواطفه ولم يترك ذاته ولا تخلاَ عن نداء إرهاصاته الداخلية حتى يستجيب لها وأن لم يصل صوته حدود رغباته. كان يستعين بالعادة السرية لصد عواقب جنونه وفشله، هكذا كان يعاقب ذاته وهو عاكف على حدود الصمت في سجنه

دون أن يتقدم خطوة تنقله لسدة النجاة. استخدام العادة السرية لتبقى جمرة الشبق وهاجة في قعرها، وخاصة أذا ما تذكر وفاء وتخيل جسدها البرونزي المبروم بالسحر كطيف شبح وهي تتراقص أمام عينيه، تتمرغ بوحل صبّه ورجولته. بل أنه صار يراها في كل امرأة تصادفه في طريقه.

تلك التخيلات منحته شرارة تسعر صبره، صبغت غريزته بلون الحياة، أضحى يبحث عن لغزها في النفوس الحائرة والأفكار المتطرفة والصحبة المرثية، أضحى يشعر بها تدور حوله دون أن يستطيع أن يعالج عنائها، دون أن يبرم ضفائرها، ربما لأنه تائه في مشوار ظنه دون ثقة بنفسه، لا يعرف السبل الحقيقية لحل مشاكله، ولا أن يتعامل بالجدية ليصل غايته. لكنه أضحى يرى ذاته وطريقه بمنظار واضح، يفسر الأشياء بشكل ما أقرب إلى الحقيقة في داخل نفسه، بعد أن وجد الثقة تتنامى في داخله، تؤازره وتدفع به نحو الأمام.

بقي يردد مع ذاته من سار على الدرب وصل، والطريق يبدأ بخطوة، إن عزمت فتوكل على الله.....

5- حي "بولاق دكرور"

الضياع النفسي والحرمان العاطفي ومطبات الفشل دفعت به لحرف ذهنه وعقله وسلوكه واتجاهه عن أصل منبعه، جعلت منه أيقونة صبر وبحث عن اللؤلؤ والمرجان في أعماق البحر، متبعا الفتنة الشائكة، متأملا اللذة في المادة والجنس الشرعي والغير شرعي في مستنقع المباغي مع المومسات والعاهرات وبنات الهوى اللاتي شغلن باله في صورهن الطاغية في الجرائد والمجلات وشاشات الهاتف، بات يبحث عنهن برفقة رفيقه مصطفى في بيوتات الدعارة لممارسة البغاء مع أية مومس يحظى بها، خاصة تجربته مع أم سامح أعطته دفقا غريزيا وثقة عمياء بالنفس لدخول تلك الأماكن المشبوهة بشهية. ود أن يشبع رغباته التي يبست بذورها على ثغره، للجفاء الذي عصف بأنفاسه، فما بقي من تلك الرغبات المعلقة بأعناقه سوى القشور والحشف، ظلت ملتصقة في ثنايا فكره كسخام القدر.

أضحت الحاجة الغريزية مع مرور الزمن تقرح ظنه وفكره الغير مستقر، صار يتحسبها، يحسها، يهجس بها كدبابيس ماجنه تشك مشاعره خاصة أنه دخل في سن السادسة والعشرين من العمر دون ارتباط حقيقي. فورة الشباب والحالة النفسية والوحدة فعلت فعلها، جزلت صبره وبالذات خلال سهده وسهره لياليه الموحشة، نقلته لحالة الهستيريا، لدرجة

محاكاة نفسه وفرشته ووسادته فيميل لحالة الاستمناء التي يلجأ إليها كلما يشعر بوحدته.

لقد تمنطق بالعبث، تسلق سلم الشذوذ دون إرادته بعد أن أفلتت أم سامح سره من قبضة العرف والتقاليد التي حكمته، تلك الحالة جعلته يدرك نقطة ضعفه الكائنة في غور أعماقه، صار يرى الوحشة تقتحم صدره كلما أعجب بأنثى، تنتفض الاثارة في فكره، يشعر بها كتل هم تثقل سعيه وصبره.. جلجلة الغريزة خلخلت سكونه، شلت فكره، كشفت لون الجنون في أعماقه. الحالة النفسية مهزوزة، الثقة بالذات مراغة، لا يستطيع السيطرة على الغريزة، بدت همومه تكبر مع عمره تناظريا.. وهو قابع بصمته يهجس عواطفه غبرة تسنمت ظهر ريح، تجتاح فلات صبر مر، تريق فكره بفكرة البغاء..

هكذا مرت أيام به سليطة، كان فيها مشتت الظن، يترنح بين شطط فكره وهيافة قلبه. بات يرتعب من روتين الأيام والسنين العجقة. الوحدة والقنوط اربكت خططه، لا تجديد في مسرى الحياة، بقي عالق في سكونه العجف، تدينه الأيام بجريد قدره الذي لا ينطوي على بذرة أمل تعينه على إدراك حلمه.

أصبحت تلك الهواجس المتراكبة خيمة وجس، والمجالس المعنى سليل روتين ممل، والحيرة رفيقة عشقه لضوء القمر، كثيرة هي المرات التي كان بها يستحلم في ذاته الخفية وهو عالق بين مفاتن سيقان امرأة، حتى يدرك عرف الندم والخجلٍ

بعد أن يبتل فراشه ولباسه بإفرازاته الحيوانية.. لا يدري كيف يداري مشاعره أمام أمه وأخوته حين كان يرقد بينهم، والآن بعد أن صار حرا وحيدا صار يبحث عن فرشة وثيرة يستحلم بها كحقيقة.. فالأمر أضحى جلل، هنا لا أحد يراقبه أو يحاسبه على فعلة ذاته الشبقة، الغارقة في أملاح محاسن أنثى.

بعد أن هجر القرية صارت الحرية أشد رهافة وصخبا، أكثر عاطفة ورحمة، ألد صداقة لفكره وصمته. باتت تفلج ساقيها كمومس ليلج بها ملذاته وقت سكينته. تلك الأجواء التي راقت له جعلته لا يعير أهمية لمحيطه ولا لارتباطاته الهشة. أضحى لهاجس الجنس درجة الأولوية، صار كدودة الأرضة وهو ينخر فكره.

أضحت حياته لوحة شخابيط أكثر من أن تكون سريالية عبثية، لكثر ما خط عليها بريش جنوحه وبألوان شبقه خطوط رغباته. قد تراها لوحة تعبيرية تشدك جاذبية الألوان المشعشعة في تكوينها وهي تعبر عن جسد أنثى، أو بالأحرى جسد وفاء وشكلها وقامتها وبروح سعاد وسمرة بشرتها ولين صدرها. هذه اللوحة المعلقة في ذهنه تذكره بلوحة سعاد الملتصقة على جدران قلبه بجدلها وتعابيرها المتهامسة. لا بل صار يرى رغباته المشاعة تختزل هوسه بجسد امرأة، غدت الرغبة كلعبة إلكترونية مسلية، ويمارس حيثياتها بين الحين والآخر، يحسبها كمطلب للروح والجسد لا يمكن أغفال أهميتها.

لـذا أضـحت تلـك اللوحـة الخياليـة التـي تمثـل لـه جسـد سـعاد أو وفـاء ورشـاقتها جـزء مـن فكـره، تنـدرج فيهـا أجسـاد النسـاء قاطبـة، بضـمنهم أم سـامح التـي يحسـبها كضـيفة شـرف فـي لوحته بتفاصيل جسدها البجباج.

وأحيانـا الـذاكرة تعبـر بـه المسـافات الخاويـة لحـدود القريـة التـي ترعـرع فيهـا، فتتجسـد أمامـه جسـد فتـاة المدرسـة التـي طالمـا تأملهـا وحـاول معاكسـتها أو حالـة تحـرش مـا غـزل فكـره دون أن يتجـاوز خـط الاعـراف، أو رواء جسـد تلـك الفلاحـة الممشـوقة التـي تمنـى أن ينفـرد بهـا خلـف بيـادر الحصـاد أو بـين ظـلال شجيرات عرانيس الذرى المفروشة في الحقل...

تنقـل خيالـه بتلـك الصـور الخليعـة مـع وجـد حمـيم مـن نقطـة لأخـرى حسـب تغيـر موقـع شـمس يومـه، يتبـع شـوقا ملـم بـين الأفخـاذ والأرداف والعجيـز والنهـود وملامـح الوجـوه بـنهم شـريد.. تلـك الحالـة تقيـده، تجيلـه إلـى ممارسـة العـادة السـرية والاسـتحلام والاسـتخفاف بشـطط الـذات ورياح القلـب. تلـك الأفكـار أضـحت نقطـة انطلاقـه نحـو وهـدة جنـون قـابع فـي سـره، متبعا فتنة وغنج النساء جمعاء..

بـات لا يمـانع مـن اسـتغلال الفـرص المتاحـة أمامـه والمارقـة فـي ظنـه، رغـم صرصـرة الـريح البليـدة فـي داخلـه، والتـي تحـذره مـن الانحـدار بـالقيم التـي اسـتقى منـه قيافتـه نحـو الـدرك. حيـث انحـدار فكـره القـروي خلـف شـريعة الموبقـات، يعنـي انحـلال شخصـه ومبادئـه وانحرافـه عـن أصـله والأصـالة أمـام الفـرص الطافحـة

كفرصة أم سامح. وبذلك يكون قد خسر قدره واضاع نفسه وخالف توصيات أمه العفيفة.

بعد أن أستلم مرتبه الأول ود أن يكرم صديقه ومرشده مصطفى، وبذلك أبلغه في رغبته برد دينه على مساعدته في عزيمة يختارها بنفسه في المكان والزمان الذي هو يختاره. فقال له:....

- يا مصطفى! لم أنسى فضلك عليَّ، أود أن أذكرك بوعدي وأرد لك بعض الدين في رقبتي على حسن تصرفك معي، الأمر بين يديك، أختر الأكلة المناسبة والمطعم الذي تحب، أنا عزمتك وبرغبتك وأعتبر يوم غد الخميس يوم فرفشة على حسابي انا.

تفاجأ مصطفى بكرم إبراهيم وعرضه المغري، أنه وفي جدا، لم ينسى فضله عليه، بانت أصالته وكراماته تطفح، فلا غرابة في ذلك أنه أبن صعيد أبن ريف تعلم على الكرم. لذا ود أن يكون العرض بتخطيطه هو وبرغبته هو، لذا فضل استغلال الفرصة ودحرجها تحت قدميه بشيء من المزح والمرح.

- أحسنت يا فتى، يا أبن الأصول، ما خاب ظني بك أبدا، تصرفت مثل ما توقعت منك، وبنيت جسرا لعلاقة دائمة بيننا، ستدوم بحسن تفكيرك وطيبة قلبك.
- بالله لا تقول لي يا أبن الأصول!! أني بت أكره هذه العبارة هههههههه،

- لماذا يا ابراهيم؟....
- لأنك تذكرني بعبد المنعم العاصي الذي دعاني بأبن الأصول ثم نصب عليَّ وعاش برأسي، وأم سامح هههههه هي الأخرى دعتني بأبن الأصول وسرقت رزقي، لقد مدحاني وقالا لي يا أبن الأصول. هههههههه. بت أهجس خلف تلك العبارة يكمن كمين، بت أخاف من هذه العبارة... هيا صارحني، ما ورائك؟ أكيد خلف هذه العبارة تكمن مفاجأة ما هههههههههه.
- هههههههه، أكيد عَرَفتْكَ أم سامح مثلما عَرفتُك أنا، ولكن هي أم سامح، يعني المسألة معكوسة، فأنا لا أملك ما تملك هي هههههه..... لا تخف مني، فأنا أخوك ولن أفرط برفيقي ولا استولي على حاجاتك هههههههههه.
- هههههههه، اقصد لك مآرب أم سامح وعبدالمنعم، أنا متأكد أنت طيب القلب.. هيا أخبرني كيف تود أن تكون عزيمتك؟ وبأي مطعم؟ لأن أنت أدرى مني بهذا المجال فأنا لازلت غريبا لا خبرة لي، ولا مطلع بشكل جيد عن أماكن الفرفشة والمطاعم...
- ألم تقول لي بحسب ما ترغب؟.....
- نعم.
- إذا عليك أن تمشي معي بشروطي، أنا أسيرك على رغبتي ومزاجي، أنا أختار المكان وأنت عليك دفع

المصاريف.. لا تخف لن أثقل عليك، سيكون يوم غد يومي أنا، لا حق لك أن تعترض أو تناقش، سأبسطك به مثلما أبسط نفسي.

- إبراهيم: أتفقنا.... فأنا أثق بك، لولا الطيبة المكنونة في داخلك ما كنت تجرأت وعزمتك، فالخير خيرك..
- عشت يا طيب يا أبن الأصول، هههههههههه.

لا يختلف ظرف مصطفى عن ظرف إبراهيم، وهو شاب ثلاثيني مطلق لأسباب مادية، فالطيور على أشكالها تقع، لذا فكر مصطفى بأخذ إبراهيم في متاهة بعيدا عن أشكال الحياة الروتينية، بعد أن وجد في رفقته ألفة وطيبة ومتعة، وهو الذي له دراية أوسع من إبراهيم في أحياء القاهرة.

أقترح على إبراهيم أن يذهبا لحي شعبي أسمه حي "بولاق دكرور"، وترك سره في قلبه، حيث المنطقة تحتوي على بؤر متخفية من أوكار الفساد، منتشرة هنا وهناك دون علم السلطات، للزحمة التي تعج فيها والفقر المدقع المنتشر والشائع بين وسط العوائل التي تقطن الحي. كما يوجد فيها بؤر بيع الحشيش والهيروبين كحال الاحوال الشعبية، كما أن كثير من عوائل المنطقة تنحدر أصولها من أصول أفريقية.. كما أن عناصر الشرطة أحيانا تتغاضى عن مراقبة الحي برشوة تدهن زردومهم وجلودهم لتسلك دروبها..

هذه الأوكار معظمها بيوتات يصعب تشخيصها للزحمة التي تعج بها تلك المناطق، فالكار كار المسحوقين والمسحوقات

اللاتـي لـم يجـدن مـا يلبـي طلبـاتهن واللاتـي لـم تسـنح لهـن فـرص زواج تطفـئ نيـران شـبق غرائـزهن، فيمخـرن ذواتهـن بتلـك الازقـة الفضفاضـة خلـف الفضـلات الرائجـة؛ فـي الوقـت الـذي بـه يعتبـر البغـاء مصـدر رزق لتلـك العوائـل المنحلـة الفقيـرة، أو تلـك التـي جـذورها أفريقيـة قطنـت المكـان منـذ عهـود سـحيقة تعـيش على المحرمات..

ورغـم محدوديـة الفسـاد بسـبب الـوازع الـديني الـذي يلتـزم بخطـه العـريض النـاس قاطبـة، إلا أن المنطقـة لا تخلـوا مـن الأوكـار السـرية المنتشـرة هنـا وهنـاك لتنـث انتانهـا فـي المكـان خوفـا مـن تسـلط الأمـن علـى رقـابهن.. فلـولا النـتن المنتشـرة هنـا وهنـاك لا تشـعر قـط بجماليـة العفـة والشـرف. مثلمـا يوجـد الصـالح يوجـد فـي المكـان الطـالح المنتشـر كبكتريـا العفـن، علـى طبيعـة رطوبـة المناطق الشعبية.

بطبيعتـه مصـطفى كـان قـد تعـرف مسـبقا علـى بعـض بيوتـات الـدعارة التـي تعمـل بالخفـاء. وقـد كانـت لـه تجربـة ودرايـة مسـبقة بالمنـاطق الخطـرة وأوكـار النصـب المنتشـرة فيهـا وخاصـة فيمـا يخـص بـؤر ومواقـع تجـارة المخـدرات والحشـيش السـرية، إضـافة للأسـواق الشـعبية العاديـة وأسـواق تجـارة الملابـس السـائدة. ولا يخفـى عليـه مواقـع النصـب والغـش والخطـورة التـي مـن الممكـن أن تولـد بلحظـة ودون تخطـيط.. لـذا كـان بمسـايرته مصـطفى قـد تجنـب تلـك المطبـات التـي لا يمكـن أن يفلـت منهـا لـو ذهب بذاته يجرب حظه فيها وحيدا.

مثلما أشرنا كان مصطفى قد تردد على هذه الدور من قبل بعد أن طلق زوجته قبل سنتين، فبات أشبه بزبون دائم يتردد عليهن متى ما وجد جيبه يعينه على فض جزء من مخزونه لكشط الهم القابع على فكره، وكان قد حدد هدفه في ذهنه لتجديد نشاط قلبه.

كما أن المنطقة لحركتها الدؤوبة تعج بشتى المطاعم الشعبية والمأكولات العربية والغربية والتي من الممكن أن يرتادوها، وكان قد وثق إبراهيم بمصطفى وثوقا أعمى، فهو صاحبه الذي أنتشله من دروب التسكع والضياع في شوارع القاهرة بعد أن كاد ينزلق في معمعة العقد، لذا سار خلفه كدليل له ومرشد يقوده، عبر به مرافق الخطر ووديان الأزمات المصادفة. كما أن مصطفى عرف طيبة إبراهيم كأبن ريف الذي لن يثور عليه في مشواره، لن يتجلد أمام رغباته لِخدمته الجليلة وعطش أضمر قلبه. لن يعارضه إطلاقا في ما يسعى إليه لتطابق الاشجان والحالة المجنة بينه وبين ابراهيم، خاصة أنه أعزب وغريب في القاهرة، فلن يخاصمه بعد تجربة أم سامح وهو الذي لا يستأمن بسواه.

استأجرا توكتوكا لشارع بولاق أو فؤاد الأول، وهناك أستمد مصطفى قوته وعزمه، صار يتغنى بجميلات النساء وفاتنات الشابات المنحدرات للميدان وخاصة إذا ما رأى امرأة فرعة، دلوعة، تتمخطر في طريقه. كان يلسعدهنَّ بأسلوب الفكاهة لما يجيده وبشيء من الرقة واللذاعة التي ترق له قلوب

النساء، أسلوب تمرس عليه، يجد صدى ومقبولية لدى الفاتنات، حيث يقابلنَّه بالتفاتة رضا أو ابتسامة عابرة تشده لمفاتنهن، فالنظرات المحرجة تشفي غليله وتنسيه حالة الصياعة، حتى تمكن من شحذ قلب صديقه إبراهيم بإلكترونات الفتنة الدائرة واللسعة الحادة التي تنذر بالحب والجنس.

فالنساء كألوان قوس قزح كلهن لهن جاذبية خاصة، منهن المتحجبة والموشحة بالعباءة والسافرة، والرشيقة والنحيفة والبدينة والمكتنزة والناعمة والخشنة والبيضاء والسمراء ...الخ، كل لها مذاقها وطعمها وسحرها ولذتها، كل لها جمال مخفي تحت وشاحها وثيابها وفي نوع لبسها وطبيعة جسدها وثناياها ونفسها وأنفاسها وعذوبتها ورقة ابتسامتها ونعومة وتقاسيم وجهها وعذوبة كلامها وطبيعتها وخفة دمها ونظافتها. كل واحدة تكمن فيها فتنة نائمة، على الرجل أن يداعبها ويصحيها، أن يوقضها من سبتها ليتمكن من الاستمتاع بها.

تطرق خلال تجواله عن الاماكن الموبوءة والخطرة واماكن بيع الحشيش والمخدرات الأخرى ليتجنبها مستقبلا، كما تطرق عن فتن النساء بعد أن ابتاعا "أيس كريم " المثلج لينشط ذهنيهما وسرائرهما ويحفز الرغبة لدى إبراهيم على ممارسة الجنس، لينعما بالشوق الدافئ بأسواق بولاق دكرور وبشيء من المتعة والفرفشة.

وهم في تجوالهم يتأملان البيوتات القديمة وبعض المباني الجديدة، سأل مصطفى إبراهيم بعد أن دنى من وكر البغاة...

- ما رأيك يا إبراهيم بالنساء؟
- كأنك تجس فؤادي، كوتني النساء، ولم يشفِ جرح الفؤاد يا مصطفى، أود أن أفرغ سموم رجولتي فيهنَّ.
- لو قلت لك هنا وكر عاهرات، أترافقني إليه، دعنا نقضي يوما مميزا معهن، أنا مطلق وأنت عازب.
- وأنا متخشب يا صديقي هههه، أبغى نعومة تريحني، ترفع عني دهون العزوبية، أبغي أسمع صوت ناعم، رقيق، يحرك مشاعري ويوقظ أحاسيسي من طول السبات، لقد سأمت الوحدة والعزوبية والخشونة.
- إذا هيء نفسك، في الفرع المقابل يوجد وكر قد زرته من قبل سيعجبك، فيه فتيات شابات آية من الجمال كالذهب والماس.
- أنا من يدك اليمين ليدك الشمال..
- بعد أن نكمل جولتنا نتجه لذلك المطعم نأكل الهمبركر.
- الهمبركر أنا سامع عنه ونفسي أذقه، أشاهده في الإعلانات ولكن مش عارف شكله كيف.
- طيب يا إبراهيم، ثم أنه رخيص الثمن سنجربه.

بات يحف الخطى نحو الوكر وإبراهيم يتبعه غير مصدق بما يفكر به مصطفى، انحرفا يسارا، ثم دخلا زقاقا وفي جانب منه طرقا بابا حديديا أصفر اللون... فتحت له الباب فاتنة

سمراء، ترتدي بنطال جينز نيلي وقميص أصهب بأزرار مائلة للون صفار البيض، وكأنها لها معرفة مسبقة بمصطفى، رحبت به بهز رأسها.

- هيا يا إبراهيم أدخل...
- هيا يا سيدي إبراهيم خف رجلك مش عاوزين مشاكل. (قالت له الفتاة).

دخلا لصالة صغيرة حجمها 4×4 فيها كنبة وطاولة وشاشة تلفاز صغيرة 14 بوصة، طلت عليهما ثلاث نسوة، اثنتان منهنَّ ضمن الفئة الشبابية العشرينية، والثالثة كانت أربعينية. كلن منهنَّ لها سعرها المحدد، وقد وقع اختيارهما على الفتاتين الشابتين ذوات الفئة العشرينية..

مد إبراهم يده في جيبه فأخرج محفظته، ومن ثم بات يورق جنيهات تفسخهم، حيث عليه أن يدفع لهنَّ أولا، ثم بعد ذلك اختلى كل بعاهرته في غرفة جانبية صغيرة مفرغة من الأثاث لا تحتوي سوى على بساط بلاستيكي وفرشة إسفنجية في جانب منها.

لم يصدق إبراهيم أنه واقف أمام قامة فتاة تبدو كالرشا المهفهفة، جسد مصقول بالرقة، غلب عليه اللون الخمري ونعومة من صلصال تشع جاذبية ورهافة، ذات وجه دائري نابض ببشاشة، ينهل منه عذوبة أنثى صارخة، السمرة الفاترة تشف بسحر من الجاذبية تحت الغلالة، تخيط حواف الشفتين

دكنة من حمرة قانية، عينين نجلاوتين تتلألآن في الوجه كقمرين من الفتنة، جيدٌ ممتلئ محلى بالشكولاتة ومرصع بحلية شذرة شامسة، يغطي رأسها شعر سرح منساب على الكتفين كشلال من الليل، يثار من ثناياه ضوع نافذ من اللافندر يشتط بثنايا الجسد..

تمددت على الفرشة بعد أن نضت ثيابها إلا من غلالة بيضاء شفافة يتراقص تحتها ذلك الجسد المشبع بالأنوثة، ترعف تحتها نهاد مُلقّة، شلخت ساقيها منتظرة أن يلج بها إبراهيم، أن يكفت جمر ثورته في بركانها، أن يتحفها برغبته الجامحة التي جاء من أجلها....

غير أنه بقيَّ ساكنا في محله، واقفا، مشدوها، غير مصدق ما ترى عينيه، غير مصدق ذاته وهو ينظر إليها بغرابة، حتى نادت عليه بشيء من الأمر.

- ما بك يا آخ ماذا تنتظر، هيا أنا جاهزة.
- أنت جميلة جدا..
- عارفه.
- أنا مبهور بك، أخجل من نفسي، أشعر بغرابة الأمر، فهذه أول مرة أدخل بها أمكان غريبة تفتح النفس.
- ما غريب إلا الشيطان، هيا أخلع ملابسك، وتعال جرب شهد العسل...

مسكت يده ومن ثم داعبت قضيبه حتى انتصب، شعر بمتعة لم يستشعر بها من قبل، نضت بنطلونه وسرواله ثم طواها تحت ذراعيه بغنج ورغبة وهو يستلذ بنعومة وطراوة ودفء جسدها الرشيق. وما هي سوى لحظات عصف حتى خارت قواه وهو يطوف حول أجواء زهرتها، كنحلة لسعته بفتنتها، صار يهرز فيها كثور جامح وهيَّ تتأوه تحته، زاد قوة في إيلاجه، جعلها تشتط أنينا وشبقا مع شدة هرزه العنيف، بحيث طغت وحوحتها على صوت أخفاق فرجها، صارت تنوس تحت قبضته كقطة شبقة، فلم يصبر على اللذة حتى سال لعابه مع سيلان قذفه، بعد أن غص فمه بطراوة حلماتها ورقة جسدها..

حين أنتهى من طعرها ترنح جانبا، فيما هي استرخت بعد أن أصابها ما أصابه من نحول ورهق في أعضاء الجسد. مثلما غرق غرقت باستمنائها لشدة عصفه وشبقه الذي هاج به على فريسته.

لبس ملابسه وقبل أن يخرج سألها..

- إبراهيم: ما أسمك يا حلوة؟
- سلوى يا فحل.
- ونعم السلوى أنت، أسم على مسمى.

وقبل أن يخرج من الوكر دس في قبضة يدها مبلغا إضافيا من المال بحدود خمسين جنيها كعربون صداقة، حينها خرج من

الـوكر وهـو منتشـي يقـارن بينهـا وبـين أم سـامح.. أحـس بسـعة الفـرق الواضـح بيـنهنَّ، كـالفرق بـين البقـرة والمـرأة-- فأمـا وفـاء فشـبهها بزهـرة اللـوتس النيـرة الأميـرة، أو بالشـمس السـاطعة التـي تميـد الارض فتنـة، لـن يتخلـى عـن أملـه بالوصـول لهـا، لشدة ضيائها وسحر ألقها، ولجاجة ماستها.

كلمـا فـتن بـامرأة أو فكـر بـأنثى بزغـت فـي ذهنـه صـورة وفـاء، تلـك الآيـة التـي حفـظ تفاصـيلها دون أن يلتقيهـا، دخلـت مزاجـه وعالمـه مـن أوسـع الأبـواب، نخـرت ذهنـه، التفـت حـول رقبتـه كثعبـان الأناكونـدا. بسـحرها خزقـت فـؤاده، بسـطت نفوذهـا علـى مسـاحة فكـره ونظـره. لـذا تجـده يـرتعش وجـلا بمجـرد أن يـذكر أسمها، أو حين يهف على باله طيفها.

أنهـا وجـه التحـدي أمـام سـعيه، أنهـا العـالم الثـاني الـذي يأمـل الوصـول إليـه، حيـث المـؤمن يتعبـد فـي صـومعته مـن أجـل جنـة الخلـد، وهـو فـي قناعـة نفسـه جنتـه وصـومعة فـؤاده وفردوسـه سـتكون وفـاء فـي آخـر المطـاف. تلـك التـي يتأمـل أن تنتشـله مـن وهـدة الضـياع..... والحقيقـة جمـع فـي ذاتـه عناصـر الحـب وكـم الفـرص لتحسـين وضـعه العـاطفي والمـادي فـي المسـتقبل القـادم بتواصـله مـع وفـاء، كونهـا ابنـة الخلـيج الغنـي، وكونهـا تحفـزه وتشـجعه علـى العمـل داخـل الإمـارات لتحسـين وضـعه، بتلـك المحفزات كانـت قـد غذت رغباتـه الواهيـة فـي ذاتـه، جعلتـه عـودا صـلبا لـن يتخـل عنهـا، كحلـت عيونـه بمـرود ثراهـا، جملـت رغبته بحسنها ورقيها.

لتلك الأسباب بنا أسس رغباته العاطفية إلى جانب رغباته المادية على ضفاف شواطئ وفاء الساحرة. بات يرى أفق مستقبله يمتد لزمن عشقه على سواحل أبوظبي، الفرصة سانحة طالما هناك من يذلل الصعاب أمامه دون تكلفة.

نعم؛ إلحاح وفاء على تجاوز المسافة الفاصلة بين أبوظبي والقاهرة جعلته يشرع بتنمية مهارته في العمل وتطوير رغبته في الهجرة، بحيث تحولت الرغبة من هجرة داخلية لهجرة خارجية، من رغبة انفلات من قيود القرية لرغبة تطوير الذات وتوسيع الحالة المادية والعاطفية في مجال أوسع حركة وأفضل مكانة، بات أكثر إدراكا ووعيا وغننا ورفعة.

العمل في القاهرة مكفول بالعلاقات والخبرة والدراية، بها يحتاج الفرد لعيون تصونه من شر البشر ومادة تكفله، وهو المكبل بجنيهات بسيطة مما يقبضه جراء عمله لا تقارن بأفراط العملة الصعبة التي سيتقاضاها في الخليج، وإذا ما وصل هناك؛ سيتخطى عتبات فشله وسيعيد توازنه وتوازن أهله من بعده.

6- استغلال وفاء لإبراهيم

نزاله الأخير مع سلوى حثه على مواصلة طريدته وفاء، حيث أحس في وفاء تكمن درر الفتنة والجمال والمادة، في ظنه لن يجد شبيهة لها على المدى القريب والبعيد، على الرغم من أنه لم يشاهدها على حقيقتها. لقد جنح خياله بعيدا، ظل يغرد خارج حدود السرب وحيدا، أستنبط خياله من منهل صورها ومن لقطة المحادثة الفديوية التي كشفت له عن مفاتن وجهها، فما بالك لو ألتمس حقيقة محاسنها السفلية وطبق ثراها المدفون في ثنايا الجسد. لذا طفق يرفق مشاعره بقوس مشاعرها، بلحظة لقائها ومشاهدتها وجها لوجه. هكذا كان يأمل نفسه ويمني ذاته بالوصول لشواطئها.

والمثل يقول" القرد في عين أمه غزال"، ولا أنسى سراب أبنة الجار تلك الحورية الخمرية، ذات المواصفات الهجينة المعبئة بالين والرقة والجمال والعذوبة والجاذبية، والتي تعشقها النساء قبل الرجال. تلك الفاتنة كانت قد أغرمت وتعلقت بشخص قروي قبيح الملامح، ذات أنف مقروض وطول ناشز، يقال حين كان في القرية هجم عليه كلب فقرضه أنفه فترك أثر خدش في خدوده. مما جعل وصفه مشين ناهيك عن طوله الناشز وسمرة بشرته الفاحمة الدميمة، ربما اختارته لنزاهته وحسن خلقه، فلم تصبر أو تهنأ حتى تزوجته، وجدت في بأسه وطيبته رضاها، فضلته على طابور من الشباب. عندها صدقت بأن الحب أعمى.

على أية حال بقي إبراهيم ينظر لوفاء بمنظار خاص ليس لها قرينة في عالم النساء، هيَّ أرقى وأجمل ما خلق الله من وجهة نظره.. لذا بين فترة وأخرى كان يشحذ أشواقه بفتنتها وسحرها، فيرسل لها رسائله عبر برنامج الواتس أب، ثم ينتظر ردها. لكنها أحيانا لا ترد عليه، فيحاول الكرة حتى يكسر جمود الحالة العالقة بينهما، كي لا تبرد نار أشواقه، وإذا ما تأخرت فأنه يعزز اتصاله بها بعد يوم أو يومين برسالة جديدة، وهكذا دواليك...

ارسل لها رسالة شوق ليطمئن عليها كتب فيها بيتي شعر قال فيها:.....

(ما مرّ ذِكرُكَ يا وفاء إلا وابتسمتُ لهُ

كأنكَ العيد بطلته والباقون أيّامُ

وإذا حَامَ طيفُكَ في سمائي طِرتُ أتبعُهُ

فأنتَ الحقيقةُ والجلّاسُ أوهامُ) ...

.. حينها أخذت وقتها وردت على رسالته بكسل...

- نعم يا إبراهيم تفضل...
- كيف حالك؟ ...اشتقت لك لم أحتمل صمتك طويلا، لن أصبر على غيابك، وددت أن أسأل عن وضعك وصحتك والاطمئنان عليك.
- أنا مريضة، نائمة في الفراش لا تتعبني.

- ماذا بك يا حبيبتي؟ لماذا لا تذهبي للطبيب.
- لا أستطيع أن أذهب للطبيب، لا أملك شيء، لقد صرفت نقودي على إصلاح العجلة، ولا أرغب أن أتعبك معي أو أطلب المعونة من أحد.
- كيف تحتملين المرض، لابد من علاج..
- يكلفني ذلك كثيرا..

هنا برقت تلمع الشهامة في صحن الفكرة، أنه أبن الريف، لابد أن تطفو قيم البداوة فوق المدنية وفوق كل شيء، كان لابد أن يبين لها عمق شغفه بها واهتمامه الكبير، لذا مال إليها سائلا...

- وكم يكلف علاجك؟
- على الأقل 300 دولار، 100 دولار كشفية الطبيب و200 دولار قيمة الأدوية... يا أبراهيم هل تتمكن من مساعدتي؟

إبراهيم فكر في الموضوع، أنها مريضة، لابد من الوقوف إلى جانبها، كل شيء ممكن يحتمل إلا المرض. والمبلغ ليس بالكثير لكنه كثيرٌ عليَّه، أنه قد ساندها من قبل بمبالغ فلابد أن يسندها في محنتها، وأن أبى ذلك ربما سيسقط في نظرها، ستقطع علاقتها به نهائيا، الموقف هو موقف رجولة وحد فاصل بين الجد واللعب، وهو الذي يتأمل أن يصل لها ولشواطئها، هو الذي يرتجي زواجها، وقد بنى آمالا عريضة على العيش في الأمارات وفي أبوظبي بالذات، ولن يحقق

حلمه دون مساندتها واستمرار توجدها في حياته... إذا يجب أن لا يتردد في تقديم يد العون وإلا ستكتشف تخاذله ومن ثم تعده مزيفا كالآخرين. يجب أن لا يكون بخيلا في نظرها، والمرأة تكره الرجل الكاذب والبخيل والخائن، لذا أسرع في ترقيع الفتق بمخيط عطفه.

- لا تهتمي ولكني افتقدت عنوانك، هل لك أن تعيدي أرساله؟
- أذهب لأي بنك وأبعثه على هذا العنوان ابوظبي بنك ابوظبي ورقم حسابي،00000000000000.
- بكرى سيصلك المبلغ.
- شكرا على لطفك، أعتبره دين في رقبتي لن أنساه.
- المهم سلامتك...

فكر كثيرا قبل أن يقرر أرسال المبلغ لها، وضع حلمه نصاب عينيه، عليه أن يواصل مسيرته نحو هدفه، أن يتدرج في صعود سلمه لا أن يقدم تضحية إزاء ذلك، لا بأس أن يتقدم خطوة ويرجع خطوة، المهم الحفاظ على الخطط المستقبلية والتواصل، فما يصرفه لن يقارن بما سيتقاضاه من الدولارات في الإمارات، وعليه بناء الجسور الطيبة لتعضده، لتوصله لأبوظبي.

وفي اليوم التالي أستأذن من صاحب العمل لساعة وأدعى بأنه يود أرسال مبلغا من المال لأهله.

ذهب لبنك القاهرة صاغرا، وأرسل المبلغ بيسر مثلما فعل في المرة السابقة قبل شهر، مرة أخرى شعر بسعادة غريبة وزهو غمر ذاته، لأنه بعد الآن سيتمكن من أن يفرض نفسه وشخصيته عليها حسب ظنه، سيتمكن من أن ينطلق بمساحة الحديث معها، من أن يمسك بعصا أحلامه من المنتصف، أن يفرض جرأته وغايته، أن يفرغ مخزون قلبه من الأشواق في جحرها، أن يقرع باب الصمت بإصرار سعيه، حتما سيتمكن من أن يتسلق سلم الود بأمان وعاطفة.

خلال مسيرة حياته ومن خلال التجارب شعر بأن الغريزة دائما ما تكون أقوى من الإرادة، تتركه يعاني في المواقف الحرجة، تبين له ضعف شخصيته.. دائما تأسر هواجسه، تقوده نحوى الرذيلة بشكل من أشكال التجرد، تجرده من ردائه وشخصيته الحقيقية.. لا يستطيع السيطرة على نفسه، يهجس بحدة الأمر تفوق طاقته، إرادته لا تمتلك مفاتيح المراوغة والمرونة الزائدة أمام عصفه الداخلي، لم يتمرن على ذلك، خاصة إذا ما علمنا بأنَّ برجه هو برج السرطان المائي حيث تؤثر على تصرفاته بقوة برجها الناري.

دائما ما تراه متقلب المزاج، حائر في فكره، يمشي خلف ظنه وغريزته كالأعمى، حيث باشتداد العاطفة يخسر ميزان عقله. العاطفة ترتع في صحنه بشكل مفرط، فهو ذات خيال واسع، ممكن ان يتجول بيسر في عالم الميتافيزيقيا. أنه يبدو كطير مهاجر في عالم الأحلام البعيد عن واقعه الملموس، باحثا عن

رومانسية شفافة تحتمل إحساسه المرهف وإرادته المهلهلة، في ظل حياة صدئة وصلدة تحيط به.. لذا تجده لا يستطيع أن يتخذ قرارا آنيا في مجال العاطفة، لن يتمكن من أن ينهي شذوذ أمر علق في سلوكه، ولا أن يصرخ بـ لا في وجه قدره، أنه مأسور، سجين بقيد الهوى تماما.

كما أنه بعد أن عرف مسلك العاهرات، صار زبونا دائما يتردد باستمرار على ذات الوكر الذي أرشده إليه صاحبه مصطفى، وذلك كلما وجد الفرصة سانحة أمامه، أو شعر بحاجة غريزية لابد من فضها في صحن سلوى.

صار يتعنى للوكر منفردا بعد أن بنى ثقة مع سلوى، هجس براحة مع غانيته، صار يستغل أوقات فراغه بممارسة الجنس مع سلوى بانتظام، بعد أن كشف له صديقه الغطاء..

كان ذلك قبل أن يقرر عمليا رغبته بالهجرة من مصر إلى الإمارات، صار يختار طريقه دون صحبة مصطفى، وجد المسلك ميسرا لدروبهنَّ وخاصة تلك السمراء التي ظفر بمباهجها أغنته عن حاجته الغريزية، تلك التي تعلق بجسدها تعلق السحر بمفاتنها، تلك الثعبان المُسلة المسماة سلوى تمكنت من تطويق رغباته ودفنها في جحرها.

تلك المباغي أجورهنَّ زهيدة، لا ضير من أن يدفع بعض المال مقابل أن يدفن شبقه في جسد عاهرة تسلك أموره، تُبرِدْ مكينة حرثه التي ما عاد يحتمل زنها، باتت تحرث فكره

وتقلب جمر عواطف قلبه باستمرار مع كل فتاة تبهجه، تشحذ فكره بثورة الزن ضد العزوبية. رغم محاولاته التي لا تتعدى أصابع اليد، إلا أنه عدها نزوات مراهقة وصبينة وفت له بالغرض.

إضافة إلى ذلك فأن تلك المحاولات لم ترتق لحقيقة الشعور بالاستمتاع الجنسي الكامل كما هي العلاقة الحميمية بين الزوج وزوجته.. حين تندمج المشاعر في بوتقة الحب وينصهر مخزون الجسد العاطفي بلظى الجسد الآخر، وحين تذوب الوشائج وتمتزج العواطف وتتمزق أنسجة الرغبة والصحف المجنة، حين تغتاظ وتنفض الغبرة بفرشتهما أمام عصف الريح الهائجة. عندها يكون الإنسان قد أمسك بالعروة الوثقى، يكون قد أدرك الفردوس الذي سعى خلفه....

تلك المحاولات جاءته زائرة، والقسم الآخر عابرة، جاءته جسدا بلا روح كأم سامح وسلوى اللتان حلّتا كرباب الصيف، لطفا أجوائه الساخنة بزخات عواطفهما. أنها مجرد فرص عمل (بزنس)، تنتهي المتعة بانتهاء المسبب لها، الجنس مقابل المادة ..

بات يذهب للحالة وهو يعلم بأنه هو الخاسر الوحيد ماديا، ونفسيا، وروحيا وقيما وأخلاقا، ولكن ما في اليد من حيلة، ما من حل جذري لظرفه الطارئ. تمسكه بالحل المؤقت يساعده على رص مخزون رغباته، ليتمكن من رصد مصيره بتجارب وحِكمْ تعينه على تخطي عقبات الغد. نعم أن الخسارة

مقابل ترفيه الذات معادلة تعود إليه بفائدة النسيان والصحة، تنسيه همومه وتبعد عنه قلقة الفكر، وإلا فلن تستمر الحياة بقدم واحدة. ولكن الخسارة قد لا يلتمسها بذاته أنما تكون واضحة للعيان وللمجتمع، حيث تلون ذاته نقط عبث سوداء تكون واضحة المعالم لغيره، ذلك ما يبغض شخصه...

ماديا؛ كان يدفع كما تشاء المومس.. نفسيا؛ فأن مبتغاه فضلات متروكة يتلطخ بنتنها بين فترة وأخرى، وهو يدرك بأنها حالة لا تدوم معه سوى دقائق، بعد العملية يرجع نادما لحالته الأولى، مشردا داخليا وروحيا؛ كأنه يجلد ذاته بسوط عصيان الدين والقيم والأعراف التي تربى عليها، ناسيا أخلاقه ومكانته واحترامه لنفسه وعائلته، كل شيء صار يتعرض لاهتزاز وخلخلة داخل كيانه.

لكن وفاء ليست كتلك الفتيات، أنها تختلف بنوعيتها وإطلالتها، لو كانت زانية ما كانت تفكر أن تستلف منه وهي حلم كل شاب بمفاتنها، شكلها وأناقتها لا يوحيان بأنها من المومسات الفاجرات، لابد أن يكون غرضها هو الترفع بالقيم، وربما تتقصد التسلية التي لم يكتشف سرها، وقد تكون جادة في رغبتها لتلتقي بأبن الحلال كجارتنا سراب..

قد تفكر بالمادة لغرض أو لحاجة ما، النساء جميعهنَّ لهنَّ ذات السلوك، لن يكفيهنَّ أموال الدنيا، وأكيد هيَّ من المتعففات ولن يكون ذلك كار لها كما هو واضح من صورها. فتنة الجمال تدل على أنها ليست بحاجة للمتعة والاستمتاع قدر أن يشغل

بالها الاستقرار وهدوء البال.. وأكيد لها لذة شفافة تشفي غليل المتعطش لها. فتلك الأنوثة تخفي في أعماقها كنوزا لا تنضب يتأملها كل رجل... كما إصرارها على إيصاله لأبوظبي دليل آخر على أنها تبحث عن مستقبل واستقرار، وإلا الشباب كثر الذين يدورون حولها..

إذا لابد له من محاولة الوصول إليها، بعد أن تمكنت مخالب سحرها من خدش وجه أحاسيسه والسيطرة على هواجسه وعواطفه تماما. فهو إن شاء وإن لم يشأ أضحى كحمل قانط بين مخالب ذئب.

أتصل عليها بعد يومين من أرسال المبلغ لها ليطمئن على صحتها، ومن ثم صار يتصل بها على مدار شهرين متتاليين بمعدل مرة في الأسبوع على أقل تقدير. مثلما تواصل معها تواصل مع أهله وصار يطمئن عليهم ويرسل فتافت ما يستطيع أرساله لهم، ليبقوا معلقين معه على أمل التغيير المتأمل لانتشالهم من واقعهم.

خلال تواصله مع وفاء بات يتنقل بالمواضيع بين الواتسآب والبرنامج الشات، بين الرسائل وغرفة المحادثة، وفي كل مرة يغوص معها في أحاديث شجية وعاطفية يزداد إصرارا وتعمقا بمواصلتها. صار يتغزل بعينيها وبشفتيها، تجرأ أن يوصف ساقيها رغم أنه لم يراهما، وكل ذلك ضرب من الخيال من خلال الصور التي شاهدها في الإنستكرام، حتى أدركت ضعفه بها تماما، فقررت أن تنقض عليه بمخالب

الشوق، أن تعشمه بها بقرب ظهور هلال العيد في سماء قلبه، قررت أن تشله بوخز عذاباتها متى ما شاءت حتى يستسلم لها تماما.

لقد وجد إبراهيم نفسه في مأزق بين العاطفة والمادة، حيث عمله وما يقبضه من مرتب الذي تضاعف مع مرور الأيام والبخشيش الذي يحصل عليه، صار لا يسد مصاريفه الموزعة بين إعانة أهله واستنزاف وفاء ومراودة سلوى ومصاريف المعيشة.. أنه أضحى ممزق ومشتت بين تلك الجهات، ولابد الكف عن استنزافه وتهوره وإعادة تخطيطه...

وفي آخر محاورة جرت بينهما من خلال برنامج الشات قررت أن تشجعه على الإسراع في الوصول لها، أشعرته بأنها تمر بعاطفة جياشة نحوه، وأنها في شوق عارم للقياه والتعرف عليه عن قرب.. تلك المقدمات ابتدأت بها لتكون مفاتيح تحثه على أن يدفع لها ما تطلب من مبالغ تحتاجها في الوقت الذي تشاء، وهي مدركة بأن وصوله وأن لم يكن مستحيلا عليه، إلا أنه ليس بالأمر الهين، وهذا يعني ربما سيفشل بمحاولاته ولكنه سوف يبقى متعلق بها ومتواصل معها، وبذا سيستمر مسلسل الاستنزاف المادي على حسب ظنها ورغباتها.

آخر محادثة جمعتهم والتي جرى حوارها على الشكل التالي، كانت قبل أن يقرر السفر للأمارات بشهر..

- وفاء أحبك ولا أعرف حقيقة شعورك تجاهي.
- يا إبراهيم أنت لو تأتي وتراني وجها لوجه ستعرف ما بداخلي تجاهك، أنا متشوقة لرؤياك لا تحرجني..
- أتمنى ذلك وأتمنى أن تجمعنا الآراء وتدفننا في وكر واحد.
- لم لا...تعال وستحل كل اشكالاتنا بإذن الله.
- أنا فعلا جاد في القدوم.
- لا تجعلنِي ألح عليك كثيرا، الوقت ليس بصالحك أن تأخرت، إلا تحبنِي؟ ألا تعشقنِي؟ إذا لابد من أن تكون قريبا مني لألتمس مشاعرك، ثم مرتبك هنا لا يقل عن ألف دولار في الشهر، ثم أني أود أن ألتمسك عن قرب لقد شغفت قلبي.
- صحيح ما تقوليه؟
- .. وهل عند شك في ذلك؟
- لا لا، بالعكس أني أشعر بالفرح والغبطة، ثم اني لا أعرف أن وصلت أين سأذهب، من سيستقبلني، وكيف سأصل لمبتغاي؟
- خذ فيزا وتعال إلى منطقة **المصفح**، هي مدينة صناعية كبيرة في أبوظبي، فيها العمل متراكم، تستطيع أن تعمل من أول يوم تصل أبوظبي.
- حقا! يعني المسالة غير معقدة؟. إذا انتظريني.

- وأنا في انتظارك، لا تتردد، حاول جاهدا، وإذا وصلت أبوظبي أتصل على الرقم التالي لاستقبلك واذلل المصاعب امامك 0971500000000.
- حاضر وهو كذلك أعدك سأبذل قصاري جهدي بهذا الخصوص وشكرا على اهتمامك.
- يا إبراهيم سامحني أن أثقلت عليك والحقيقة أنا أمر بظرف معوج خلال هذه الفترة، لكني خجلة منك...
- لم أفهم يا وفاء ما بك؟
- أني بحاجة ماسه لـ 200 دولار.
- كيف يا وفاء، أليس هذا كثير ونحن لا يجمعنا سوى كلام طائر في الهواء؟
- على راحتك أنا فقط شرحت لك ظرفي أن كنت تتمكن من مساعدتي فلا تقصر.
- لالا أنا أحبك، وأشعر بسعادة حين أقدم لك المساعدة.
- وهل يبخل الحبيب على حبيبته بمبلغ تافه؟ فأنا أنتظر منك المبلغ غدا وأعتبره دينا في رقبتي... وأسمح لي بالذهاب الآن.. تقبل تحياتي.

علقت المحاورة وخرجت من غرفة المحادثة، جعلته يتقلب في حيرة من أمره، بين أن يقاطعها وبين تعلقه بحلمه الذي يراوده، شغف وصوله للإمارات والتعرف عليها عن قرب بات قاب قوسين أو أدنى بعد أن أسعفته برقم هاتفها الخاص الجديد... وربما تقبل به كزوج لها، تلك هي أحلامه السادرة التي يرجوها... وقد ظن بها أنها قد أخذت على خاطرها،

وأضحى في شك من زعلها، ولن يكسر هذا الزعل إلا إذا لبى رغبتها.

ضاع في زحمة أفكاره، تاه في حسم القضية التي لفت حبل الود على عنقه، بقي ساهدا ليله يتقلب بفراشه، حائر بين قراراته، بين الانصياع والتأمل، وبين هروب وتنصل، تراوده أفكارا متناقضة، تموج بين محبة وفاء له وبين أن تكون امرأة لعوب تمتص دمائه كبعوضة الأنوفلس. لقد عطف عليها مرات عديدة، أحيانا كانت تطلب منه المعونة بين شهر وشهر، واحيانا تطلب مرتين خلال الشهر الواحد، هكذا أنهكت جيبه، يا ترى هل تصرفت بتخطيط أم بعشوائية؟

ولكن في نهاية المطاف تكون الغلبة للعواطف والقلب على الظن والعقل، لن يستطيع أن يتنصل ويهرب من واقع مشاعره التي تصِبُ في بركتها، شعر بأن هذا المبلغ حتما ستتبعه مبالغ أخرى حتى يتمكن من أن يدرك حلمه، أو يتراجع للخلف، حينها يكون قد كوى قلبه بمكواة فشل جديد. فهو لا يحبذ أن يرتد عن سعيه، من بدأ طريقه بخطوة عليه مواصلة سير نهجه لنهاية النفق. تمكنت وفاء من تسليك قلبه في دروبها، جعلته يبحث عن النشوى والغنج المشدود بحسنها وجمالها ورقتها ولطافتها، لولاها ما ترك القرية ولا فكر بأبوظبي.

ثم أن شعوره أخبره بأنه على بعد خطوة واحدة من تحقيق حلمه لإدراك نهاية المطاف الذي وعدته به وفاء، مرحلة

يجب أن تُصفى من الشوائب لا أن تكدس بالعقد.. لا تكاسل، لا عناد، لا تنصل من أبجدياتها..

هذا هو الوقت الحرج، لابد عليه أن يمشي بتأن بجانب الحائط، لابد أن يلتزم بالصمت والسكون ليتجنب ويلات عاصفة الفشل.

مثلما بعث لها سابقا من بنك القاهرة، ذهب صاغرا خلف عواطفه وحلمه مرسلا لها مبلغ 200 دولار على رقم الحساب المدون في حاسبة البنك. طبعا هذه الدفوعات صارت على مراحل تقسم على مدى سنة تقريبا قبل أن يشد الرحال لأبوظبي.

عمل قرابة عام وخمسة أشهر في ورشة أبو كفاح حتى تمكن من جمع مبلغ لا بأس به، رغم أعانته لأهله ببعض المال مما يكسب، إضافة لتلك التي سلتته من جيبه وفاء بإذكائها، وبعض حالات الودق التي كان يرشقها على نفسه الظامئة في جحر سلوى، كل ذاك لم يكن سوى ضريبة يدفعها نتيجة أغلاط والده الذي تورط بالثأر..

كما أعتبرها طاقة يشحن ذاته بها كي لا تتصلب شراييه وينسى رجولته، وخاصة أنه جعل حبل المودة يرتبط بمحاسن سلوى وغنجها، تلك التي راقت له كثيرا وزادته رغبة في إدراك وفاء، فأنسته همومه.

وخـلال تفكيـره البسـيط طرقـت أذنيـه صـفة العهـر الملتصـقة بوصـف تلـك الفتيـات اللاتـي ينشـرن صـورهن فـي بـرامج السوشـيل ميـديا مـن أجـل وضـب علاقاتـه المتشـعبة والحـد منهـا، قـد تكـون وفـاء أحـدى تلـك الفتيـات، لقـد سـلتت مـن جيبـه مبـالغ كـان مـن الأجـدر أن يحـتفظ بهـا لمسـتقبله، إلا أنهـا تمكنـت بـدهائها مـن أن جلـده بجريـرة ضـعفه وهوانـه، فلـو تعرفـت علـى عشـرة مـن الشـباب علـى شـاكلته؛ فأنهـا ستضـمن فـي جيبهـا 1000 دولار شـهريا دون أن تعمـل أو أن يكلفهـا ذلـك مشـاق الجهـد، ودون أن يعـرف فرائسـها باللعبـة المـدارة حـول أعنـاقهم، ولا يمكـن كشـف تلـك الفتـاة السـليطة بـدهائها إلا مـن خـلال التجـارب. أنهـا فعـلا ذكـاء ودهـاء، ولكـن هـل هـيَّ كذلك؟.....للزمن كلمة الفصل والحق.

الفصل الرابع

1- سنة 2010 سفر إبراهيم

تمكن إبراهيم من الحصول على فيزة سياحية لمدة شهرين من شركة طيران دبي لزيارة الامارات في شهر شباط من عام 2010 بعد أن دام عمله كسمكري في ورشة أبو نجاح مدة سنة ونيف تقريبا خلالها اتقن المهنة بشكل ممتاز، ساعده رفيقه مصطفى الذي صار هاجسه المنقذ في تخطي ازماته. وكان قد تمكن من جمع مبلغ لابأس به من المال من خلال جدية عمله كسمكري يمكن به تحمل صعوبات وتعقيدات الفترة الأولى من مغامرته الجديدة حتى تستقر أموره، يستطيع خلالها تجربة حظه في ميدان العمل في منطقة المصفح كما اشارت إليه وفاء. كما يمكنه من تحقيق أمانيه المادية والنفسية بزيارة وفاء والتعرف عنها عن قرب وتطوير عمله في ورش ابوظبي.

أنها فرصته التي عول عليها كثيرا مع بداية تفكيره بوفاء، وها هي أصبحت بمتناول اليد، وقد يرتقي سلم المجد إذا ما أحسن التصرف، قد يجعلها خاتما في اصبعه إذا ما استصلح شأنه واستطاع أن يعمل بمرتب جيد في مجمع المصفح مثلما ارشدته وفاء قبل أن يلتقي بها.

قد يتمكن من خلال عمله تحسين وضعه المادي ببضعة أشهر بعمل ما يرفع من شأنه وقدره أمام حبيبته، وقد يرفع من شأن أهله عاليا في القرية.. نعم في الواقع مجازفته تستحق المغامرة وهي أكثر من مجازفة وأكبر من أن تكون فرصة

سانحة، أنه ذاهب إلى المجهول لتطوير الوضع النفسي والمادي والمعنوي، معتمدا على نصح تلقاه من فم فاتنته التي سلبت فكره وقلبه وجيبه قبل أن تحثه على المجازفة، والحقيقة تقول **فاز باللذات من كان جسورا**، وعليه أن يكون جسورا ويتقبل عبث المجازفة ليمسك بأذناب الفرص والنجاح الذي صار له قوائم كقوائم الغزلان يلهث أمامه حظه...

إذا لا بد من ترك البلد والمضي خلف أهوائه مهاجرا لدول الخليج، باحثا عن رزق أفضل يفي غرضه، ويرتقي به درجات السمو. رزق يزيل عنه بقايا العقد الشائكة العالقة في مسارب سعيه، يفسح له المجال لأدراك حلمه، ذلك المارد القانط خلف المجهول في عالم الغاب، أشبه بالسدم الذي لا يعرف له أول ولا آخر، لن يستطيع بمثاقب عينيه أن يخترق الجدار العازل المحيط به بنظرة فطرية ريفية؛ أن لم يستند على يقين مفعم بالأيمان وقرار حازم يثبت أقدامه.

هاجس ما صار يدفعه لخوض التجربة، يحرضه على السير قدما بتجاه المجهول، ينبئه بأنَّ خلف هذا الحاجز يكمن كنز ثمين قد يجله لغايته المرادة. لقد قرف ذاته الضائعة بين نوايا الفكر وتعسف سلطة الاعراف والعقد والقدر، أن يتجاوز ذلك الروتين من العاطفة ألملتصقة في حياته كالغراء يعيق سعيه، مهما علا لا يستطيع تجريد ذاته القوى المجهولة المتحكمة به، قوة انتمائه وجذوره وعيوبه وعاطفته وهو يحاول قدر الامكان فل تلك العقد ليتحرر. لقد دخل في مضمار السابعة

والعشرين من العمر ولم يزل يراوح في مكانه رغم التغيير الطفيف الذي التمسه منذ سنة، لكن ذلك لا يفي بالغرض، عليه أن يخترق الحواجز كرصاصة نافذة، يخترقها عنوة جدران الحواجز، ليتجاوز حالة الاهتزاز التي تربكه وتضعف يقينه.

كان قد أستند في قراره على عدة أمور؛ أولها: تجربته بعد ترك قريته كانت قد أغنته بالمعرفة وغيرت من شكل الروتين والقواعد التي كان عليها، بمغامرته الأولى كان قد جزل الرذيلة والفشل التي كان عليه بالقرية بشيء من الحرية والتحكم بالقرار، التمس الفرق بين ما كان عليه وما أصبح رصين في شخصيته. ذلك التغيير الذي أثاب إلى تبدل وضعه النفسي والمادي والمعنوي والفكري والتأملي، في الوقت الذي جدد فيه حيويته وألقه.. كما أنه أصبح ذات إرادة مستقلة، المغامرة جعلته يبدع في العمل، يجدد حياته ويطور أحلامه. إضافة إلى أنه وجد في حريته حركة أوسع وتغيير دماء، فما كانت أم سامح وسلوى والورشة سوى محطات طاقة تحثه على التجديد دمائه والتوسع بالتغيير والتألق المستمر.

بتحركه عن موضعه خطوة واحدة فأنه يتغير محيطه بمثابة خطوة بذات الاتجاه، بتحركه كان قد نقل ذاته لحالة جديدة، فيها تنماز واضح عما كان عليه من سكون، لقد تمكن من أن يفل من مجموعة العقد وقواقع النكد عبر مراحل حياته، ليجد دائما أمامه فسحة أوسع مما ترك خلفه، فسح مشبعة بتقلبات

الأوضاع المحيطة به وبتبدل المزاج وكسر الروتين. فالإنسان طوال حياته عليه أن يتجدد ليكسر طوق الروتين.

أنها لم تنقله نقلة نوعية لواقع أكثر إنارة وحركة فحسب؛ أنما لواقع أكثر اختلافا واختلاقا وعمقا وثقافة وغناً وتأملا ورجاء وتقلبا، أكثر احتمالا وهوسا وسعة مما تشهق به أنفاسه ورغبته.. رغم ذلك أنه لازال يدور في ذات المساحة والعادات والتقاليد المتجذرة به فتلك الثياب صعب عليه نزعها، على الرغم من أنه قد تحول من بؤرة لأخرى ضمن مجازه، تحول من عرف لعرف، من واقع لآخر، من هدوء لزحمة وفساد ونصب وتجني، من عالم جليٌ معروف لعالم مجهول تختلف فيه المبادئ والثقافة... كل ذاك كان يحتاج إلى رص ذاته بالثقة والثقافة والتكوين الذي ينقصه، رصها بالتأمل والنجاح والانطلاق الذي تجببه.. هكذا صار يشعر ويلتمس أجوائه الجديدة ويكتسب ثقته بنفسه من تجاربه من خلال انحراف بوصلة ذهنه وسلوكه وتصرفاته بـ 180 درجة عما كان عليه في القرية..

فيما مضى كان يعيش في زاوية كعليل ضمن حدود ضيقة دون أن يدرك ذاته، بينما أضحى يعيش في حالة مشعشعة بين ثقافات وأطر منوعة وسط المدينة، لحجمها ووسعها بات يشعر بالضياع لقلة تجاربه واحتكاكه، أضحى منهكا نفسيا، مريض فكريا وجسديا، لكنه متحررا كطير مهاجر لا أحد يتحكم به. فيما سبق كان معتكفا وسط حدود عائلته وظرفه

الأعسر؛ حتى تمكن من يطلق جناحيه كطير مهاجر وسط هباب الفوضى المحيطة به..

لقد تمكن من كسر حاجز الخوف، تعلم لغز المغامرة والمجازفة، أفادته التجربة السابقة كثيرا، هيأت له فرصة خوض تجربة حياة أكبر مما كان يتوقع، دار في صحون العقد والمرار، خرج بنتائج مرضية، بحياة فيها شروع ومجازفات حتمية تطفق إلى الرقي وتطفق إلى الخذلان. عليه أن يكون أكثر بصيرة كي يتجنب الخذلان.

وكما وصفت له ذلك وفاء؛ فأن في السفر تكتشف الأسرار وربما تقترب النوايا من واحة الأحلام، يستطيع تلمس إرهاصات الرغبة الذائبة بشجونه وأفكاره، وقد تبسط له حلول العُقد ويتمكن من أن يشرع في رسم خارطة طريق جديدة تقله لبر الامان، وقد تسمح له الظروف الجديدة والزمن المتقلب من أن يكون سويا بقيمة وقدر حبيبته، أمنية تاقها كثيرا بعد أن عرجت به المنعرجات بين منعطفات الخسة والصبر والمرار.

ألتمس من خلال الهجرة فرص سانحة لتبجيل الذات، علمته صيغ حياة جديدة، علمته بأن الحياة لا تقف عند نقطة، علمته الصبر والجلد والمحاولة بعد أن صارت لديه خبرة كافية لكشف الألاعيب والألغاز التي كان يتجبب منها، عرف من أين تأكل الكتف، صار ذئبا بعد أن كان حملا داخل قريته.

أخذ الكثير من شخصية عبدالمنعم وفتنته وخباثة أم سامح وتنعم بطيب مصطفى وبعطف صاحب الفندق وبرشاقة سلوى. جمع تلك التناقضات في شخصيته الجديدة، علمته أين ممكن أن يضع قدمه في الخطوة القادمة. فلم تبقى أمامه سوى عقبة وفاء، تلك التي في الظاهر تعينه على ترميم ذاته المشتتة وفي الباطن تجز رقبته على صخرة المذبح، تلك التي بها ممكن أن يصل بأمانيه البدائية لبر الأمان أن كان خادما صعلوكا أو نبيا، وقد تنزلق قدمه ويضيع في جب العاطفة، وعسى أن تتوج عاطفته الجياشة بنور وفاء تلك التي عصرت أشواقه خمرا لنديم كاسه.

إذا لا عوائق، كل الأمور ميسرة أمام إصراره وعزمه ومخططاته، لانت العقد بيسر لا يتوقعها، حيث تمكنت وفاء بحذاقة إطلالتها من أن تقلعه من جذور القرية ثم قلعته من جذور مصر، وأن تمحي من ذاكرته طفولة عرجاء وشباب مقعد. تمكنت من أن تعيد له ثقته بنفسه التي كانت قد تحطمت بمطرقة سعاد، وأن ترفده بطاقة من الإصرار على تغيير منهج حياته، وأن تزرع في ربوعه أمالا وردية بهيجة يبهج بها حقله وحقل العائلة، وبالذات ما يتبع أمه وأخوه وأخته المركونين بين مخلفات الوالد وصعر التقاليد والاعراف....

ودع العم أبو كفاح والذي نصحه بعدم الذهاب، كما ودع صاحبه ورفيقه مصطفى الذي شجعه على المجازفة.. كانت آراء مصطفى تناقض آراء العم أبو كفاح حول عزم إبراهيم

علـى الهجـرة لـدول الخلـيج وذلـك كـل يبحـث عـن غايتـه ومصـلحته، لـذا وجـد منـه دعمـا معنويـا، وتشـجيعا منـه لحيـاة أفضـل عسـى أن يتبـع سـعيه مسـتقبلا. فيمـا تكلـم أبـو كفـاح مـن وجهـة نظـر شخصـية صـرفة ومصـلحة ذاتيـة قصـد فيهـا ديمومـة مصـلحة الورشـة المسـتقبلية ببقـاء إبـراهيم قربـه، حيـث أدرك بـأن تواجـد إبـراهيم في الورشـة هـو دعـم إضـافي لهـا والاهتمـام بهـا، عـده سـندا لـه يعينـه علـى خدمتـه بعـد أن أكتسـب خبـرة لابـأس بهـا عبـر سـنة ونصـف مـن الـولاء الممتـاز. فيمـا تكلـم مصـطفى مـن وجهـة نظـر شخصـية أيضـا لرسـم أفـاق مسـتقبله... حيـث وجـد فـي إبـراهيم سـلما لبلـوغ غايتـه، طعـم يسـتخدمه لفهـم لغـز الخلـيج، أنها الغاية في نفسه يعقوب..

لـذا حـث مصـطفى إبـراهم علـى السـفر وخـوض التجربـة ليجعلـه كـبش فـداء حتـى تتوضـح لـه نتـائج تجربتـه، فـإذا مـا أفلـح وأستصـلح حالـه سـيعينه ومـن ثـم يتبعـه فـي الوصـول للأمـارات، وفـي حالـة فشـله سـوف يجنـب نفسـه الخسـارة والمجازفـة ولـن يصاب بمكروه.

مـا ميـز إبـراهيم عـن أقرانـه هـو تفاعلـه واندفاعـه إلـى خـوض التجربـة والمجازفـة والبحـث عـن سـبل الرقـي، التجـارب علمتـه أتخـاذ القـرارات الصـعبة وخـوض المجازفـة وعـدم الالتفـات للخلـف سـر النجـاح، علمـه الـزمن بـأن مـن يرتقـي باختياراتـه لـن يندم. سار خلف شعاره التوكل على الله.

أن السعي خلف الهدف سنة الحياة، وأن سعيه للوصل إلى هدفه بشتى الطرق هو إيمان، ذاك ما دعاه أن يترك أبو كفاح ويتجه نحو الخليج لتطوير مشروعه الذي يبحث عنه بين عيون وفاء وغاية تقبع في نفسه... أتخذ قراره الجديد على محمل الجد، وقبل أن يحين موعد سفره ظفر بزيارة أهله الوداعية ولأجل غير مسمى. ران طيفه في دروب قريته خلف تلك الذكريات التي شغلت باله وأسرت قلبه يوما ما، والتي كانت سببا في هجرة قريته، ولكن بوقع أخف من الزيارات السابقة.

تمكن من زيارة أهله زيارة روتينية، أستمتع فيها بفيض العواطف المراقة بين الجانبين، وأشبع عينيه بصورهم قبل أن يفترق عنهم لرحلة قد تطول كثيرا، فلن يتمكن من التحكم بالظرف.. لقد وجد في النسيان نعمة خص الله بها الإنسان، فشد رحال عاطفته لمطارق سعاد التي لازالت تدك فؤاده بمطارق ذكريات أمس، تلك الغافية بين مقالع الترع وتلك القُبلة الهائمة التي التصقت على الشفاه كصفة النار، لازالت لها صدى في ذاته وذاكرته، لازالت تحرث بور عاطفته بحرارة وجناتها، لازالت ترسم له شكل الآه في أنفاسه الهائمة، لأنها كانت تحمل في طياتها صبغة صدق وبيادر محبة.

وأخيرا بعد أن كوته تلك الذكريات وبعد أن مكث بينهم ليومين، ودع أمه وأخويه كامل وبهية على أمل أن تسعفه

الظروف ليحسن من وضعهم المستقبلي، شرح لهم غايته التي كحلت أعينهم بالفرح، فمحاولته في السعي خلف مستقبله ستعود عليهم بنتائج طيبة، تفتح لهم أبواب الفرج وتضفي سعادة على شعب تفكيرهم.

شدت على يده أمه وقالت له...

- حظا سعيدا يا بني، حافظ على نفسك، لا تنسَى بأنك أبن عادات جذورها قروية، ودع قلبك دليلك.
- ولا تنسانا يا أخي نحن بحاجة لك وننتظر أخبارك بشوق.
- تذكر لك اختت تنتظر عودتك.

دمعت عيناه في محجريه كأنه نظر لهم نظرته الأخيرة، قبلهم وأحتضنهم، ثم ودعهم كما فعل في المرات السابقة، ولكن هذه المرة قد يطول فراقه وأمد عودته عما سبق... ركب مركب التحدي وراغ بإصراره على مواجهة تلك التقاليد البالية التي خطفت حبيبته من بين يديه، ثم أنه لم يكن في ثورته إلا سيفا على الزمن الذي غال في تأسيه عليه، مثلما هزمته تلك التقاليد وهو قابع في قريته سعى لهزيمتها في داخل نفسه وهو في مَنْئًا منها.. أنها أصبحت مسألة تحدي تجبره على خوض التجربة والاستمرار بها إلى حيث أن يمسك بالعروة الوثقى.

لم ينسى وهو خارج من البيت أن يحمل معه الذكرى التي هزته وهزمته، لتزيده إصرارا على مواجهة الواقع الأليم،

حمل معه لوحة سعاد التي تمثل له ماض له قيمة لتشد من تحديه لمستقبله، كي لا ينسى الفشل وهي بجانبه تؤازره وتعضده على كلالة الدنيا.

أتجه للمطار، وما هي سوى ساعة زمن حتى وجد نفسه معلقا في الفضاء كالطيور المهاجرة- فعلا أنها تجربة مثيرة في حياة الفرد وفي حياته بالذات. التجربة مسحت الكثير من سجلات العقد التي كان ينظر لها كمطبات في طرقه وواقع حال من صلب المستحيل يصعب تجاوزه، لكن إرادة الإنسان جبارة، لا تحسب بالزمن ولا بالأرطال، أنما بالتحدي والفكر والإرادة.. حيث كل تلك الأوضاع التي كان يراها عقدا؛ لانت لإرادته، تفتت أمام إصراره كهشيم الحجر، صارت تذرها الريح في فضاء أحلامه، فالزمن كفيل بأن يسوي ما بقيَّ من عوائق في نظره.

ما كان يدرك حلمه لولا بزوغ نجم وفاء في سماء الدنيا، هجس بها طاقة غرست في ذاته اسافين القوة، حثته على تحمل أعباء القرية وتحدي الزمن والشروع بالثورة على الواقع المزري. أزرته على متابعة حلمه المشتت، حلمه التائه في أعماق الرغبة، بثت في وجدانه وظنه شيء من قبس حسنها كطاقة إيجابية، ساعدته على مواصلة التغيير الشامل في مجال فكره.

ما كانت تخطر في باله فكرة الهجرة لولا أن تحثه على المجازفة التي مكنته من أن يحلق في الفضاء ويقترب من

حدود حلمه الذي أضحى قاب قوسين أو أدنى، باتت تتضح ملامح اهدافه تحت وهج الشمس الساطعة، أضحت أقرب اليه من وتين القلب.

وصل إلى أبوظبي بعد رحلة ساعتين ونصف تقريبا من التعليق في الفضاء كالطيور العابرة للقارات، وما أن وصل أرض المطار حتى تبدلت كل أفكاره ولانت كل مشاعره وهو يتنفس الصعداء، يتنفس هواء يحمل من شذى طيب وفاء شيء من النقاء. أضحى يشعر بأنها تحوم حوله كالذاكرة، كالعاطفة ترشده لمكانتها..

وما أن وطأة قدماه أرض المطار حتى أنبهر بمدينة أبوظبي وهي بدت له أشبه بالعروس في زفة العرس؛ لما فيها من بناء شامخ وشوارع عريضة نظيفة وحدائق واسعة، تلك المدينة التي تنام على شاطئ البحر فوق بساط عريض من الرمل، لا ترى فيها رملا ولا بقعة يابسة، أنها أشبه بجنينة ورفه، قطعة من الجنة بنظافتها واشجارها ووردها وخضارها....

انبهر بالنظام المروري والشوارع العريضة، بتطور صرح البناء ونماذجها الغريبة المرسومة بحرفية، بألقها تبدو للناظر كلوحة تعبيرية واقعية، المناظر تنبع من فتنتها كجزيرة يحيطها البحر من ثلاث جهات، البيوت فيها بيوت عصرية كتحف لماعة، النظام سار كالساعة على جميع قاطنيها، الهدوء يطغي على الاجواء، كل شيء فيها يختلف عن القاهرة من عمران ونظافة وبناء ونظم وسحر ورقي.

هجس بأنه دخل جنة الاحلام من أوسع أبوابها، التمس الفتنة وهو في الطائرة وبعد نزول تاه في سحرها.

خرج من المطار مَبْهُوتا، مَذْهُولا، مَشْدُوه البال بِمَ ترى عينيه، وجد أمامه التكاسي صافة بعجلات حديثة فرهة، راقية، أرتقى أحداها متجها إلى المنطقة الصناعية في المصفح حسب ارشادات وفاء له، وكما وصفت له بالضبط أتخذ ذلك السراط المستقيم، فهو لم يأتي إلا للعمل ولقاء وفاء، ومن هناك بدأت قصته الجديدة.

2- منغصات الذات والعمل

ما ان وصل أبوظبي أتجه إلى منطقة المصفح، التزم بتعليمات وفاء وكما وصفت له المشهد، سار على خُطًى ثابتة حذرة، دخل المدينة الصناعية الواسعة باحثا عن فرصة عمل مناسبة لقدراته ليستقر نفسيا وماديا بين زحمة العيون الرائجة لذات الغرض. حيث وجد التنافس شديد وواضح بين الورش ومن كل الأجناس تقريبا البنغالية والهندية والفلبينية والعربية على انواع اقطارها كما أخبرته وفاء، كان لزاما عليه أثبات إمكاناته..

بهر خلال الطريق بما شاهد من عمران متجانس في مدينة الأحلام من خيال فاق خياله، ومن شموخ وارتقاء بهي، كأنَّ أبراج المدينة متدلية من السماء، تلك العمارات الشاهقة المزروعة كأشجار النخيل لكثرتها متراصة بإتقان على مساحة حقل أبوظبي، فالغريب ينظر لها أشبه ببستان بهيجٍ من الابنية الغريبة الأطوار لاختلاف تصاميمها. فيما الشوارع لشدة نظافتها وسعتها ولمعانها؛ تهجس بها ككرستال تنعكس فيها الصور. أنها مدينة عصرية مبتسمة، تبتهج بالخضرة الدائمة وتزدهر بالحدائق والمتنزهات المنتشرة، تلك التي ترتع بأشجار النخل والقرم والصفصاف، والتي تشعر بها كوشم يطوق صدر فتاة عشرينية. فيما البحر الذي يلج بها من كل جانب يشهق بصفاء مائه، تهجس بها ترتدي ثوب السماء في ظل أجواء صافية. حيث المنظر يشهق بالألق والرقة

والأناقة والرفعة، ليضفي على سحنتها بهجة وسعادة دائمة، فهي بحق لؤلؤة الخليج..

هذه التحفة العصرية لن تجد لها مثيلا في الشرق. ذلك الرقي الواضح على وجهها ينعكس على وجوه ساكنيها، تهجس بها وجوه باسمة سمحة تعرف كيف تصنع رقيها وسلوكها، هذا ما يدل على أن وراء ذلك الرقي الملموس فكر ثري واسع، وإدارة ملمة دؤوبة، تسعىٌ بشكل دائم إلى البحث عن الأفضل وبما يناسب تكوين الفرد لتكون بمصاف المدن العالمية..

أنها فعلا كما وصفت وفاء له؛ نقلة نوعية ينعدم فيها الروتين. تلك الصور تدل على تطور مذهل في ذات الأنسان وسموه وفي رقيه وتعامله، تلامس السحر الحضاري في عيون قاطنيها، ولا مانع من أن يبقى محافظا على كياسة وقيافة أبن الريف في صورة الحضارة التي لابد من أن يرتديها.

وحين دكت قدماه المدينة الصناعية في منطقة المصفح بهر بها وبمساحتها الشاسعة وتنظيمها المتزن والتي تختلف عما شاهد من قبل في منطقة الحرفيين من عشوائية، وقد أعجب بسعة المساحة ورقي التنظيم الرائع، شعر بذاته تحتاج لأيام ليلف على كافة قواطعها مشيا على الأقدام. وقد وجد معظم الذين يعملون فيها هم من أصول جنوب شرق آسيا من الهنود والبنغال والإيرانيين وفلبينيين، وفيهم كثرة من العرب وبالذات من الفلسطينيين والسوريين والمصريين.

خلال تجواله تمكن من أن يفرض نفسه على ورشة سمكرة عربية تجمع فيها عدد من المصريين والسوريين، وتمكن من أن يجد له مأوى مع عمال الورشة، في سكن مشترك في مدينة المصفح المجاورة لدائرة الورش في قاطع شرق 10، والتي تبعد بمسافة خمسة كيلومترات عن مكان العمل فقط، الشقة تتكون من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام مشترك مقسمة على عمال الورشة الستة، كل ثلاثة منهم يشغلون غرفة.

في البداية تجبب من أن يتصل بوفاء خوفا من لسعاتها المادية، تجبب من أن تطلب منه مبالغا من المال يؤثر على توازنه ولا يستطيع تدبير أمره، وخاصة لازال في أول المشوار، لا يعرف خفايا الحياة في أبوظبي وكيفية الحصول على الاقامة، لذا ران إلى السكون والانزواء المؤقت والاهتمام بترتيب وضعه الجديد مع شلة العمال من أصدقائه الجدد، على أن يؤجل أمر هيافة القلب قليلا لما بعد أن يستقر ويدرك محيطه.

أما ما يخص عجرفته بمسألة الزواج منها فتلك مسألة تحتاج لتخطيط وتهيئة وحرث ووقت وطول بال، حيث المدينة ببهجتها حرفت تفكيره وشسعت احلامه، أثرت بنفسيته، صار لا يصدق ادعاءات وفاء، صار يشك بنياتها السابقة، فعليه أن يستكين في أهوائه ورغباته، وأن يدخل في أجواء المدينة قبل أن يعلمها بوجوده، قبل أن تتراكم عليه نتائج مجازفة يندم

عليها، المسألة تحتاج لتخطيط جديد حسب المعطيات الجديدة الطارئة أمامه..

أهتم بعمله الذي صار يتقاضى منه ما يعادل ألف دولار شهريا أو يزيد قليلا، يصرف منه خمسمئة دولار كمصاريف سكن وأكل مشترك مع رفاقه... هذا يعني أنه في نعمة أن أستمر الحال بهذه الطريقة لسنة أو سنتين، يستطيع أن يجمع مبلغ لابأس به يمكنه انقاذ نفسه وعائلته، وممكن أن يفعل المستحيل في بلده مصر، وذلك بحساب فرق العملة وحسب تقديره الأولي.. كما احتاج دعم صاحب الورشة ليحصل على اقامة عمل يتمكن من خلالها أن يبقى في أبوظي والورشة بعد أن تنتهي الفيزا المحددة بشهرين.

من خلال عمله صار يرسل لأهله ما يعادل مئة دولار شهريا مما يوفر، ذلك ما ساعد على تحسين وضع أهله النفسي والمادي، خاصة أن قيمة العملة المصرية هي في انحدار مستمر أمام جبروت الدولار، هذا يعني بأن المئة دولار تفيض بأحضانهم بكم هائل من الجنيهات بعد تصريفها، إذا ما أخذنا جانب الرخص العام للمواد في بلد مثل مصر.

خلال فترة عمله في الورشة، ومن خلال ملاحظته في تتبع زملائه خلال تواتر الأيام، وجد بأنهم يختفون من الشقة في يوم الجمعة، كأنهم على أتفاق فيما بينهم.. يوم الجمعة هو يوم عطلة، يتوقف به العمل بشكل تام في المدينة الصناعية. وقد عرف بعد اندماجه بهم والتمحيص خلف نواياهم، من أن كل

شخص منهم منشغل بفتاة من اللواتي يعملن في أعمال الخدمة المنزلية.. ومعظم تلك الخادمات ينحدرن من أصول إندونيسية أو فلبينية أو أثيوبية أو بنغلادشية.. هؤلاء النسوة معظمهن عازبات يعشن في كنف العوائل التي يعملن معها، تركن عوائلهن وأزواجهن في بلدانهن في سبيل تحسين واقعهن المادي والنفسي، وقسما من هنَّ ثيبات يعملنَّ في مجال الخدمة المنزلية...

فمن جانبهن هنَّ أيضا يجدنَّ في يوم الجمعة يومَ راحةٍ لهنَّ وفرصة للترفيه عن النفسِ والاستمتاع والمصاحبة والمنفعة بما يجود عليهنَّ الشباب الفارغ، الضائع، التائه من العزاب والأيّامى، ليرتبطوا بهن بعلاقات مشبوهة.

الشباب يسعون خلف المتعة والترفيه وهنَّ يسعينَّ وراء المال، علهنَّ يظفرنَّ بزواج ما أو متعة ما. الحصيلة الأخيرة؛ هي منفعة مادية وترفيهيه وتطييب خواطر النفس، علاقة مشبوهة متبادل بين الطرفين خارج حدود العرف والقواعد العامة السارية.

ومن خلال المصاحبة أرشده أبن بلده عاصم على طرق المصاحبة بعد أن عرفه على طرق التسكع والاستمناء بما تستقطب النفس المرهقة عاطفيا.. صار يتأملهن طويلا أمام الكنيسية الوحيدة القابعة في منطقة البطين في يوم الأحد، أو يتبعهن في الشوارع والمولات في يوم الجمعة. تلك المترهبات الخائرات من الجنس الأثيوبي اللاتي يذهبن إلى

الكنيسة يوم الأحد، فيما الأخريات من هنديات وبنغلادشيات وإندونيسيات ممكن أن يتصيدهن في المولات. ليفوز بواحدة منهنَّ بعلاقة مشبوهة، يذيب بها سقم الوحدة والغربة.

فعلا تمكن بعد شهر من المتابعة الدقيقة من مصاحبة فتاة أثيوبية تشبهه بسمرة البشرة، نحيفة، لماحة، تقترب من قامته طولا وشكلا وقيافة اسمها إيلا.. تعمل كخادمة في أحد بيوتات المواطنين في منطقة المقطع، وقد راقت له وراق لها فارتبطت به بعلاقة مشبوهة، المادة مقابل المتعة.. صار يغدق عليها مما يجنيه من عمله مقابل ألفة يراها نزوة عادية منهجه من وجهة نظره ونظرها، يراها فسحة عاطفية وفرصة لتسليك يومه وتخفيف وطأة الوحدة والغربة عليه.

صار يلتقي بها لقتل الفراغ كل يوم أحد وجمعة، ومن خلال تكرار اللقاءات وجد بأن فكرة اللقاء في الحدائق لا تجدي نفعا، كما أن الفنادق مكلفة، لذا فكر في صيغة يجمعه بها بأقل كلفة، فأتفق مع شلة أصحابه في العمل فيما بعد، بأن يزيلوا الحواجز فيما بينهم، ويسهلوا العلاقة باستصحاب فتياتهنَّ للشقة التي تأويهم، ليستمتعوا بهنَّ ويمتعوهنَّ، وكل ينفق على صاحبته من الخادمات مبلغ لا يتعدى الخمسين دولارا، ولا مانع من تبادل الفتيات فيما بينهم، طالما الغرض مادي بحت، فهنَّ لن يمنعنَّ أنفسهنَّ عن التغيير والاستلطاف، طالما يستمتعنَّ ويستفدنَّ.. كما أن تجمعهن في مكان واحد سيزيد من الألفة والصحبة بينهن ويبعد عنهن شكوك شرطة التحري

الدائرة في شوارع المدينة، ذلك ما يساعد على إدامة صِلاتهنَّ ووصلهنَّ، في المقابل نرضي ذواتنا ونرضيهن، حيث المراقبة متشددة في الأماكن العامة من قبل أجهزة الأمن وشرطة التحري التي تتبع التجمعات المشبوهة.

هكذا أستمرت الحالة لفترة أشهر، وفي نهاية المطاف وجد نفسه بأن الألف دولار الذي يتقاضاه من عمله يعتبر مبلغا تافها لا يفي بالغرض، ولا يستطيع توفير جزء منه أمام الغلاء ونوع البذخ الفاحش الذائب في البهجة، والموارب في صيغ تطلعاته التي جاء من أجلها. فتلك العلاقات المشبوهة ما هيَّ سوى مستنقع رذيلة، غطست فيه قدماه. ناهيك عن عربدة زملائه الذين جروه لوأدة المراقص والنايت كلاب وشرب الخمر والتدخين النارجيلة وغيرها... شعر بأن مرتبه الذي يتقاضاه أصبح كقطعة حلوى تتجمع عليه الحشرات دون أن يستطيع كشها واستخلاص شيء منها لذاته.

شرح تفاصيل الحياة لمصطفى عبر رسالة أرسلها له، فيما بات يقلل من اتصاله به مع مرور الايام لتكرار الحديث وكأنه قد تناساه خلال تواتر الأشهر والأيام حتى أنقطع عنه تماما، وذلك لتغير ظرفه وتشعب أفكاره وعقده ومشاكله؛ حيث ما أن يسد ثغرة في مجرى الحياة؛ حتى تنفجر عليه صنابير عقد جديدة تكبل سعيه، تقيده. في نهاية المطاف وجد حالته تترنح تحت رحمة ظرف يزيده قرفا وشقاء، وقد يزيده رحمة إذا ما أحسن السلوك والتصرف.

كان قد اهتزت أساريره حين وجد ذاته لا تقوى على البقاء طويلا على رصيف العبودية، بعد أن تحجرت أفكاره، صار يشعر بعقليته المتجلدة لا ترتقي به لأهدافه التي جاء من أجلها، ولا ترتقي به لخطى الرقي التي تأملها، ولا تهديه لمستقبل يبلغ به رغباته.. بذلك يكون قد خذل نفسه وأخوته وأمه قبل أن يخذل الأنا الصابرة في أعماقه بسوء سلوكه وهمجية غريزته ونفسه الأمارة بالسوء...

وجد ذاته إذا ما استمر في تخبطه وركوعه؛ ستعبث بديدن سلوكه الماجن لفترة سنة أوسنتين دون حصيلة، ربما سيخرج من أبوظبي بقشور البصل، خالي الوفاض من صبغة الأحلام والآمال التي سعى خلفها. أحس بأنه لن يجدي نفعا من سلك أسلوب الانقلاب الذي توخاه، والذي أدار به ذاته بالتزامن مع هوى زملائه المنحرفين، ذلك السلوك المشين الذي مارسه ضد عرفه وأخلاقه صار يجلد ذاته ويجلد أهله.

بدأت بوصلة مشاعره تتحرك مع تغير فكره، مع تطلعات حياته الجديدة بظرفه الجديد. بينه وبين نفسه كان قد أصر على إنقاذ ما تبقى من قامته وقيمه التي عبث بمكنونها دون شعور، بعد أن وجد نفسه تنزلق في متاهات الموبقات عبر تلك الشهور وهو يعمل في أبوظبي، وجد ذاته في غمار التفاهات التي تبتلع مقدراته وخيراته دون فائدة، من خلال رفقة زملائه من العمال... شعر بذبول غصن عمره وضياع فلوسه التي يحرقها على ملذاته، دون أن يستطيع أن يتقدم

خطـوة فـي مجـال مسـتقبله ومخططاتـه ومشـروعه الـذي تـرك قريتـه مـن أجلـه. لـذا قـرر تـرك العبـث، والتفكيـر الجـدي بصـيغة الاستقرار والزواج والبحث عن وفاء كآخر محاولة له معها..

وبعـد ثمانيـة أشـهر مـن عملـه فـي المصـفح راجـع ذاتـه المريضـة، وقـرر أن يعـود لحبيبـة القلـب وفـاء، وأن يتصـل بهـا بعـد أن أنسته **إيلا** سـحر **وفـاء** مؤقتـا، عسـى أن يـتمكن مـن الـزواج منهـا، عسـى أن تكـون لـديها حلـول ناجعـة لمشـاكله التـي تجـذرت، وأن يجـد عنـدها مـا يبحـث عنـه بـين مـدافن الـزمن وسـيقان إيـلا، فلـم ينسـى هـيَّ التـي حثتـه علـى الهجـرة للإمـارات، وهـي التـي سـرقت فؤاده، وهي التي عبدت طريقه بعد أن خربته سعاد.

تـردد فـي بدايـة الأمـر، لكـن بقـي فـي أعماقـه يخفـق هـاجس غريـب، يعذبـه، يحثـه علـى التقـدم نحوهـا، نحـو مخاطبتهـا، لقـد صـمت لأشـهر جـراء عبـث كـان يشـغله، ولكنـه لـم ينسـاها قـط، بقيـت تلمـع كنجمـة فـي سـماء ليلـه المعـتم كنجمـة سـهيل، بقـي نورهـا يـزين سـواد فكـره حـين يتـذكرها. وإذا مـا تجنباهـا لفتـرة مـا مـن الـزمن؛ أنمـا تجنبهـا لضـيق مـادي مـر بـه، أو عربـدة آنيـة شغلته، وخاصة بعد أن أنحرف قليلا في مسالك شلته الجديدة.

لـذا وجـد فـي قـرارة نفسـه عقـدة لا يمكـن أن يـتخلص منهـا إلا بملاقـاة وفـاء... شـعر بـأن وفـاء هـيَّ الشـعرة التـي ستقصـم ظهـر البعيـر، سـتحل مشـاكله بالسـلب أو بالإيجـاب، هـي مـن كتمـت أنفاسـه، هـيَّ مـن خلقـت لـه العلـل، وهـيَّ مـن عقـدت سـره وأهوائـه، وهـيَّ مـن سـيرته وسـحرته وهـي مـن ستسـير لـه حياتـه،

بيـدها مفـاتيح سـعده ونجاتـه بيـدها، ربمـا قـدره الحقيقـي والـذي جعله يتبع فكرتها فيما يخص الهجرة...

إذا لابـد مـن ملاقاتهـا، ليضـع حـدا لإرهاصـاته المحيـرة، تلـك التـي لا تنفـك عـن ذهنـه وقلبـه رغـم انشـغاله بـالأمور الجانبيـة، عسـى أن يسد ثغرة عواطفه التـي باتـت تفيض فـي ذهنـه، فتزيـده وجـلا وخجـلا بسـبب ضـياع سـنين العمـر دون أن يحقـق نتيجـة تقنعـه. عسـى أن يضـع حـدا لنزيـف فـؤاده، ويرسـم طريقـا واضـحا لمسـاره، ليعـرف موضـع رأسـه مـن رجليـه كمـا يقـول المثـل.... ليضـع حدا لشـروده وشـرور فتنـة فتاتـه التـي غالـت فـي عذابـه وأفحمـت قلبـه. فهـيَّ لـم تكـن سـوى شـرارة أنـارت دربـه، لذا يجب أن لا يدع محاولاته الحثيثة تذهب سدى.

3- الاتصال بوفاء

قرر الاتصال بوفاء لوضع حد لإرهاصاته، وإيقاف نزف عواطفه، فأمسك هاتفه النقال، ثم شرع يضغط على أزرار مفاتيح الهاتف، محاولا الاتصال بها، بالرقم الذي أملته عليه قبل أن يهاجر.

أرسل لها رسالة على الواتس آب وقال فيها:----

- ألو حبيبتي وفاء، أنا إبراهيم، وصلت أبوظبي قبل فترة، انشغلت بتدبير أمري وعملي والإقامة، حيث تمكنت من العمل في ورشة سمكرة في المصفح متبعا نصحك الذي أسديته لي، أنا شاكرا لك مساعدتك، لم أتصل بك في حينه لظرف الإقامة والعمل والسكن والاستقرار، انشغلت في البحث عن الصحبة وترتيب وضعي السكني والنفسي في أبوظبي... أرجو أن تتصلي بي على رقم هاتفي الجديد هو 0097154100000

لم يصبر على فراقها، أو بالأحرى كلما أبتعد عنها زمنا، وجد ذاته تدور حول ذاتها، تذهب بعيدا ثم تعود لركنها الأول، تنجذب لواحتها فتنتها، هجس بها قطب مغناطيسي لا يستطيع مقاومتها، وأن مستقبله واستقراره يكمن قربها ومرتبط بها، أو في فتنتها. لقد تحمل الكثير من المشاق ولا بد من فك أنشوطة

العقدة وإراحة الفكر والبال وتطمين القلب من منغصات التي ما عادت تنفك عنه.

وفي اليوم التالي جاءه الرد كالتالي:..

- من معي؟ أرجو تحديد هويتك، أرجو أن تتصل على الرقم التالي 0000000000 في الساعة الحادية عشرة صباحا من يوم غد.

كان شغوفا لسماع ردها وقراءة رسالتها، لذا في اليوم التالي وفي تمام الساعة الحادية عشرة صباحا ضغط على أزرار رقمها الجديد الذي وصله... أنتظر وهو يستمع لمحاولات الهاتف الحثيثة وقلبه ينبض بشيء من الاضطراب.

– ترن – ترن ----

صمت غلب عليه، لم تكن هناك من استجابة، لم ترد..

كرر محاولته ثانيا وثالثا دون جدوى، صار يكلم نفسه ويؤنب ضميره على تأخره، وعبثه بالزمن الغابر– يا ترى! هل تراخت في سعيها لتأخذ موقفا ضدي بسبب انقطاعي عنها فترة طويلة؟ هل فعلا هيَّ في حالة خصام وزعل؟ هل تغير سلوكها، وتبدلت مشاعرها؟ الأنسان بطبعه متقلب المزاج يمشي مع الزمن والظرف، الفكر متحرر، يتغير مع اللحظة، يا ترى هل فعلا تغيرت من ناحيتي؟ أم تناستني؟

صار يسأل ويجيب نفسه...

لالالا وإلا ما كانت تشجعني على القدوم للإمارات، ولكن قد تناست لطول فترة انقطاعي عنها، أو قد تراخت قليلا، ما عدتُ جديرا بنظرها. قد تكون هجست بتغيري فباتت تعاملني معاملة الغريب، فالأنسان مزاجي الطباع.

ثم نحن لم نلتقي وجها لوجه لأضع بصمتي على مشاعرها، ثم أنها قد تكون منشغلة في عمل ما أو أخذتها غفوة.. لابد من عذرها وانتظار ردها...

كم من الأسئلة التي خطرت في باله لا يعرف إجابات لها، ولكنه بقي قلقا حيالها ومتمسكا بحلمه بذات الوقت. دائما ما يبرر تكاسلها والتواءاتها لصالحها، والتي لا يعرف شيء عن أسس تدبيرها وتغيرها.

صار يسأل ذاته ويجيب...

هل أغض الطرف عنها؟ الدنيا مليئة بالفاتنات، المسألة دخلت في مجالات العقد، من المفروض قرينتي تكون من واقعي، يجمعنا ظرف مشابه، أفهمها وتفهمني. ولكن وفاء تسكن في هذه الأبراج العالية، أنها مجردة من العبودية، حرة، كيف بها تقيد ذاتها بذاتي الفقيرة، المأسورة، المريضة، فمن المستحيل أن تتطابق وشائجنا أن كانت قد ترعرعت هنا، أو أن كانت هي أبنة هذا البلد..

ولكن أن كانت هي فعلا من أهل الخليج؛ لِمَ طلبت مني نقودا؟ قد لا تختلف عن إيلا بشيء، حالها حال خادمات المنازل!! ...

أنـي مضـطرب؛ إذا مـا واصـلتها قـد تطلـب منـي مبلغـا جديـدا؟.... ولكـن يجـب أن أصـل معهـا لنهايـة المطـاف لأسـكت قلبـي الـذي لا يكـف عـن هـذره، لوضـع حـدٍ لنـزف تفكـري الـذي أرهقنـي بأتبـاع ظلهـا، لا يمكـن التخلـي عنهـا بسـهولة، أهجـس بقطتهـا تنـام فـي وثيـر مشـاعري، أسـمع موائهـا كعاشـقة متيمـة، قطـة شـيرازية ترتع بريش المودة ونار الجوى.

فيمـا سـبق كانـت قـد سـلتت مـن جيبـي مبالغـا كنـت بحاجـة لهـا، لابـد مـن اسـترداد تلـك الامـوال، أو بـالأحرى لا أودهـا تـذهب سـدا دون طائـل، يجـب مواصـلة المشـوار معهـا للنهايـة، وإلا ستذهب تلك المبالغ إلى البحر في خبر كان...

يـا تـرى! هـل هـي فعـلا بحاجـة للمـادة أن كانـت تعـيش فـي أبـراج أبـوظبي؟ سـؤال يتكـرر فـي الـذهن، يـذكرني بضـعفي وفشـلي، هـل فعـلا أنهـا بحاجـة لرجـل يشـكم عزوبيتهـا؟ أظـن ذلـك، كـل مـرأة تحتـاج لرجـل فـي حياتهـا، ولكـن السـؤال المتكـرر: هـل أنـا الشـخص المناسـب لهـا ولقامتهـا؟ هـل أنـا دون جـوان ملائـم لأنوثتهـا؟ هـل أتمكـن مـن ملـئ فراغهـا؟ وهـل تحتـاج لرجـل يشـكمها أم لعشـيق يلبـي طلباتهـا؟ وهـل ممكـن أن أكـون روميـوا أو قـيس فـي حياتهـا، أكـون فارسـا حقيقيـا لهـا مـن وجهـة نظرها؟.....

أضـحت تلـك الشـكوك تطفـح علـى سـطح ظنـه، تزيـده شـجنا فـي الوقت الذي به بات يتفهم محيطه أكثر مما سبق.....

ظـن ذلـك، وكثيـر مـن الظـن وهـم... رغـم المـرأة لا تصـبر دون رجـل لأمـور تخصـها فسـيولوجيا ولا الرجـل يصـبر دون مـرأة، لكـن الحيـاة فـي أبـوظبي ممكـن أن تسـير بعزوبيـة مـع تلـك الخادمـات المبعثـرات فـي الطـرق، كـ إيـلا وليلـي ورحمـة وزينـب وجليلـة ..الـخ.. بـذات الوقـت أهجـس بـأن المـرأة بـلا رجـل تصـبح كقربـة مثقوبـة، بـلا عاطفـة، نبتـة جـرداء بـلا أوراق وثمـر كتلـك الخادمات اليائسات..

أنـي فـي حيـرة مـن أمـري وأمرهـا، فمـن يعـيش هنـا فـي هـذه الجنينـة المسـماة أبـوظبي؛ لا يفكـر بصـعلوك مثلـي، وفـي نفـس الوقـت يجـب أن لا أغلـب اليقـين الواضـح بـالظن الشـائك، يجـب أن لا أغلـب العقـل بإرهاصـات القلـب، يجـب أن لا أنحـرف بظنـي وأتجـاوز عاطفـة الأنثـى الجياشـة، ألـم يقـال بـأن الحـب أعمـى؟ كيـف تزوجـت سـراب مـن ذلـك المعتـوه؟....لا توجـد امـرأة لا تحتـاج لرجـل، مثلمـا لا يوجـد رجـل لا يحتـاج لامـرأة، الميـزان عـادل فـي الكيـل. فـالله يقـول: وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُم مِّـنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجًـا لِّتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْـنَكُم مَّـوَدَّةً وَرَحْمَـةً.. صدق الله العظيم

السـؤال الـذي يحيرنـي ويقيـدني هـو: هـل أنـا مطلـب لهـذه الآيـة؟ هل أصلح أن أكون فارس أحلامها وسيدها؟ أم .....

ظل ذلك الهاجس يشغل تفكيره.

لا لا لا أنا ثقتي بنفسي معدومة، ومن المستحيل أن أكون ملهما لها....أن كانت تلك الأفكار تقنعني وتروضني فيما سبق وأنا في مصر، فما عادت لها من صحة وتفسير ورونق مقنع بعد أن وطأة قدماي أرض أبوظبي، ورأيت الذي رأيت.

لا أظن تفكيرها ساذج لهذا الحد بحيث تنحدر لواقع رجل مثلي أساسه هش لا يرتقي لواقع رضاها...

لكن قلبي يشغلني ويعذبني حين أجده مشغولا بها، ما أن أحاول أن أنساها؛ حتى يبحث عنها بين طيات المستحيل، أنه لا يريدني أن فهم الحقيقة، أشعر به أنه أرعن، غبي، أو يتغابى حين يُذكر أسمها.. قد يكون على حق ومؤمن بأن الحب أعمى، مثلما عميت الحسناء لترتبط بذلك الدميم الأقرط. إذا الجمال نسبي، والحب حظ، والسعادة أوهام تطرق الخواطر، والأدهى من كل ذلك فأنا لا أتحكم بأمر عاطفتي اتجاهه... وإلا ما هي السعادة؟؟؟ وما هي التعاسة؟؟؟ لم أعد أفهم شكلا لهما كأنهما صورتان لعملة واحدة كالدرهم...

حينما وطأة قدماي أرض الإمارات تغيرت في ذهني المفاهيم ولأفكار كليا عما كنت أتخيله وأنا في القاهرة، تغيرت في الشكل والظرف بنسبة كبيرة، الحياة هنا لدنة، طرية غرينية فيها من الرقي ما يتأملها كل إنسان. فهيَّ غنية في عمقها وأرثها وثرائها وأثرائها وعصفها، بت لا أصدق سعيي تلك النسوة خلف الرجل، أشعر بهن شلة من الغواني والعاهرات وحسب ما يكمن في دواخلهن من تفاهات، وبأشكال والوان

متشابه، فالشريفة لا تنشر صورها في مواقع الأغراء والتواصل الاجتماعي أبدا، لاعتزازها بذاتها وكرامتها.

ولكن يا قلب لم أنت لا تود أن تفهم؟ ولا تود أن تفقه الحقيقة؟ لم هذا العناد والإصرار في متابعة وفاء؟.

قلبي يقول لي لا.. ليست عاهرة!!! شكلها لا يوحي بذلك، أنها جميلة، قد تكون أجمل ما رأيت، ومستحيل أن تكون من العاهرات.. أحيانا نضطر لتصديق إرهاصات القلب، وقد نكون في تيه ويكون هو على حق، لقد نصحتني أمي بأن أتبع القلب، حيث قالت لي لحظة الوداع: يا بني؛ أجعل القلب دليلك، القلب لا يكذب، فأتبع قلبك في مشاويرك...

لكني أعتقد يا أماه أنه صادق في كل شيء، إلا في مجال الحب! لا أظنه يفهم، لا أظنه يعرف أن يقدر الأمور. لأن في حالات الحب يصبح غبيا أعمى. يا أمي اعتقد فعلا أنه أعمى وغبي، مثل قلب قيس وعنتر وليلى وعبلة وتلك الحسناء التي تدعى سراب والتي أودت بحياتها بزواجها من الأقرط.. لقد خذلنني في القرية، وخذلنني في القاهرة كأم سامح وسلوى... لقد خذلني قلبي مرارا، واليوم هو في طريقه ليخذلني مرة أخرى؛ ولكن أن ما خذلت هذه المرة فلن أتبع ظنه مرة أخرى أبدا، هذا وعد يا أمي، وهي آخر فرصة له ليصدق معي.

يا ترى! هل هذه صورتها الحقيقية ؟ نعم هي وقد شاهدتها فديويا للحظة، وكانت أجمل من الصور، لكني رأت وجه فتاة

جميلة ولم تتحدث معي، لم أسمع صوتها، ربما تلك الصورة الفديوية ليست لها، ربما أوهمتني بها.....

صار يسأل نفسه ويشكك بذاته ويجيب--

... أعتقد ذلك، لا بد أن تكون هي من كلمتني وليست غيرها، وإلا سوف تخسر زبائنها أو عشاقها، أو معجبيها، أو خاطبيها بمجرد أن تلتقي بهم، سيرونها على غير شاكلتها، حين إذ تتم المقارنة بين الحقيقة والصور فيبان زيفها..

قد تكون مظلومة وتنوي إصلاح شأنها، أظلها الزمن عفر العقد في سبلها، فزحفت بمصيرها لواقع هذه البرامج، صارت تبحث فيها عن شريك يحيي شبابها وعاطفتها كحالي، حيث مجالاتها واسعة وشاملة ومتعددة.. قد تكون ركنت ذاتها لهذه المتاهة بعد أن كلت نكد الحظ وأبوابه المغلقة..

كل شيء جائز، ولا ننسى أن بعض الظن أثم، فهناك من توصل لمن يهوى عن طريق المراسلة والأعجاب، عن طرق برامج السوشيال ميديا كالفيس بوك وتوتر وبرامج الشات والاسناب شات وغيرها.

دعني أحاول مرة أخرى، وأني ما جئت لهنا إلا لألتقي بها وأسوي أمر قلبي المراهق، وعسى أن تتزوجني وأعيش معها بكفاف وعفاف.

ضغط على رقم هاتفها، أضحى يرن جرس الهاتف – ترن – ترن ---

ترن -- ترن

نعم هذه المحاولة قد نجحت -- فتح الخط – آه يكمن خلفه صوت رقيق جدا، أرق من صوت العندليب وأنعم من همس الكروان.. أشعر به يهف كنسيم الصبح على قلبي، فيه شيء من ملمس الحرير، مغلف بالشوق والحب والرجاء. انه صوتها اتذكره، تهجس بالرقة فيه ذائبة فيه من رقة ثناياها.

أسمع صداه الحاد يطرق أذني، لقد تناسيت خلف ذلك الشكل يكمن هذا الصوت، ها هو يدغدغ مشاعري، أنه صوت عذب يغدق في شجن الغرام، يسحر القلب والعقل، يتسلل للذهن كانسياب الماء البارد للأحشاء الملتهبة في يوم قائظ -- كأني لم أسمع هذا الصدح من قبل، كأني أول مرة أسمع صوت الكروان يطرب أذني. نعم أول مرة أسمع صوتها، كان فيما سبق قد تكلل اتصالاتنا عبر الرسائل والمسجات سوى مرة أو مرتين هاتفتها.

أجابت برقة وعذوبة-- هجس بإحساسها تمس زغب عواطفه، مال نحو صوتها ميلان الغصن للشمس، التمس ظلال عطفها ودفئها، شم نفحات سحرها، أنها قريبة جدا من أنفه، تكاد بنعومتها تلاصق فمه، تزكم أنفاسه، باتت أقرب له من الحقيقة وأقرب من ذاته إليه....

تخيلهـا تقابلـه وجهـا لوجـه، حاصـرته التأوهـات... شـحنت عواطفه برقة عواطفها. تكلم معها حيث قال:.....

- الو – من معي؟
- أنـا – أنـــــــــا إبـراااااهيم--- ألسـت أنـت السـيدة وفاء؟
- نعم وهو كذلك -- وكيف عرفت أسمي؟
- أنـا أبـراهيم حبيبـك، إبـراهيم المصـري، فيمـا سـبق كنـت أراسـلك مـن القـاهرة، وأنـت مـن شـجعتني علـى القـدوم لأبـوظبي، هـل نسـيتني؟... مـن حقـك أن تنسـين، لقـد شـغلتني الظـروف القاسـية وانقطعـت عـن مواصـلتك فترة.
- تـذكرتك يـا هـلا..... متـى وصـلت؟ كيـف حالـك، لـم تأخرت عني هذه الفترة؟ وهل وضعك الآن مستقر؟

ربمـا فـي اليـوم الواحـد تكلـم العشـرات، فـلا يخطـر فـي بالهـا الحسـابات القديمـة، وحسـب ظنـي غرضـها مـادي فحسـب وبعـدها ستنسى كل شيء...

- انشـغلت بتسـوية امـر الاقامـة والسـكن والعمـل، الحمـد لله انهيـت كـل شـيء، أنـا فـي شـوق لملاقاتـك ورؤيـاك وجهـا لوجـه! هـل ممكـن أن التقـي بـك؟ لقـد شـغلتي فكـري كثيرا.
- أكيـد ولكـن بحسـب شـروطي.... أنـا لا أضـيع أوقـاتي فـي أمـور تافهـة، كاللقـاءات والتنزهـات، أرجـو أن توضـح

لـي غرضـك الشخصـي، مـاذا تبغـي منـي كـي أتفهـم غرضك وأكون جاهزة؟

- يـا وفـاء تعـرفين غرضـي وقـد أخبرتـك بصـدق نيـاتي، أود أن أتعـرف عليـك عـن قـرب، لأعرفـك بنفسـي وأعـرف مـاذا يرضـيك؟ وكيـف يمكـن أن أصـل إليـك وأتواصـل معـك؟ أود أن أصـل معـك لنهايـة المطـاف، رغبتي هي الزواج منك.
- مـا يرضـيني هـو أن لا تخـونني وتكـون كريمـا معـي، فأنـا امرأة..

هنـا حـددت غرضـها، وأكيـد أنهـا تقصـد المـادة. هـذا هـو شـأنهنَّ جميعـا، المـادة أولا، ومـا جـرى بيننـا فيمـا سـبق وهـم، وقـد يكـون مجـرد تمثيـل، ودت بـه أن أصـل لشـواطئها لأغـرق بمياههـا، وأن تصـل لمبتغاهـا بـأي طريقـة، والآن هـي واضـحة مـن خـلال فرط حديثها معي، إذا لا يوجد عندها شيء بلا مقابل.....

دعنـي أجـرب حظـي معهـا، وعسـى أن أكـون متوهمـا فـي تقديراتي.

- أود مواجهتـك، ومعرفـة مشـاعرك تجـاهي، أود أن أتعـرف علـى وضـعك الاجتمـاعي والبـدني، لأننـي شاهدتك في الصور فقط؟
- كنـت قـد أخبرتـك سـابقا بـأني مطلقـة، ولـيس لـديَّ أولاد وعمـري 22 سـنة، ولا ضـير مـن تعارفنـا... هـل نسـيت؟... وأن كنـت تـود أن ترانـي وجهـا لوجـه، عليـك

أن تدفع لي مقدما، قد لا أعجبك وتتخلى عني، هذا هو شرطي الوحيد لبيان جديتك معي!

أنها تتكلم بلهجة أهل البلد، ترى هل هيَّ مواطنة، خليجية ؟ قد تكون كذلك، ربما هيَّ مجنسة، وأن كانت فلا ضير في ذلك، وهذا ليس مهم بالنسبة لي، سأستغل الفرصة وأطرح عليها فكرة الزوج، وعساها ترضى بذلك، لآني أشعر بكلامها هناك رغبة نائمة.....

ولكن يا إبراهيم هل ستتزوج من غانية؟...

لم لا.... سأتزوجها وأنْ كانت كذلك....يا ترى! ما هو الفرق بيني وبينها؟ ألستُ زان؟، ألست فاحش؟ ام سامح وسلوى يشهدان عليَّ، أين موقعي من الدين والتقوى؟ هل أصلي كما أوصتني أمي؟ هل أستمع للقرآن؟ هل أنا سوي؟... لالالالالالا..... اللاءات كثيرة في حياتي، كلها تقول لي بأني لست أسمى منها، ولا أفضل حالا منها، وأن رضيت بي ستكون هيَّ الخاسرة إذا ما قورنت النتائج بحساب لعبة الربح والخسارة، ومن بعد ذلك يمكن أن نصلح شأننا معا.

هذا الصوت الداخلي صوت الأنا كان قنوعا بها، خانعا لعاطفته، يدفعه ويقنعه لخوض التجربة...

.....هذا الصوت الشجي يريحني، وكأني اسمع صداه يأتي من أعماقي، ثم أن الحالة هي مجرد تكهنات تخطر على البال، الآن أصبحت أعماقنا متفاربة عن بعضها، أكثر هدوء

وجديـة وسلاسـة علـى ضـفاف التلاقـي، اقـرب لحظـة للحلـم، أشـعر بهـا فتحـت أبـواب قلبهـا، باتـت قريبـة مـن حلمـي، هـي نائمـة بأحاسيسـي، أطيافهـا نسـائم تتلاعـب بسـتائر نوافـذي، سـحرها يسـري بشـرايبني، تهـيج مشـاعري، لـذا يمكـن أن أسـوي الأمـور معها بيسر وبتأني.

سـره ذلـك، لربمـا سـتحل عقـدة غربتـه الماديـة والعزوبيـة والنفسـية لـو تزوجتـه، سـتفتح لـه أبـواب الأمـل والعمـل والاستقرار هنا، وربما تفتح له أبواب التقوى.

ود أبـراهيم أن يعـرف مقدما كـم سـتكلفه هـذه المقابلـة والمجازفـة، وهـو الـذي يشـتغل عـاملاً فـي ورشـةٍ بمـرأبِ عجـلات لا يتقاضـى منها سوى(1000) دولار شهريا.

- يا وفاء! كم عليَّ أن أدفع مقابل أن التقي بك؟
- الف دولار!
- لم يا وفاء؟؟؟؟
- لأنـك حتمـا سـتعجب بـي، وربمـا سـأعجب بـك أنـا أيضـا، وربما....
- وربما ماذا...
- افهم بذاتك...

.....فكر قليلا قبل أن يرد عليها....

مـن يريـد أن يصـل لمبتغـاه يجـب أن لا يتـردد فـي قـراره ولا ينتظـر الفرصـة تأتيـه، يجـب عليـه هـو الـذي يسـعى خلفهـا

ويصنعها، علمتني التجارب بأن المجازفة هيَّ أقصر الطرق للوصل للهدف المراد ولابد من ضريبة ندفعها، هكذا هي الحياة، كل شيء بثمن.. وقد تأتي النتائج بضربة حظ. فالفتاة الأثيوبية إيلا كانت قد سلبت مخزوني وطاقتي وفلوسي على مضي أشهر، فهي ليست بأفضل منها..

....لكن هذا المبلغ كبير.. يا ترى! هل يقدم على المجازفة؟ الحيرة أخذته في متاهة، وما أن شتت قليلا حتى عاد لها خانعا يكلم نفسه بشيء من الحسنى.

أصحى يا إبراهيم، أي رفض أو بخل من جانبك، فأنك ستخسر الفرصة نهائيا وها قد وصلت حدودها وما هيَّ سوى خطوة واحدة لتدخل محراب فتنتها، حينها ستمسك بها وتصل لمبتغاك، أنها خطوة واحدة فقط تفتح أمامك أبواب الجنة المؤصدة، بعدها ستمسك بزمام الأمور كيفما تشاء. خطوة واحدة أم ندم يستمر طول العمر....

هكذا وسوس له الشيطان وتتبع وسوسته.

في حالة مجادلتها قد ينزلق الفكر لوحل التيه، أو ينحرف اللسان عن سراطه، فأضيع مرة أخرى في متاهة الطرق التي أخرجتني منها بذاتها من قبل، ربما أغوص في وحل العذاب وحيدا، ربما تغض الطرف عني... أنها ليست بحاجة للمال قدر أن تتسلى به، لذا قرر أن يجاريها ويسترسل في حديثه معها، وعسى أن يرق قلبها وتتغير النوايا فيما بعد.

- وهل ستحتملينني وترضين عواطفي وغروري بلقائك يا وفاء؟
- أنا لن أستطيع أن أقدر المفاجأة، لكني سأسعى لسعيك..
- أين نلتقي؟ أنا أسكن مع مجموعة من الشباب! ليس لدي مأوى يصلح للقاء بك.
- لا تهتم من هذا الجانب، أنا أتدبر الأمر، فالدار جاهزة وانا وحيدة فيه.
- حسنا؛ إذا لا توجد معوقات، متى يروق لك ذلك، حددي الموعد والعنوان الذي يناسبك؟

أنها مشروع عمل لا يهم الوقت بالنسبة لها، فهي جاهزة في كل وقت تقريبا، وخاصة لا رقيب عليها بعد طلاقها، لذا أجابته دون تردد.

- اليوم الساعة الرابعة مساءا، شارع البطين قرب مدرسة النجاح ستجدني أنتظرك في كابينة موقف الباصات رقم 7.
- وهو كذلك...

4- جولة اللقاء

الـزمن الغـابر كـان قـد خـض وفـاء خضـا عنيفـا، تسـاقطت أمامهـا أوراق المحرمـات والكرامـات والمبـادئ مـن علـى غصـن قامتهـا وجسـدها الرشـيق كتسـاقط أوراق الشـجر، تعـرت أمـام الـذنوب والقسـوة التـي مـرت عليهـا مرغمـة أو دون ذلـك، تحللـت لغـة الإحسـاس لـديها بالشـرف، ذابـت كقطعـة ثلـج فـي عـين الشـمس، تلقفتهـا الثعـابين بسـمومها، فـي سـرها وعلنهـا وفـي مواقـع استسـلامها كانـت قـد عاقبـت ذاتهـا جليـا فـي النـوادي الليليـة والفنـادق ودور المبـاغي وفـي مرافـق الخسـة بالموبقـات التـي تعنـت لهـا بقـدميها. بعـد أن لبسـت ثـوب العهـر؛ لقـد تخلـت عـن عـرش الكرامـة والعفـة مقابـل الجـنس والمـادة، أو مـن أجـل إذلال زوجها الذي أذلها وهي رافعة راية التحدي بوجهه..

والحقيقـة فـي الوقـت الـذي بـه رفعـت رايـة تحـدي زوجهـا؛ كانـت قـد تخلـت عـن الكرامـة أمـام المجتمـع والـذات، تخلـت عـن العفـة التـي اسـتخبت تحـت ظلهـا، فـي الوقـت الـذي بـه زمنهـا وعالمهـا الشـفاف يسـتباح بدكنـة القسـوة مـن قبـل زوجهـا، وبالـذات حـين حوصـرت بالوحـدة المقيتـة وسـقيت بكـأس الألـم فتجـردت مـن صفة البراءة والشرف.

عنـدها لـم تعـد تشـعر بالنـدم علـى أفعالهـا الشـنيعة طالمـا بسـلوكها تـؤذي زوجهـا، لـم تبـال لألسـنة النـاس ونظـراتهم المؤلمـة. هُـم لـم يرحموهـا حـين كانـت عفيفـة وشـريفة، فهـل سـترحم وهـيَّ مـومس دنيئـة. قـد تكـون نادمـة علـى إقرارهـا

بـالزواج مـن مـواطن خليجـي لـم يقـدر قيمتهـا. نادمـة علـى جـر ذاتهـا لـدروب الموبقـات مـن أجـل أن تنـل الطـلاق مـن زوجهـا الــذي ود إذلالهــا وهــي تشــعر بــذاتها وضــيعة فــي قمقمهــا كالأيـامى. عنـدها لـم يشـكمها ديـن ولا عـزة نفـس أو شـرف منـع انحـدارها، اتقـدت لدرجـة التسـامي فنسـت مراتـب الشـرف، غـدت فـي عرفهـا شـيء مـن التقاليـد التـي لا تعوضـها حريتهـا وقيمـة شخصيتها..

مـع مـلء جيبهـا بالـدولارات كبـر الشـأن بِنظرهـا ونظـر المجتمـع، بفعلهــا الخســيس جعلهــا ترصــع جيــدها بــالمجوهرات والحلــي. باتـت تشـعر بقيمتهـا وحريتهـا مـع الجيـب العـامر بالمـادة. تبـدلت مقـاييس المجتمـع مـع تعـاظم الظلـم بمـرور الـزمن، بـاتوا النـاس لا ينظـرون إلـى التعفـف والـدين بقـدر نظـرتهم الحـادة إلـى العجـلات الفارهـة والغنـى مقابـل الفقـر والجـور المـذل.. هـذا مـا استخلصـته وفـاء مـن تجاربهـا الحياتيـة المـرة التـي مـرت بهـا، ومـا لمسـته وهيَّ وحيدة سجينة الجدران.

عاشـت طفولتهـا بـين الأحـلام والرغبـات، فلـم تهنـأ فـي حياتهـا، لـم تلـتمس صَـدَفْية محـار الحلـم، لـم تصـبح علـى فـرح حقيقـي، لـم تُمـس علـى سـرور، لـم يلطـف بهـا زوج ولا حبيـب ولا قريـب.... أضـمحلت أحلامهـا ورغباتهـا بالحيـاة، تلاشـت مـع أفـول قـدرها، اصـفرت أوراقهـا بتلاشـي شـمس الحبيـب مـن عالمهـا... يـوم بعـد يـوم ذبلـت أحلامهـا، غصـتْ فـي جـب المسـتحيل، مـا عـادت تشـعر بـأبراج الراحـة ترفـق بهـا، ولـم يطفـق لـين بحياتهـا فـي

طفولتها، لم تنم قريرة عين إلا وشبح الخوف من المجهول يطرق بابها.

على مضي فترة زواجها عاشت منزوية بين دياجير الأوهام وكوابيس الخوف الدائرة حولها، تكركب نهج حياتها رأسا على عقب بعد أن تعرضت لويلات السخط والعنف عقب زواجها، العقد جزلت أحلامها وسعادتها.... خرجت من تلك التجارب المريرة ملهمة في مجال عملها، فهي لم تصل لبرامج التعارف إلا بعد أن عبرت حواجز الرعب والخوف والذل والهوان والدجل التي صادفتها، أو التي مثلت عليها.. تعرضت للخطف والاغتصاب والتشرذم والضرب والسرقة، والى أنواع مختلفة من النصب والاحتيال في دور المباغي والعهر. أحيانا كانت تخرج بخسارة الجسد، وأحيانا أخرى تخسر الذات والضمير والجيب والجسد، تلك التجارب منحتها شهادة خبرة ذات جودة عالية في مجال عملها.

أصبحت متطلبات الزبائن معروفة لديها، فمنهم من يرغب بالمتعة الآنية دون الخوض في تفاصيل العلاقة. ومنهم من يود علاقة دائمة تتعدى فترة اللذة، حيث ينزوي خلف نواياه الخسيسة. ومنهم من يود علاقة شرعية وزواج كإبراهيم.

مآرب الناس تختلف كألوان الطيف في الغاية والنية وفي عمق النظرة عند البعض منهم، هؤلاء البشر سماتهم كألوانهم يتبعون ميزان القلب والعقل بدرجات، فالطيور على أشكالها تقع، منهم من يبغي أن يعيش ذليلا في القاع ومنهم من يتأمل

القمة، والبعض يتدحرج على السفح متبعا ميزان ضعفه، كلٍ له رائحته ونتنه وقرفه، والبعض منهم لا رائحة له ولا لون يبهجه..

بقيت وفاء في ظرفها المضطرب مضطربة، قلقة؛ لم تجد من أصدق معها النية كإبراهيم، لم تجد من هو ببراءتها ونيتها ومستواها الفكري والثقافي لتتشرف به.

على أية حال؛ حانت الساعة الرابعة، وحانت لحظة التلاقي وانبثاق النشوة المكبوتة من سجنها، تلك التي تود أن يطلقها إبراهيم في عالم الفضاء المغشي بالأسرار والدهشة، لا شيء في هذه الدنيا يبقى على حاله، كل شيء عائم في بحر من التغير، وعسى أن تبقى على حالها ووعدها، هذا ما كان يتأمله عكس ما كانت هي تتأمله في إبراهيم.

أتصل بها... حددت له إحداثيات المكان، وهو الذي لا يعرف دقة تفاصيل العنوان جيدا، لذا استعان بسائق تكسي الذي أوصله لمبتغاه حسب عنوان الشارع المعني.

أخرج هاتفه وضغط على رقمها – ترن – ترن - ترن -- ترن – فتح الخط –

- الو --- أين أنتِ – أنا قادم في شارع البطين الذي ذكرتيه حسب العنوان؟
- خذ مسارك وستجد في نهاية الشارع مظلة (كابينة) رقم 7 لموقف عجلات التكسي، أنا أنتظرك داخل

الكابينة، مرتدية عباءة سوداء وربطة بيضاء، لا تتأخر.

وصل التكسي للموقف المذكور الذي كان خاليا من البشر إلا منها، كانت تنتظره في أواخر شهر أيلول تحت سقف المظلة تجنبا لحرارة الشمس الشديدة والرطوبة العالية، (علما المواقف توجد بها مظلة زجاجية خضراء اللون، مجهزة بلوحات إلكترونيه، وبجهاز سبلت لتبريد الجو).

نزل من التاكسي، عرفته من هيئته التي تدل على جنسيته، كان يرتدي قميصا أخضرا نصف كم أزراره العليا مفتوحة فيظهر جزء من صدره مغطى بشعر كث، مع بنطلون جينز أزرق وحذاء أسود.. ملامحه غائرة في دكنة لون وجهه، دلالة على تعرضه لأشعة الشمس المحرقة خلال فترة عمله في الورشة.. شعره أجعد كث معقود ككرة القدم، يعوم في وجهه أنف فنطاس، مفروش على نصف وجه، تعتلي عيناه الغائرتان في الجحر حاجب كث لم يشذب أو يقلم. في الحقيقة لم يعتني بمظهر ولم يهتم بشعر وجهه، فترك لحيته مبعثرة دون ترتيب.

فيما ظهرت وفاء بطلة بهية بهيئة الأميرات، كانت قد بالغت بشياكتها، أسرَّ من رأى خلال حياته، النور ينساب من وجهها الوضاء كنور القمر، تحيط عينيها مسحة خفيفة من ظلال شفاف وردي اللون، يتناسب مع لون القميص الذي ترتديه، يأطر شفتيها حمرة شفافة وردية، لماعة، تخترق حاجز

الصمت بشعلة الجاذبية، كأنها بوجهها بدر يترقرق حسنا في ليلة صيفية صافية.... كانت وفاء في هذه المرحلة من الحياة قد دخلت مجال الأزياء كعارضة بعد أن تشعبت علاقتها من خلال انحلالها. كانت لازلت غير معروفة في المجتمع.

حين دنا من مظلة الموقف وجد في داخلها فتاة بضة قسيمة يسطع في وجهها البهاء كشعلة وضاءة، أصعقته بفتنتها وطولها، لسعته بجمالها كما تلسع العقربة فريستها.... لم يتمالك نفسه حين رآها وحيدة تحت المظلة كمصباح يشع في مشكاته.

أنها فعلا هي، بل هي أجمل وأرق بكثر من الصور.. طولها الفارع أشبه بغصن بان يستقطب النظر.. أنيقة بثوبها البراق، حيث صفرة الزعفران عالقة بخيطه الوردي، متجانس مع وجهها في ألفة زاهية. حدة نظرات عينيها تدل على إذكائها، رقتها تدل على غر أنوثتها، أنها باهرة بصورتها. يطوق خصرها حزام أزرق أنيق شفاف يوائم لون حذائها ذات الكعب العالي، فيضفي عليها فتنة الأناقة..

كل ذاك كان واضحا له تحت عباءة سوداء شفيفة مفلجه، الصدر منتبذ، يشهق بثدي رقيق، خفاق تحت ردائها كحمامة. أناقة ترصن أناقة، أناقة الرداء وجاذبية الوجه تتجانس مع أناقة القد الساحر، فتنة جذابة، مفترشة على بساط الجسد كخضرة الربيع الزاهي، عدها من ذوات حور العين.

- أأنت – وفـــــــاء ؟
- نعم أنا!

حـين دنـى منهـا كثيـرا أحسـت بضـيق تنفسـي شـديد، نتيجـة العطـن الـذي يفـوح مـن جسده وبالـذات مـن فمـه! كأنـه لـم يغسـل فمــه بــالمعجون والفرشــاة قـط، إضــافة للعطــر الــرديء الــذي تعطـر بـه، بحيـث طغـى عطنـه علـى شـذى ضـوعها الفـواح المنعش، عقرت شهقة الأنوثة النتحة في جسدها.

مـا زادهـا قرفـا عـدم اهتمامـه بمظهـره الخـارجي وبقيافتـه كشـاب مواكـب للعصـر، لـم يحـدد لحيتـه المبعثـرة علـى ذقنـه... لـم يرتقـي إلـى حـدود الشخصـية المبجلـة التـي طـال انتظـار بزوغهـا، بـات تنظـر لـه نظـرة شـزره وقلـة احتـرام لرذالتـه، كـان وخمـا، غشـيما، تقـوده الغريـزة الحيوانيــة كثـور يبحـث عـن ظـل بـين أغصــان الورود البهيجة، فلم تجد لديه ما يجيرها على القناعة به.

بقيـت محافظــة علــى كياسـتها أمامــه، لـم تظهـر اشـمئزازها، لـم تبـدي إزعاجـا اتجاهــه. احتفظـت بتلـك الصــورة البراقــة أمامــه وأخفت ما في داخلها من نوايا ومآرب. عندها سألته:...

- أين المبلغ المتفق عليه ؟
- أليس الوقت مبكرا ؟ ألا نذهب لنستريح أولا ؟
- أعتقد المبلغ أولا أذا سمحت!

أخــرج إبــراهيم مــن جيبــه 500 دولار، حيــث لــم يســتطع مقاومــة عصــا أنوثتهــا الســليط، وكــل ظنــه بأنــه قــادر علــى مجاراتها.

أخذت المبلغ منه وطالبته بالباقي المتفق عليه ---

- أين الباقي؟
- هذا ما أستطيع أن أدفعه لك؟ أنها البداية..

حينهــا كشــفت لــه عــن وجههــا الثــاني، المخفــي تحــت وشــاح كبريائهــا، الوجــه ذات الطــابع المــر القاســي، كلمتــه بلغــة جديــدة وبنبــرة حــادة وجافــة ينقصــها الحيــاء، لغــة المــرأة العفيفــة الواثقــة من نفسها، لغة ملؤها الغضب، بانت بأصل معدنها الصلب.

قالت له:....

- أأنــت يــا قــذر، ذات الرائحــة العفنــة، تــود الــزواج منــي أو تمــارس الجــنس معــي!.. هــا.. لقلــة الرجــال فــي البلــد، أمضي من هنا وإلا أجعلك تندم..

صرخت بوجه...

هيا أبعد.

زجرتــه بصــوت حــاد ملئــه قســوة وغضــب، ثــم نظَــرت إليــه نظــرة اشــمئزاز ملئهــا غضــب مــن عــين تقــدح نــارا ووجــه جــانحٍ يمطــر قمطريرا.

تركتـه فـي الموقـف وحيـدا فـي موقـف لا يحسـد عليـه، ثـم همـت بالخروج من المظلة...

الحـرج كبـل سـاقيه ولـثم لسـانه، لـم يسـتطع أن يقـف بوجـه إعصـارها، صـعقته المفاجـأة. مضـت بتـأن تجـر الخطـى راجعـة لدارها التي لا تبتعد سوى دقائق مشيا على الأقدام.

تحامـل علـى نفسـه وحـاول أن يسـتجمع شـتاته سـعيه، أن يسـتعيد رباط جأشه وماله، فقال لها وهيَّ ماضية تترنم بخطواتها...

- أن كنـتُ لا أروق لـك، لـم قبضـتِ النقـود؟ أعيـدي ألـيّ نقودي، إلا يكفي ما أغدقته عليك سابقا؟.

أجابته بلكنة شديدة ملئها القسوة:.....

- أمضـي مـن هنـا يـا قـذر! وإلا أخبـرت عليـك شـرطة التحـري حـالا، هيـا أبعـد مـن هنـا وإيـاك أن تتبعنـي.. هـل فهمت.....

حينهـا تسـمر فـي مكانـه وأسـتكان فـي صـمته خوفـا مـن الفضـيحة ومـن قـدوم شـرطة التحـري التـي لا تـرحم فـي مثـل هـذه المواقـف المخزيـة، حيـث دائمـا مـا يكـون القـانون منحـازا إلـى جانـب المرأة..

بتهديـدها تكـون قـد كَسَـرتْ شـوكته، لـوت ذراعـه، أضـحى فـي جـو كئيـب بعـد أن خسـفت بـه الأرض وكسـفت شمسـه.. لقـد خسـر نصـف مرتبـه الشـهري بلحظـة، فـي ذات الوقـت احترقـت أحلامـه

التـي تأملهـا طـويلا بلحظـة رعنـاء أمـام عينيـه، دون أن يسـتطع أن يكـف جمـاح سـعيره.. صـار يلـوم قلبـه الـذي دائمـا مـا يسـقطه فـي شـباك غرمائـه، صـار يراجـع ذاتـه التـي تحجـرت أمـام كبريائها.

المفاجـأة أحالتـه إلـى كومـة فحـم يحتـرق، علمتـه وفـاء أن يراجـع نفسـه ويجـل كيانـه ويرتقـي بذاتـه. أن يـدرك هشاشـة الشخصـية التي تركبه، ليضع حدا لمهزلة أهوائه المتذبذبة..

قـرر حينهـا أن لا يتبـع أوامـر قلبـه الضـعيف، لقـد أذلـه مـرارا فـي مواقـع شـتى، خذلـه مـرات ومـرات.. تعقبـه الفشـل داخليـا قبـل أن يتعقبـه خارجيـا، كـان سـببا رئيسـيا وراء هجـرة قريتـه، وذلـك بعـد أن نكلـت بـه سـعاد.. واليـوم عـاد الفشـل يرسـم لـه طريقـا جديـدا بعـد أن نكلـت بـه وفـاء ولكـن بـاختلاف ظـرف الزمـان والمكـان والهدف..

نعـم أنـه قـدم لأبـوظبي مـن أجـل أن يحظـى بوفـاء، وأن كـان قـد أخفـى فـي باطنـه نيـة تحسـين وضـعه الاقتصـادي.... العلـة التـي صـاحبته تكمـن فـي أتباعـه لأوامـر قلبـه المراهـق، حيـث لـم يصـبر علـى خطلـه أمـام صـورة أنثـى، لـم يحتمـل أنفـه المزكـوم بحـب عبـق أنثـى، دون أن يضـطرب قلـب الانثـى. العاطفـة جردتـه مـن واقعـه القـروي ليتـبجح خلـف رعنـة رغباتـه فـي أزقـة الـدعارة والزنـا، بحثـا عـن وصـفة دواء ناجعـة لغريزتـه السـمقة فـي جـوف عاهرة.

وفي نهاية المطاف وصل إلى حد التعقل والإدراك؛ بأن القوة تكمن في الشخصية، وفي عمقه الثقافي، وفي العفة والرزانة والأناقة.. لقد وصفت له وفاء بفعلها وتصرفها خطورة توجهاته الغير مدروسة لعالم المرأة، علمته أن السعي خلف الغريزة في أزقة العهر يعتبر من الموبقات، أنها بؤرة الرزايا.

إذا كان يستحق العقاب الذي كالته له وفاء، نعم يستحق ذلك، فلابد من رادع يردعه ليعيده لجادة الصواب ولطبيعته القروية الريفية النظيفة.

الصدمة جردته من أحلامه، جاءت في محلها وفي وقتها، نبهته عن مكامن الخطورة في قامة شخصيته التي عجز أن يرمم صورته أمامها. بينت له مكانه ومكانته الحقيقية من خارطة الخسة والرذيلة، نبهته عن موطأ قدمه من الهاوية المحيطة به، فأن لم يسرع بجلد ذاته والابتعاد عن الموبقات فلن يشفع له شفيع.

لابد أن يعود لأصله القروي وأن يجلد ذاته بعصا العفة والدين قبل أن يجرفه الطوفان لمهاو المخلة. وفاء بجلدها له أعادته لرشده، حين إذ شكرها بداخله على فعلتها.

فعلا يا فاتنة شكرا لك على هذا الألم، كنت أعاقب الذات دون أعلم، ها أنتِ قد وضعت النقط على الحروف، فلابد من ثمن ندفعه كي نتعلم ونحترم الذات التي صانها الله. الحياة تجارب، وكل تجربة عبرة، وكل عبرة حجر أساس يوضع في موضع

مستقبله المناسب، يعينه على بناء الذات والجري في سراط مستقيم بعيد عن منحنيات الخسة والموبقات.

أضحى قادرا على أن يقرأ سطور مستقبله بعد أن نقطت وفاء حروف جمله المبعثرة في فضاء الظن والعذاب... حينها أوقف سيارة تكسي جديدة، لتعيده لقدره ومكانته الأولى، وبذلك قد تعلم الدرس وعاد إلى أسسه وقيمه الريفية.

وفاء لم تهتم لحالته النفسية ولا لخسارته المبالغ المدفوعة، فهو يستحق تلك الخسارة، لأنه أنسان هوائي لم يحترم كيانه جديا، فمن يمضي في هذه الدروب الملتوية لا يستحق الشفقة ولا الرحمة، كما انه يخسر قيمه التربوية والدينية إلى الأبد.. كان الأجدر به صرف هذه المبالغ على أهله وذاته الخاوية، بدل من حرقها في دور المباغي وعلى بنات الهوى والنزوات التي تطارده. لم يجبره أحد على هوانه وخسارته، لقد جاء بذاته وحط من قدره، كبل نفسه بقيود حرجة.

لقد جاء ليخسر هذا المبلغ بطيب خاطر، لذا عليه أن يتحمل وزر ضعفه وهوانه وسلوكه المشين، وعليه أن يحفظ الدرس ويقرأ محتوى السطور جيدا في المرة القادمة.

الأخطاء هي دروس فيها حكم، إذا لا بد من فهم الماضي بشكل جيد ودراسة مطبات الحياة بدقة ورزانة كي لا تتكرر ذات الأخطاء في المستقبل..

المؤلف: عباس مدحت البياتي

النهـايـة

للكاتب أحدى وعشرين كتابا
بين رواية ومجموعة قصصية

المؤلف : عباس مدحت البياتي

الروايات

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جلوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الأقداح المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات
13- الرؤيا

مجموعات قصصية

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني